كِتابُ

القَضَاءِ والقَدَرِ

تأليف

محمود بن محمد

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمؤمنين والمؤمنات

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وسلم ، **أما بعد**

فاعلم - وفقك الله – أن سلامة المعتقد في باب القدر سبيلها الرجوع إلي الكتاب والسنة ، فلا يُتجاوز فيه القرآن والحديث ، ولا يخاض فيه بالعقل والقياس وما ضلت المعتزلة القدرية ، والجهمية والأشاعرة الجبرية إلا لما خاضوا في القدر بعقولهم الفاسدة وأقيستهم الباطلة الكاسدة فقاسوا أفعال الله علي افعال المخلوقين ، وخاضوا فيها بالتعليل ، وسيأتي إن شاء الله تعالي بيان شبهاتهم والرد عليها بعد ترسيخ معتقد أهل السنة والجماعة بأدلته .

فيجب الإمساك والسكوت عن الخوض بالباطل في قضاء الله وقدره ؛ لأنه غيب استاثره الله لنفسه وهو سِرُّه في خلقه لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

فقد أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرجَ علَينا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ ونحنُ نتَنازعُ في القَدرِ فغَضبَ حتَّى احمرَّ وجهُهُ ، حتَّى كأنَّما فُقِئَ في وجنتيهِ الرُّمَّانُ ، فقالَ : أبِهَذا أُمِرتُمْ أم بِهَذا أُرسلتُ إليكم إنَّما هلَكَ من كانَ قبلَكُم حينَ تَنازعوا في هذا الأمرِ ، عزَمتُ عليكم ألَّا تتَنازَعوا فيهِ .

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، **وإذا ذكر القدر فأمسكوا) .**

ونقل قوام السنة الأصبهاني التيمي في كتاب الحجة في بيان المحجة قول أبي المظفر السمعاني :

(سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليمُ الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يَعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب وسبيلنا أن ننتهي إلي ما حُدّ لنا فيه ، وأن لا نتجاوز إلي ما وراءه ، فالبحث عنه تكلف ، والاقتحام فيه تعمق وتهور ، وجماع هذا الباب أن يُعلم أن الله تعالي طوي عن العالم ما قضاه وقدّره علي عباده فلم يطلع عليه نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ، لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم ، قال الله تعالي (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) **انتهي كلامه** .

وقال ابن بطة في الإبانة الكبري :

(القدر هو سر الله تعالى المخزون وعلمه المكتوم، الذي لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، وحجب العقول عن تخيل كنه علمه، **والناظر فيه كالناظر في عين الشمس** كل ما ازداد فيه نظراً ازداد فيه تحيراً، ومن العلم بكيفيتها بعداً، فهو التفكر في الرب عز وجل: كيف فعل كذا وكذا؟ ثم يقيس فعل الله عز وجل بفعل عباده، فما رآه من فعل العباد جوراً يظن أن ما كان من فعل مثله جور، فينفي ذلك الفعل عن الله، فيصير بين أمرين: إما أن يعترف لله عز وجل بقضائه وقدره، ويرى أنه جور من فعله، وإما أن يرى أنه ممن ينزه الله عن الجور فينفي عنه قضاءه وقدره فيجعل مع الله آلهة كثيرة يحولون بين الله وبين مشيئته ، فبالفكر في هذا أو شبهه والتفكير والبحث والتنقير عنه هلكت القدرية حتي صاروا زنادقة وملحدة ومجوسا حيث قاسوا فعل الرب بأفعال العباد وشبهوا الله بخلقه) .

وقال الآجُرِّيُّ في الشريعة :

(لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق).

وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى – كما في رسالته (أصول السنة) :

(من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها ،ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كُفى ذلك، وأُحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، ومثل ما كان مثله في القدر) .

وقال ابن عباس كما رواه عنه الخلال في السنة (ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإيمان) .

واعلم – رحمك الله - أن المراد بالنهي عن الكلام في القدر إنما هو النهي عن الخوض فيه بالباطل وإلا فالكلام فيه بالحق من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالحين مما لا بد منه ؛ إذ إنه ركن من أركان الإيمان قال فيه الرسول - صلي الله عليه وسلم - بعد أن ذكر أركان الإيمان في حديث جبريل وأن منها (الإيمان بالقدر كله) في رواية عند مسلم أو(الإيمان بالقدر خيره وشره)في الرواية الأخري قال (إنه جبريل آتاكم يعلمكم دينكم) وكان ذلك في آخر حياته صلي الله عليه وسلم .

فمعرفة القدر إذن من الدين وهي معرفة واجبة وعلم يجب تعلم معتقد الجماعة فيه ولو علي سبيل الإجمال ، غير أننا أمرنا بتدبر القرآن وتعقله، وآيات القدر من القرآن فلم تخرج عن عموم الأمر بالتدبر .

وقد سأل الصحابة - رضي الله عنهم - النبيّ - صلي الله عليه وسلم – عن أدقّ الأمور في القدر فكان يجيبهم بما يشفي العليل ويروي الغليل كما جاء في حديث جابر – رضي الله عنه – فقد روى مسلم في صحيحه عن

جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: ((لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت بها المقادير)). قال: ففيم العمل؟ فقال: ((اعملوا فكلٌّ ميسر)) وفي رواية: ((كل عامل ميسَّر لعمله)) ، وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟ فقال: ((فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكلٌّ ميسَّر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء)) .

وكذا الصحابة علموا تلاميذهم من التابعين ذلك فقد روي مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي قال : قالَ لي عِمْرَانُ بنُ الحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ ما يَعْمَلُ النَّاسُ اليومَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشيءٌ قُضِيَ عليهم وَمَضَى عليهم مِن قَدَرِ ما سَبَقَ؟ أَوْ فِيما يُسْتَقْبَلُونَ به ممَّا أَتَاهُمْ به نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فَقُلتُ: بَلْ شيءٌ قُضِيَ عليهم، وَمَضَى عليهم، قالَ فَقالَ: أَفلا يَكونُ ظُلْمًا؟ قالَ: فَفَزِعْتُ مِن ذلكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلتُ: كُلُّ شيءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فلا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إنِّي لَمْ أُرِدْ بما سَأَلْتُكَ إلَّا لأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إنَّ رَجُلَيْنِ مِن مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَقالَا: يا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ ما يَعْمَلُ النَّاسُ اليَومَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشيءٌ قُضِيَ عليهم وَمَضَى فيهم مِن قَدَرٍ قدْ سَبَقَ، أَوْ فِيما يُسْتَقْبَلُونَ به ممَّا أَتَاهُمْ به نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فَقالَ: لَا، بَلْ شيءٌ قُضِيَ عليهم وَمَضَى فيهم، وَتَصْدِيقُ ذلكَ في كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنَفْسٍ وَما سَوَّاهَا فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} .

وكذا أئمة السلف كتبوا في هذه المسائل الخطيرة كتبا كثيرة ، وفي كل كتاب ألفوه في السنة باب خاص بمسألة القدر ، فلو منعنا الحديث فيه مطلقا لكان ذلك حكما منا بتخطئتهم وتضليلهم وتسفيه عقولهم وحاشاهم .

ولو تركنا الحديث عن القدر مطلقا دون تفصيل لكان في ذلك استطالة لألسنة المبتدعة من الجبرية والقدرية لنشر باطلهم بين الناس ، فكان لا بد من البيان .

غير أن الإيمان بالقدر له ثمرات عظيمة لو تركنا الكلام فيه وتعليمه الناس لفاتنا خير كثير وعلم عظيم غزير ، ومن هذه الثمرات :

أولًا: أنه ركن من أركان الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

ثانيًا: أنه من تمام الإيمان بالربوبية ؛ لأن قدر الله من أفعاله.

ثالثًا: تحقيق عبادة التوكل والدعاء والاجتهاد في الأخذ بالاسباب الشرعية أو القدرية فيزداد إيمان العبد

ويستقر؛ لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره؛ فإنه سيرجع إلى الله بالدعاء في دفع الضراء ورفعها وطلب السراء وجلبها .

رابعًا: أن الإنسان يعرف قدر نفسه وقدر نعمة الله عليه وأنه ليس منه شيء ولا إليه شيء ولا فيه شيء إنما

هو محض فضل الله ، فلا يفخر إذا فعل الخير.

خامسًا: هون المصائب على العبد؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله؛ هانت عليه المصيبة؛ كما قال تعالى:

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} قال علقمة رحمه الله: "هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسلّم" .

سادسًا: شكر الله عز وجل علي ما يسديه من نعم .

سابعًا: معرفة وجوه الحكم من أفعاله سبحانه الحكيم العليم مما يزيد العبد إيمانا ويقينا .

وأما ما ورد من نهي النبي صلي الله عليه وسلم كما في قوله السابق ذكره (إذا ذكر القدر فأمسكوا) ، وقوله (عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه) ، فهذا النهي إنما هو :

1. عن الخوض فيه بالباطل وبلا دليل من الكتاب والسنة ؛ولهذا قال تعالي (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال عن المجرمين (ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعلم المسكين وكنا نحوض مع الخائضين) .

2. وعن الخوض في أفعال الله بالتعليل الذي يورث الاعتراض علي قضائه وقدره سبحانه ، وعن قياس أفعاله علي افعال المخلوقين والاعتراض عليها كما لأجله ضل القدرية والجبرية ، أما من سأل مستفهما فلا بأس، كما قال ابن أبي العز (فشفاء العي السؤال ، أما من سأل متعنتا – غير متفقه ولا متعلم – فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره) .

3. وعن الطعن فيه وترك التسليم والإذعان لله تعالي في قدره فهو غيب استأثره لنفسه كما سبق من كلام السلف .

4. وعن التنازع فيه الذي يؤدي للفتنة والافتراق ، والفرقة عذاب ، وليس من ذلك التنازع مع الفرق المذمومة الضالة ونقض شبههم وكشف عوارهم ؛ فإن ذلك واجب ؛ إبطالا لباطلهم ، وفيه القيام بشعيرة من أعظم شعائر الإسلام وإظهارها ألا وهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالي (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

فالحديث عن القدر إذا كان بحق وبالدليل من الكتاب والسنة فلا يمنع منه ولا ينهي عنه ، بل هو واجب علي كل مسلم كما سبق ، وأما إذا كان بباطل فهذا هو المحرم الذي نهي عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وهو محل نهي السلف في كلامهم الذي سبق من كتبهم .

والقضاء في اللغة هو إنهاء الشيء ، ويأتي علي عدة معان :

الأول : بمعني الإنهاء كقوله تعالي (فلما قضينا عليه الموت) .

الثاني : يأتي بمعني الوحي كما في قوله تعالي (وقضينا عليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) فلما عدي بإلي صار بمعني إنهاء الخبر بالوحي .

الثالث : يأتي بمعني القدر كما في قوله تعالي (فقضاهن سبع سماوات في يومين) يعني قدرهن وخلقهن .

قال ابن منظور في لسان العرب :

(وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إِلى انقطاع الشيء وتمامه وكلُّ ما أُحْكِم عمله أَو أُتِمَّ أَوخُتِمَ أَو أُدِّيَ أَداء أَو أُوجِبَ أَو أُعْلِمَ أَو أُنْفِذَ أَو أُمْضِيَ فقد قُضِيَ ، والمراد بالقَدَر التقدير، وبالقَضاء الخَلق كقوله تعالى: فقَضاهن سبع سموات؛ أَي خلقهن، فالقَضا والقَدَرُ أَمران مُتَلازمان لا يَنْفك أَحدهما عن الآخر، لأَن أَحدهما بمنزلة الأَساس وهو القَدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القَضاء، فمن رام الفَصْل بينهما فقد رام هَدْمَ البناء ونَقْضه .

وقَضَى الشيءَ قَضاء: صنَعه وقَدَّره؛ ومنه قوله تعالى: فقَضاهن سبع سموات في يومين؛ أَي فخلقهن وعَمِلهن وصنعهن وقطَعَهن وأَحكم خلقهن، والقضاء بمعنى العمل، ويكون بمعنى الصنع والتقدير وقوله تعالى: فاقْضِ ما أَنتَ قاضٍ؛ معناه فاعمل ما أَنت عامل ، وقوله تعالى: وقَضَى ربُّك أَن لا تعبدوا إلاَّ إياه؛ أَي أَمَر ربك وحَتم، وهو أَمر قاطع حَتْم وقال تعالى: فلما قَضَينا عليه الموت؛ وقد يكون بمعنى الفراغ، تقول: قَضَيت حاجتي، وقَضى عليه عَهْداً: أَوصاه وأَنفذه ، ومعناه الوصية، وبه يفسر قوله عز وجل: وقَضَينا إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ أَي عَهِدْنا وهو بمعنى الأَداء والإنْهاء . تقول: قَضَيْتُ دَيْني، وهو أَيضاً من قوله تعالى: وقَضَينا إلي بني إسرائيل في الكتاب، وقوله: وقَضَيْنا إليه ذلك الأمر: أَي أَنْهَيْناه إليه وأَبْلَغْناه ذلك، وقَضى أَي حكم. وقوله تعالى: ولا تَعْجَلْ بالقُرآن من قبل أَن يُقْضَى إليك وَحْيُه؛ أَي من قبل أَن يُبَيَّن لك بيانه) **انتهي** .

والقدر في اللغة ترتيب الشيء ليكون علي وجهٍ ما ، وهو مصدر قدر يقدر قدَرا وقد تسكن داله كما قال ابن الأثير في غريب الحديث .

وقال ابن فارس في مقاييس اللغة :

(القاف والدال والرا اصل صحيح يدل علي مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ، فالقدر مبلغ كل شيء ، يقال قدْره كذا أي مبلغه ، وكذلك القدَر، وقدرت الشيء أقدِره وأقدُره من التقدير) .

وقال ابن منظور في لسان العرب

(القدرَ محركة : القضاء والحكم ، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور ، والتقدير : التروية والتفكير في تسوية الأمر ، والقدَر كالقدْر ، وجميعها جمعها أقدار) .

واصطلاحا يُعرَّف القدر بأنه علم الله بالأشياء قبل وقوعها ، وكتابتها في اللوح المحفوظ ، وعموم مشيئته لما يقع ، وخلقه لكل شيء ، وهو الركن السادس من أركان الإيمان .

وقد ذهب بعض العلماء إلي أن القضاء هو القدر ، وأما فيما دلت عليه النصوص فالقدر غير القضاء ، فالقدر أعم من القضاء ، فالقضاء هو القدر إذا وقع ، وقبل وقوع المقدر لا يسمي قضاء ، والقدر إذا وقع وانتهي صار قضاء ، فيكون القضاء هو إنهاء القدر بحيث يكون بعض مراتبه، فالقدر سابق والقضاء لاحق ، القدر أعم والقضاء أخص لأن القدر يشمل جميع المراتب الأربعة ، وأما القضاء وهو الإنهاء فيشمل المرتبة الثالثة والرابعة المشيئة والخلق .

قال في اللسان كما سبق (المراد بالقدر التقدير ، وبالقضاء الخلق كقوله تعالى: فقَضاهن سبع سموات؛ أَي خلقهن، فالقَضاء والقَدَرُ أَمران مُتَلازمان لا يَنْفك أَحدهما عن الآخر، لأَن أَحدهما بمنزلة الأَساس وهو القَدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القَضاء، فمن رام الفَصْل بينهما فقد رام هَدْمَ البناء ونَقْضه) .

ومن استدل بآية الفرقان (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) علي أن القدر هو القضاء إذ ظاهر الاية أن التقدير بعد الخلق فنقول هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رؤوس الآيات، أو نقول: إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على قدر معين؛ كقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} ؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية، وهذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه نظير قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}؛ فلا إشكال .

وقيل العكس أن القضاء هو العلم السابق ، والقدر هو وقوع الخلق ، قال ابن حجر في الفتح (486/11) : وقالوا أي العلماء : القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل ، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله)

وقيل أن القدر هوالقضاء ولكن اذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر ، وإذا افترقا اجتمعا بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، كالفرق بين الإيمان والإسلام وقد فصّلته ودللت عليه في كتابي (مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والخوارج) .

معتقد أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر إجمالا

التصديق الجازم بأن الله قدر مقادير الخلائق ، وأنها كلها مدبرة بمشيئته مقهورة بحكمه، وأن ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطأك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لأمره ، رب كل شيء ومليكه ، له الخلق والأمر وكل ما سواه مدبر مقهور لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بل هم عبيد فقراء إلي الله تعالي من جميع الجهات ، والله غنيّ عنهم .

وآمنوا بأن للعبد مشيئة واختيارا وإرادة لكنها مربوطة بمشيئة الله كما قال تعالي (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ، بمعني أن الله علم ما سيختاره العبد من خير أو شر - وهذه المرتبة الأولي من مراتب القدر الآتي شرحها - ، وكتب في اللوح المحفوظ ما علمه منه قديما – وهذه المرتبة الثانية من مراتب القدر - فالله أول بصفاته ، أول بعلمه ، ثم شاء الله أن يفعل العبد ما اختار لنفسه من خير أو شر ولو شاء ما فعل ولكن ييسر للمهتدي فيوفقه وييسر للعاصي فيخذله وكل امرئ بما كسب رهين ، وهي في الخير إرادة شرعية لله وفي الشر هي مشيئة وإرادة كونية – وهذه المرتبة الثالثة من مراتب القدر - ، ثم خلقه الله وخلق عمله وفعله – وهذه المرتبة الرابعة - كما قال (الله خالق كل شيء) وقوله (والله خلقكم وما تعملون)، لأن العبد لا بد له من إرادة جازمة وقدرة تامة وهما مخلوقتان لله تعالي وربط السبب بالمسبب وكلاهما مخلوق له سبحانه ، فإنه سبحانه علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون كما قال تعالي (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، **وبهذا تعلم فساد اعتقاد كثير من الناس** إذا قلنا (أن الله قدر علي فلان كذا) يظنون أن الله أجبر فلانا عليه ، كلا بل معناه ما سبق ، أن الله علم بعلمه السابق ما سيختاره عبده - وليس في علمه السابق جبر- ، فكتبه في اللوح ، وشاء أن يفعل العبد ما اختاره وأراده لنفسه ثم خلقه وخلق عمله ليظهر فيه علمه السابق .

قَالَ ابْن قُتَيْبَة فِي كتاب تَأْوِيل مُخْتَلف الحَدِيث تَعْلِيقا على حَدِيث الشقي من شقي فِي بطن أمه والسعيد من سعد فِي بطن أمه مَا نَصه :

(هَذَا من بَاب الْعلم أَي علم الله أَن فلَانا سيعطى الْحُرِّيَّة وَالِاخْتِيَار فيختار مَا يُفْضِي للسعادة وَفُلَانًا سيعطاهما فيختار سَبِيل الشَّقَاء) .

وسيأتي الرد علي من يحتج بالقدر علي المعاصي ضمن الردود علي الجبرية ، فأهل السنة هم الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة فآمنوا بقضاء الله وقدره ، وبأن للعبد اختيارا وقدرة ، وأن كل ما كان في الكون من حركة أو سكون ومن وجود وعدم فهو بعلم الله تعالي ، ولا يحصل إلا بإذنه ومشيئته وقدرته ،العلم المطلق الذي لا يسبقه جهل ولا يعتريه نسيان ، وكل شيء فهو مخلوق لله تعالي ، ولا يحصل إلا بإذنه ومشيئته .

فمن رحمة الله بالعباد أَن منحهم سَعَادَة الْحُرِّيَّة وَالِاخْتِيَار والإرادة فَإِن استفادوا من هَذِه الموهبة وَعمِلُوا صَالحا سعدوا وَإِن أهملوها شَقوا إِذن فسعادة الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ثمار إِيمَان واستقامة وشقاؤها ثمار انحراف والمكلف قَادر على تَمْثِيل الدورين وَهَذَا ناموس عَام ثَابت ، نعم قد علم الله مَاذَا سيفعل مُطلق مُكَلّف وَعلم مَا سَيكون لأعمال الْمُكَلف من أثر فِي مستقبله وَلَكِن علمه لَا يَقْتَضِي جبر الْمُكَلف إِذْ الْجَبْر والتكليف لَا يَجْتَمِعَانِ بل يَعْنِي الْإِحَاطَة والشمول إِذْ هما لله وَحده ... لقد عبّد اللهُ طَرِيقَ السَّعَادَة وأمرنا بسلوكه وكفل لنا سَلامَة الْوُصُول إِن صممنا على الْوُصُول أما الشَّقَاء فظلمة لَا تخيم إِلَّا حَيْثُ يَنْعَدِم النُّور وَهُوَ طَاقَة كامنة فِينَا لَا تنعدم إِلَّا إِذا أردنَا إعدامها ، فَالله سُبْحَانَهُ قد علم قبل أَن يُوجد عباده أَحْوَالهم وَمَا هم عاملون وَمَا هم إِلَيْهِ سائرون ثمَّ أخرجهم إِلَى هَذِه الدَّار ليظْهر معلومه الَّذِي علمه فيهم كَمَا علمه وابتلاهم من الْأَمر وَالنَّهْي وَالْخَيْر وَالشَّر بِمَا أظهر معلومه فاستحقوا الْمَدْح والذم وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب بِمَا قَامَ بهم من الْأَفْعَال وَالصِّفَات الْمُطَابقَة للْعلم السَّابِق وَلم يَكُونُوا يسْتَحقُّونَ ذَلِك وَهِي فِي علمه قبل أَن يعملوها فَأرْسل رسله وَأنزل كتبه

وَشرع شرائعه إعذارا إِلَيْهِم وَإِقَامَة للحجة عَلَيْهِم لئلا يَقُولُوا كَيفَ تعاقبنا على علمك فِينَا وَهَذَا لَا يدْخل تَحت كسبنا وقدرتنا فَلَمَّا ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل الْعقَاب على معلومه الَّذِي أظهره الِابْتِلَاء والاختبار .

قال ابن تيمية في (التائية حل المشكلة القدرية) :

وإلا فكل الخلق في كل لفظة *** ولحظة عين أو تحرك شعرة

وبطشة كف أو تخطى قديمة *** وكل حراك بل وكل سكينة

همو تحت أقدار الإله وحكمه *** فما أنت فيما قد أتيت بحجة

فقضاء الله وقدره من ربوبية الله سبحانه لخلقه ؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما (القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه) ، وقال الإمام أحمد وغيره (القدر قدرة الله) ،
فالله قادر علي فعل العبد بمعني أن العبد لن يفعل ما اختار لنفسه إلا بمشيئة الله وإذنه سواء اختار خيرا أو شرا ، إيمانا أو كفرا ، طاعة أو معصية ، إن خيرا وفقه الله ويسره له وزاده هدي وشكر سعيه ، وإن شرا وعصيانا وكفرا خذله وسلط عليه الشياطين وجعل لهم سلطانا عليه فلا يسلط الشياطين إلا علي من علم منه قديما أنه لن يؤمن أو أنه سيختار المعصية فيخذله ويتركه وما اختار لنفسه

كما قال الآجري في الشريعة

(بَابُ ذِكْرِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُضِلُّونَهُمْ وَلَا يُضِلُّونَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَلَا يَضُرُّونَ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ السَّحَرَةُ لَا يَضُرُّونَ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) .

وليس هذا ظلما بل هذا هو العدل لأنه أعطي للإنسان عقلا يدرك به ويعلم ما ينفعه وما يضره وهو ليس كالبهيمة ، وأرسل إليه رسلا وبيّن له الحق من الباطل وأقام عليه الحجة كما قال تعالي (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل) .

ولهذا قال ابن تيمية في تائية القدر :

ولسنا إذا قلنا جرت بمشيئة : من المنكري آياته المستقيمةِ

بل الحق أن الحكم لله وحده : له الخلق والأمر الذي في الشريعةِ

فما شاء مولانا الإله يكون : وما لا لا يكون بحيلةِ

فلا نحتج بالقدر علي المعصية بل نجتهد في طاعته وإلي القدر نصير وكل من الطاعة والمعصية لا تكون إلا بإذنه الكوني .

وإنما الظلم الحقيقي أن يقول لك افعل ثم تفعل ثم يعاقبك علي ما أمرك به ، أما أن يقول لك لا تفعل ثم تفعل فيعاقبك فهذا ليس ظلما ابدا ، ولو أن رجلا قال لولده لا تفعل ثم فعل فعاقبه لعدّه الناس عدلا وتقويما لهذا الابن ، **وبهذا تعلم خطأ من يظن أن الظلم** أن يهدي الله العاصي ليترك المعصية كما زاد المهتدي هدي فنقول لهم بل هذا هو العدل لأن المهتدي أخذ بالاسباب واستعان بمولاه فهداه، فمنك الاهتداء وعليه سبحانه الهداية ، بخلاف العاصي لم يجاهد نفسه كما جاهدها المهتدي ولم يأخذ بالاسباب التي أخذها المهتدي فكيف يسوّي الله بينهما هذا هو عين الظلم ، فالله تبارك وتعالى إنما يهدى من كان أهلاً للهداية، ويضل من كان أهلاً للضلالة، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} ويقول تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} .

والعاصي عصى الله بقضاء الله وقدره ومشيئته الكونية لا الشرعية ، والمطيع أطاع الله بمشيئة الله الكونية والشرعية لأن المشيئة الشرعية تتعلق بما يحبه الله وأرسل به رسله ، وأما المشيئة الكونية فتتعلق بما يحبه وما لا يحبه ، هذا المعتقد إجمالا وسيأتي تفصيله في الكلام عن مراتب القدر ومسائلها .

قال ابن تيمية في منهاج السنة (3/ 38) :

(وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ، إِنَّمَا أَمَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ فَهُوَ مُحْسِنٌ إِلَى عِبَادِهِ بِالْأَمْرِ لَهُمْ، مُحْسِنٌ لَهُمْ بِإِعَانَتِهِمْ عَلَى الطَّاعَةِ **وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ عَالِمًا صَالِحًا أَمَرَ النَّاسَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، ثُمَّ أَعَانَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَلَمْ يُعِنْ آخَرِينَ، لَكَانَ مُحْسِنًا إِلَى هَؤُلَاءِ إِحْسَانًا تَامًّا، وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لِمَنْ لَمْ يُحْسِنْ إِلَيْهِ** ، وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ عَاقَبَ الْمُذْنِبَ الْعُقُوبَةَ الَّتِي يَقْتَضِيهَا عَدْلُهُ وَحِكْمَتُهُ ، لَكَانَ أَيْضًا مَحْمُودًا عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ، وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ ؟ ! .

فَأَمْرُهُ لَهُمْ إِرْشَادٌ وَتَعْلِيمٌ وَتَعْرِيفٌ بِالْخَيْرِ، فَإِنْ أَعَانَهُمْ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ قَدْ أَتَمَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْمَأْمُورِ، وَهُوَ مَشْكُورٌ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَإِنْ لَمْ يُعِنْهُ وَخَذَلَهُ حَتَّى فَعَلَ الذَّنْبَ كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى، وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَلْزِمَةً تَأَلُّمِ هَذَا، فَإِنَّمَا تَأَلَّمَ بِأَفْعَالِهِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُورِثَهُ نَعِيمًا أَوْ أَلَمًا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِيرَاثُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ فَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، فَجَعَلَهُ الْمُخْتَارَ مُخْتَارًا مِنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَتَرْتِيبِ آثَارِ الِاخْتِيَارِ عَلَيْهِ مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ) **انتهى كلامه.**

وهذا المعتقد الإجمالي الجامع خالف فيه القدرية وذلك أنهم نفوا علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه وهم غلاة القدرية ، والقدرية المتوسطة من أثبت العلم والكتابة ونفوا مشيئته وخلقه لأفعال عباده ، وخالف الجبرية بإثبات المشيئة لله وحده ونفوا مشيئة العبد وأن ربهم هو الفاعل حقيقة ، والجبرية المتوسطة وهم الأشاعرة من اخترع الكسب وهم أصحاب الجبر الباطن دون الظاهر ، وسيأتي الرد عليهم في محله وبيان شبهتهم ونقضها إن شاء الله تعالي .

مراتب القدر وأدلتها

هي أربعة مراتب يجب الإيمان بها كلها ومن لم يؤمن بواحدة منها لم يؤمن بالقضاء والقدر ، قال تعالي (وكان أمر الله قدرا مقدورا) ، وقال (إلي قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) ، وقال (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) ، وقال (والذي قدر فهدي) ، وقال (ثم جئت علي قدر يا موسي) ، وقال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) إلي غير ذلك من الآيات .

و أما الأدلة من السنة فمنها قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه الترمذي في الجامع وغيره (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني محمد رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر) ، فعلّق الإيمانَ علي الإيمان بركن القضاء والقدر ، وفي حديث جبريل (قال : " أخبرني عن الإيمان " قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، **وتؤمن بالقدر خيره وشره**) ، قال : " صدقت " ، وفي رواية (قالَ: أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكِتابِهِ، ولِقائِهِ، ورُسُلِهِ، وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ، **وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ كُلِّهِ**) .

وروي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي صلي الله عليه وسلم قال (الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ ولا تَعْجِزْ، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَما شَاءَ فَعَلَ، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) .

وروي مسلم أيضا في صحيحه عن طاوس بن كيسان أنه قال:

«أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز "

وعن الوليد بن عبادة بن الصامت رضي الله عنهما، قال: دخلت على أبي - عبادة - وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه، قال: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول ما خلَق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى بتلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)، يا بني إن مت ولست على ذلك، دخلت النار" صحيح الترمذي .

ونقل الإجماع غير واحد من السلف في عقائدهم المجمع عليها فقد أخرج ابن أبي عاصم في السنة عن عمرو بن العاص قال خرج : خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم علي أنبيائهم ، **ولن يؤمن أحد حتي يؤمن بالقضاء والقدر**) ، فنفي الإيمان عن من لم يؤمن بالقدر .

وقال ابن بطة في الإبانة :

(باب التصديق بأن الإيمان لا يصح لأحد ولا يكون العبد مؤمناً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وأن المكذب بذلك إن مات عليه -أي: على التكذيب- دخل النار، والمخالف لذلك من الفرق الهالكة) .

ويقول الإمام البغوي في شرح السنة :

(الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم) .

بل كانوا في الجاهلية مؤمنين بالقدر مثبتين لعلم الله تعالي ومشيئته وكتابته ، ولم يكن منهم من يري أن الأمر مستأنف وأنه لا يعلم الشيء قبل وقوعه كما تقوله القدرية الكافرة

قال عنترة

يا عبل أين من المنية مهربي : إن كان ربي في السماء قضاها

وقال زُهَير

فَـلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُـمْ لِيَخْفَـى وَمَهْمَـا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَـمِ

يُؤَخَّـرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَـرْ لِيَـوْمِ الحِسَـابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وقال طرفة بن العبد

فلو شاءَ رَبي كنتُ قَيْسَ بنَ خالِدٍ : ولو شاءَ ربي كنتُ عَمْرَو بنَ مَرثَد

وروي اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة عن أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب – رحمه الله – قال :

(لا أعلم عربيا قدريا ، قيل له يقع في قلوب العرب القول بالقدر ، قال : معاذ الله ، ما في العرب إلا مثبت للقدر خيره وشره أهل الجاهلية والإسلام ، وكلامهم كثير بين ، ثم أنشد

تجري المقادير علي غرز الإبر : ما تنفذ الإبرة إلا بقدر

وأنشد لامرئ القيس : إن الشقاء علي الأشقين مكتوب) انتهي كلامه .

وهذا هو الموافق تمام الموافقة مع العقل والفطرة لأنه إذا تقرر أن الله هو الخالق لزم ضرورة أنه لا يقع شيء إلا بعلمه وإذنه ومشيئته وخلقه كما قال تعالي(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ، وقال تعالي (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) ، وهذا الكون كله بما فيه من نظام وتناسق وتآلف بين كل سبب ومسببه وعلة ومعلولها وأثر ومؤثره لا يمكن أن يوجد هكذا صدفة إذ ما وجد صدفة ليس له أصل وجود منظم فكيف يكون منظما حال بقائه **!!**

ومن الحسّ أيضا فقد أخبر النبي – صلي الله عليه وسلم – بأمور مستقبليه كثيرة بوحي من الله تعالي وقد وقعت فسبحان الله العليم القدير الخلاق ، ثم إنه لا تستقيم حياة الناس إلا بالتوحيد ، والقدر نظام التوحيد كما قال ابن عباس فلن تستقيم حياة الناس إلا بالإيمان بالقضاء والقدر .

1- **المرتبة الأولي** : العلم ، أي الإيمان بأن الله تعالي علم كل شيء دقه وجله كلياته وجزئياته الموجود منه والمعدوم والممكن والمستحيل ، ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،علما كاملا لا يسبقه جهل ولا يعقبه نسيان ، كما قال تعالي (إنا كل شيء خلقناه بقدر) قال عكرمة : نزلت تعييرا لاهل القدر، أي الذين ينفون علمه السابق ، وقال تعالي (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فعلم ما لم يكن كيف كان يكون ، ومثله قوله تعالي (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) .

وأدلة مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ التي ستأتي في شرح المرتبة التالية هي نفسها أدلة مرتبة العلم علم الله الأول القديم السابق الأزلي لأن كتابته السابقة سبحانه تدل علي علمه بها قبل كونها ، فالآيات والأحاديث نصت علي أنه كتب فماذا كتب إن لم يكن قد علم **!؟**

ومن أدلة هذه المرتبة كذلك قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ}

قال مجاهد :علم من إبليس المعصية وخلقه لها ، وسنده إليه صحيح كما عند اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة .

وفي الحديث المتفق عليه : "ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد علم مكانها من الجنة أو النار" .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت منهم وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين" **قال ابن القيم في شفاء العليل** : ومعنى الحديث الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا

قلت :

ومثله ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : أتي رسول الله صلي الله عليه وسلم بصبي من صبيان الأنصار ، فصلي عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت : طوبي لهذا عصفور من عصافير الجنة ن لم يعمل سوء ، ولم يدركه قال الرسول صلي الله عليه وسلم : أو غير ذلك يا عائشة ؟ خلق الله عز وجل الجنة ، وخلق لها اهلا ، وخلقهم في أصلاب آبائهم .

قلت : وهذا لا ينافي الإجماع المنعقد علي أن أطفال المؤمنين في الجنة وأنهم تبع لآبائهم لقوله تعالي (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)

روي الطبري عن ابن عباس أن أولادهم الصغار ملحقون بهم ، **قال النووي**: (أجمع من يُعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفا، وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا وأجاب العلماء عنه بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة)

وقد عقد البخاري في (صحيحه) باباً عنون له بقوله: (باب فضل من مات له ولد فاحتسب). وساق فيه حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم :- ما من الناس مسلم يتوفي له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، وحديث أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم :- من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجاباً من النار أو دخل الجنة ، وحديث البراء رضي الله عنه قال: لما توفى إبراهيم عليه السلام قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- إنّ له مرضعاً في الجنة .

قال أبو المظفر السمعاني :

(وأما اعتقاد أهل السنة في أمر الأطفال فهو ما نطق به الحديث من توقيف الأمر فيهم يفعل الله بهم ما يريد) ، ونقل القرطبي التوقف عن حماد بن سلمة وحماد بن زيد وإسحاق بن راهوية .

وأجاب السندي بجواب اخر عن حديث عائشة غير الذي أجاب به النووي فقال في حاشيته علي سنن النسائي (أنه إنما أنكر عليها الجزم بالجنة لطفل معين ، ولا يصح الجزم في مخصوص لأن إيمان الأبوين تحقيقا غيب وهو المناط عند الله تعالي) .

قلت :

قد يكون الحديث ردا علي القدرية الذين حذر منهم النبي صلي الله عليه وسلم حتي لا يظنوا أنهم في الجنة لأجل عدم علم ربهم فيهم ماذا كانوا عاملين لأنهم ينفون علم الله سبحانه وأنه لا يعلم

الشيء إلا بعد وقوعه ، كما سيأتي في بيان منهجهم ونقضه عليهم إن شاء الله تعالي ، فقال لها (الله أعلم بما كانوا عاملين) دفعا لهذا المعتقد، والله أعلم .

ومن أدلة علم الله أيضا قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه وقال أيضا على علم قد سبق عنده ، وقال أيضا: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه وقال أبو إسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين ، وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره ، على علم حال من الفاعل والمعنى أضله الله عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه وعلى الثاني حال من المفعول أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال .

وقال تعالي :{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار فالجملة في محل نصب حال .

وفي حديث دعاء الاستخارة الذي علمه النبي أصحابه المروي عند مسلم وغيره : "اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به"

وقوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} قال ابن القيم في شفاء العليل : بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل وقال سبحانه: {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} وهو صلح الحديبية وهو أول الفتح المذكور في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً} فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه .

ويشبه هذا قول يوسف الصديق: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} قال ابن القيم في شفاء العليل : فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنا ومصائب وباطنها نعما وفتحا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة .

قال الآجري في الشريعة (باب ذكر السنن والآثار المبينة بأن الله عز وجل خلق خلقه ، من شاء خلقه للجنة ومن شاء خلقه للنار ، **في علم قد سبق**) .

واعلم – وفقك الله – أنه لا يمكن لأحد أن يعلم علم الله الذي علمه أزلا إلا بخبر عنه سبحانه كما أخبر في كتابه العزيز ما كان من الأمم السابقة وبعض ما سيكون وكما بين رسولنا صلي الله عليه وسلم ما يحصل من أشراط الساعة الكبري والصغري بوحي من الله عز وجل .

وليس معني علمه سبحانه بأحوال عباده أنه اضطرهم إلي فعل الطاعة أو المعصية بل علم ما سيكون منهم فلما خلقهم وشاء أن يفعلوا ما اختاروا لأنفسهم طابق علمه فيهم عملهم ، وما من غائبة في السماء والارض إلا في كتاب مبين .

وإنكار هذه المرتبة من مراتب القدر وهي علم الله سبحانه ، كفر بواح ؛ لأن فيه تكذيبا لله ورسوله ، واتهامه بما لا يجوز .

فقد أخرج الخلال في السنة عن عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبي وسأله علي بن الجهم عمن قال بالقدر يكون كافرا ؟ ، فقال أبي : إذا جحد العلم ، إذا قال : الله جل وعز لم يكن عالما حتي خلق علما فعلم فجحد علم الله فهو كافر .

واعلم – وفقك الله – أنه إذا عُلل شيء في القران والسنة بقول (كي يعلم الله ذلك الشيء) كقوله تعالي (إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبيه) وقوله (ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب)، فالمقصود إظهار ما تنقطع به الحجة لأن الله لو حاسبهم علي علمه السابق لكان لهم حجة ، أو أن المعني (ليري) أو (ليظهر علمه فيهم) ، ومما ينبغي العلم به أن علم الله الأول ليس كعلمه بعد الظهور فعلمه الأول صفة ذاتية وبعد الظهور صفة تجدد فعلية لا بمعني كونه سبحانه لم يعلمها حاشاه سبحانه فهو العليم الخبير، ولكن المراد أن يعلمها موجودة ، فصفة العلم لله عز وجل صفة

ذاتية باعتبار اتصاف الله – عز وجل – بها أزلا ، وصفة فعلية باعتبار علمه بتجدد الحوادث ، فالعلم المتجدد إنما هو بعتبار وجود الشيء حاضرا مع علمه سبحانه أزلا أنه سيقع ، فعلمه بها موجودة غير علمه أزلا أنها ستقع ، هذا معتقد أهل السنة والجماعة خلافا للاشاعرة الذين لا يثبتون إلا العلم الأزلي وينفون كونه صفة فعلية بناء علي اعتقادهم نظرية الأعراض والأجسام ، وقد نقضتها بحمد الله في كتابي (توحيد الله باسماءه وصفاته) يسر الله الانتهاء منه ، وترتب علي معتقدهم الباطل مفاسد كثيرة منها اتهام ربهم بالجهل فهو عندهم علم قديما أن الشيء سيقع ن ولكنه حال وقوعه لا يعلمه لأنهم ينفون تجدد الصفة ، والصفة لا تجدد ولكن الذي يتجدد الحوادث الموجودة من وقت لآخر ، ولكن الاشاعرة لا يعقلون ، وإذا قلنا لهم ها هو الشيء الآن وقع موجودا بعد أن علم الله الأول أنه سيقع فهل ربهم يجهل الآن أنه قد وقع موجودا ؟ لو قالوا لا ن غذن فعلمه الشيء موجودا غير علمه به سابقا أنه سيوجد فيلزمكم أن تثبتوا صفاة العلم صفة ذاتية وفعلية باعتبارين مختلفين ، وإذا قالوا لا فقد اتهموا معبودهم الذي ليس له مكان بالجهل ، وكذلك هو اعتقادهم في صفة الإرادة لله عز وجل فعندنا - أهل السنة والجماعة – هي صفة ذاتية باعتبار اتصاف الله بها ، وفعلية باعتبار أنه فعال لما يريد كيفما يريد ووقتما يريد ، وهم لا يثبتونها إلا صفة ذاتية لا تتجدد ، وفسروا هذا الإرادة القديمة بالعلم !! ، وقالوا الإرادة هي تخصيص المقدورات المعلومة أزلا لله عز وجل بما خصصت به من الأعراض ، فأرجعوا الإرادة إلي صفة العلم ففسروها بصفة أخري !هي العلم قديما بما تختص به المقدورات من الأعراض ! وعلي هذا فصفات الله عند هؤلاء الأشاعرة أمر خارج عنه فلم تعد صفات ذاتية ، وفسروها مع العلم بالقدرة من حيث ما يسمونه بالجهة الصلوحية والتنجيزية ، ونحن نسألهم إذا وقع شيء ما فهل أراده الله أم لا ؟ فإن قالوا أراده فيلزمهم قول السلف أن إرادته بهذا المعني متجددة وهي غير إرادته الذاتية ، لكنهم

يهربون من ذلك فيقولون هذه لا تسمي إرادة إنما هي قدرة تنجيزية حالية ففسروا الصفة بصفة أخري كما يفسرون الرحمة بالإرادة والغضب بالإرادة هذه إرادة الانتقام وتلك إرادة الثواب **!!** فالإرادة عند القوم علم قديم بتخصيصات ، وقدرة حال وقوع الشيء ، وقولهم منقوض مردود بما هو مبسوط في موضعه ، ولكن المراد هنا بيان إلحاد القوم طهر الله الأرض منهم .

وفي ذلك يقول ابن تيمية في كتاب القدر وهو المجلد الثامن مجموع الفتاوي صفحة 496 :

(وأما قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وقوله : لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، ونحو ذلك **فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده** ، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب **والأول هو العلم بأنه سيكون ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب** فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا : لنرى ، وكذلك المفسرون قالوا : لنعلمه موجودا بعد أن كنا نعلم أنه سيكون ، وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار : منهم من يقول : المتجدد هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم فقط وتلك نسبة عدمية . ومنهم من يقول : بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون وهذا كما في قوله : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فقد أخبر بتجدد الرؤية فقيل نسبة عدمية وقيل المتجدد أمر ثبوتي.

والكلام على القولين ومن قال هذا وهذا وحجج الفريقين قد بسطت في موضع آخر ، وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتي كما دل عليه النص وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه فإنه كان يقول بقول ابن كلاب فر من تجدد أمر ثبوتي وقال بلوازم ذلك ، فخالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة اقتضت أن يهجره الإمام

أحمد ويحذر منه ، وقد قيل : إن الحارث رجع عن ذلك .

والمتأخرون من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة على قولين : منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث ، وهذا مبسوط في موضعه والمقصود هنا : أن تقدم علم الله وكتابته لأعمال العباد حق والقول بحدوث ذلك قول مهجور – يعني قول القدرية الغلاة بنفي علم الله وأن ربهم لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه - كما قاله الناظم إن كان قد أراد ذلك وليس في ذلك ما ينافي أمر الله ونهيه فإن كونه خالقا لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي . فكيف العلم المتقدم وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبورا لا قدرة له ولا فعل كما تقوله الجهمية المجبرة . **انتهي كلامه**

2 – المرتبة الثانية من مراتب القدر مرتبة الكتابة

ومن أدلتها قوله تعالي (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

وقوله تعالي (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك علي الله يسير)

وقوله تعالي (وكل صغير وكبير مستطر) .

وقوله صلي الله عليه وسلم كما عند أبي داوود بسند صحيح

(إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال رب وماذا أكتب؟ فال اكتب مقادير كل شيء حتي تقوم الساعة)

ولم يرد دليل علي أن ما بعد البعث والحساب مكتوب ، الله يعلمه قطعا كما سبق في بيان مرتبة العلم ، ولكن هل هو مكتوب أم لا ؟ لم يرد علي ذلك دليل أعلمه ، وإنما الوارد أن الذي كتب إنما هو إلي قيام الساعة .

ومن الأدلة أيضا قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود ، والذكر أم الكتاب الذي عند الله ، والأرض الدنيا ، وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

و في الحديث المتفق على صحته: "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض " .

وقال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ، فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتاب المقارن لأعمالهم ، وآثارهم فيها قولان للمفسرين الأول وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم ، والثاني ما قال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: "نزلت هذه الآية في بني سلمة أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد وكانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا بل نمكث مكاننا واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: "كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بني سلمة ديارَكم تُكتبْ آثارُكم "

فائدة :

روي مسلم عن جابر – رضي الله عنه – قال : خلت البقاع حول مسجد رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلي قرب المسجد فبلغ ذلك النبي – صلي الله عليه وسلم – فقال لهم : بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد فقالوا : نعم قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة (ديارَكم تكتبْ آثاركم) وهذا أسلوب إغراء كما هو مقرر في النحو أي الزموا دياركم تكتب حسنات خطاكم ، وفي رواية عند البخاري عن أنس – رضي الله عنه – قال (أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلي قرب المسجد فكره النبي – صلي الله عليه وسلم – أن تعري المدينة ، وقال (يا بني سلمة ألا تحتسبون) فأقاموا ولم ينتقلوا)

قال ابن حجر في الفتح معلقا

(وكأنه اقتصر في مخاطبتهم علي التعليل المتعلق بهم لكونه أدعي لهم إلي الموافقة ، وقوله تعري المدينة فتخلو وتترك عراء ، وهذا تنبيه علي علة أخري تحملهم علي مقامهم بمواضعهم وهي أنه كره أن تترك جهات المدينة عراء أي فضاء خالية فيؤتون منها)

وعليه فليس في الحديث دلالة علي مشروعية جلب المشقة ؛ لأن النبي –صلي الله عليه وسلم – أمرهم أن يمكثوا في ديارهم حتي لا تصبح المدينة مكشوفة لأعدائهم .

وقوله تعالي (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلي ربهم يحشرون) ، والكتاب هنا الذكر ، وقيل القرآن .

وقوله تعالي (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} قال ابن عباس: "في اللوح المحفوظ المقري عندنا" قال مقاتل: "أن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ وأم الكتاب أصل الكتاب وأم كل شيء أصله" والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)

وقوله تعالي (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ)

وقوله تعالي (**وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ**) قال عطاء ومقاتل: "كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ" .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: "ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه" .

وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق الفرج ذلك كله ويكذبه" ,

وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: "دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا: قد قبلنا يا ِرسول الله قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر، قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي ينقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها فالرب سبحانه كتب ما يقوله وما يفعله وما يكون بقوله وفعله وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها. شفاء العليل .

و في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي ".

وقد قال تعالى: {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم ، وقال آخرون لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم . شفاء العليل .

ولا يتم الإيمان بمرتبة الكتابة إلا بالإيمان باللوح والقلم

واللوح ذكره الله تعالي في كتابه في غير ما آية كقوله عز وجل (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ، وسماه سبحانه كتابا مكنونا فقال سبحانه (في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) ، وسماه أم الكتاب فقال (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) .

وسمي لوحا لما فيه من البهاء والنور ، وذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن مما خلق الله لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} ، وفي سند الحديث مقال .

وهل كان العرش قبل القلم أم كان القلم قبله ؟

الصحيح أن العرش قبل القلم وعندنا في ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي أخرجه مسلم في صحيحه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه علي الماء) وهذا الحديث من الأدلة علي مرتبة الكتابة لأنه أتي بلفظ آخر بلفظ (قدر الله مقادير الخلائق ...) والتقدير هنا بمعني الكتابة لا العلم لأنه لم يزل ولا يزال عالما ولا يحد علمه قبل خلق السماوات والأرض سبحانه .

وهذا الحديث مقتضاه أن العرش قبل القلم ، ويؤيد هذا المعني الرواية الأخري (أولُ ما خلق الله القلمُ فقال له اكتب) بالضم ، يعني حين خلقه ، وأما رواية عبادة بن الصامت (إن أولَ ما خلق الله القلمُ فقال له اكتب) فبالجمع بينها وبين الرواية السابقة وحديث عبد الله بن عمرو أن نقول أن الأولية هنا أولية نسبية لا مطلقة فالجمع بين الروايات أولي من تعارضها في الظاهر كما هو مقرر أصوليا ، ويؤيد أن المعني في رواية عبادة أولية نسبية وليست أولية مطلقة الرواية الأخري عند الطبراني (لما خلق الله القلم قال له اكتب) ، ولهذا فالمقصود من رواية عبادة بن الصامت أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده أي لهذا العالم المشاهد فقط من المخلوقات كالسماوات والأرض فهي أولية نسبية وهذا موافق لاعتقاد أهل السنة في تسلسل الصفات كما فصلته في كتابي (معتقد

أهل السنة في أسماء الله وصفاته والرد علي النفاة والمعطلة والمحرفة) يسر الله الانتهاء منه ،وفيه بينت معتقد أهل السنة في تسلسل الصفات فقلت :

(هل اتصف الله بصفاته وتسمي بأسمائه بعد ظهور أثرها أم قبل ظهور أثرها ؟

اختلف الناس علي مذاهب :

الأول : مذهب المعتزلة والجهمية أنه لم يصر له أسماء ولا صفات إلا بعد أن ظهرت آثارها فلما خلق صارت له صفة الخلق وصار من أسمائه الخالق وذلك علي أصل عندهم أن أسماء الله مخلوقة أي أنه سُمّي سميعا لخلقه من يسمع وسمي بصيرا لخلقه من يبصر وهكذا ، أو بمعني آخر أن خلقه هم الذين سموه بأسمائه وصفاته فأسماؤه سبحانه عندهم مستعارة ، فهي ليست أسماء الله بل هي أسماء مخلوقة لذا فهم نفاة الاسماء والصفات بهذا الاعتبار ، يعنون أنه لم يتصف بصفة ولم يسم باسم إلا بعد أن أوجد أثر الصفة والاسم ويعبرون في مثل هذه المسائل عن الصفات بالواو فيقولون الله وصفته وعلمه لأن الصفة عندهم منفكة عن الموصوف وغير ملازمة له وليست قائمة به ، أما أهل السنة فيعتقدون أن الصفة قائمة بالذات ويقولون كان بصفاته فيعبرون بالباء التي تدل علي المصاحبة لأن الصفات قائمة بذات الرب .

الثاني : مذهب الأشاعرة والماتريدية في أن الرب كان متصفا بصفات وله أسماء ولكن لم تظهر آثارها بل ظل زمنا طويلا معطلا عن الأفعال ، له صفة الخلق وليس ثم ما يخلقه وله صفة الفعل ولم يفعل شيئا وهكذا ، وقالوا هذا فرارا من قول الفلاسفة الذين زعموا أن هذا العالم قديم وأن المخلوقات متناهية ودائمة من جهة الأولية مع الرب .

والفلسفة كلمة يونانية معربة ، وهي مبنية علي النظر العقلي المجرد عن الوحي فالعقل عندهم حاكم علي الشرع والعياذ بالله ، و من أشهر هؤلاء أرسطو وأفلاطون ومن

المنتسبين للإسلام ابن سينا والفارابي والكندي ، ومن ضلالات الفلاسفة : قولهم بقدم العالم ، وعندهم مقام الفيلسوف أعلي من مقام الأنبياء والرسل ، كإخوانهم من الزنادقة الذين يعتقدون أن الولي أعلي مقاما من النبي والرسول ، ومن معتقداتهم أيضا أن ربهم يقتصر علمه علي الكليات دون الجزئيات ، وأن الأرواح تحشر مجردة عن الأجساد فهم كفار بالبعث ، وأن الجنة والنار ليست علي حقيقتها وإنما هي أمثال مضروبة لردع الناس !

وفيهم قال ابن تيمية في تائية القدر :

وأن ملاحيد الفلاسفة الألي : يقولون بالفعل القديم بعلةِ

بغوا علة في الكون بعد انعدامه : فلم يجدوا ذالكم فضلوا بضلةِ

حيث ظلوا يبحثون عن علة إيجاد هذا الكون فلم تهتد عقولهم – مع ظهور الأمر ووضوحه – فقالوا بقدم العالم فأنكروا وجود الرب سبحانه ، ثم تناقضوا وحاروا وتضاربت نظرياتهم فهم في أمر مريج ، وهذا دأب من أعرض عن الحق فإنه سيبتلي بالباطل .

ثم قال ابن تيمية في التائية

وإن مبادئ الشر في كل أمة : ذوي ملة ميمونة نبوية

بخوضهم في ذاكم صار شركهم : وجاء دروس البينات بفترة

كأنه يشير إلي قول النبي صلي الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابي هريرة (أَنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ما نَهَيْتُكُمْ عنْه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ، فإنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ علَى أَنْبِيَائِهِمْ)

فكل من انشغل عن الأمور النافعة بالكلام فيما لا ينفع وتضييع الأوقات فيما لا طائل تحته ابتلاه الله بالأمور الضارة ، والجزاء من جنس العمل ، نعوذ بالله من الخذلان .

المذهب الثالث : مذهب أهل الحديث والأثر وهو أن الرب أول بصفاته ، وأن صفات الرب لا بد أن تظهر آثارها لأنه فعال لما يريد ، فهو أول بصفاته وصفاته تظهر آثارها ، فهو فعال لما يريد علي عكس ما اعتقده الأشاعرة أنه ظل مُعطلا فترة ، وليس بخلق الخلق استفاد اسم الخالق علي خلاف ما اعتقدته الجهمية والمعتزلة أنه سمي سميعا لخلقه من يسمع ، فصفاته سبحانه قديمة قدم الذات وآثارها كذلك لا تنفك عنها ، ويجوز أن يكون خلق أنواعا من المخلوقات وأنواعا من العوالم غير هذا العالم الذي نراه فجنس مخلوقات الله أعم من أن تكون هذه المخلوقات الموجودة الآن فلا بد أن يكون ثم مخلوقات أوجدها الله وأفناها ظهرت فيها آثار أسمائه وصفاته ولا بد فهو فعال لما يريد ، فالعوالم التي سبقت هذا العالم كثيرة متعددة لا نعلمها الله يعلمها ، هذا ما قيل أنه يسمي بقدم جنس المخلوقات أو القدم النوعي ، وهذا متسلسل في الزمن الأول في الأولية والآخرية ، كما كان بصفاته أزليا كان ولا يزال عليها أبديا ، فأهل السنة يثبتون الصفات لله قديما مع اعتقادهم إعمالها لأنه فعال لما يريد كما قال عن نفسه وفي نفس الوقت ينفون أوليتها مع الرب ولكن لا يقولون ظل فترة معطلا بل أثر الصفة موجود لم يعطل وفي نفس الوقت ينفون أزلية المخلوقات مع الرب بل يقولون هو الأول ليس قبله شيء فيثبتون الاتصاف مع وجود الاثر وينفون في نفس الوقت أولية الأشياء مع الرب ولا تعارض في ذلك إلا في أذهان الاشاعرة ، بل الأشاعرة هم الذين يثبتون أولية مع الرب لأنهم يقولون كان معطلا فترة عن الفعل كأن ربهم له أول بعد أن كان معدوما تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ، وقول المعتزلة والجهمية فيه تعطيل للرب عن أسمائه وصفاته وهذا نقص بلا شك لأن الصفات هي عنوان الكمال ، وقول الاشاعرة والماتريدية فيه وصف للرب بالنقص

لأنهم يزعمون أنه متصف ولكن لا أثر للصفة وهذا نقص ، ففي كلا المذهبين عطلوا الرب سبحانه وتعالي .

فإن قلت ما معني التسلسل وما معتقد أهل السنة فيه ومن خالفهم من الفرق الضالة ؟؟

فأقول : المسألة السابقة بحثت في اتصاف الرب جل وعلا أما هذه المسألة فنبحث فيها آثار هذه الصفات وتسلسلها ، والتسلسل هو التجدد والاستمرارا وعدم الانقطاع ، الشيء يتلو شيئا ويتلوه شيء ، والمراد تجدد اثر الصفات إن كانت اختيارية ، وينبغي أن يعلم أن إثبات الصفة والاتصاف لا يقتضي إثبات التسلسل أما إثبات التسلسل فيقتضي إثبات الصفة من باب أولي .

وله جهات ثلاث :

الأولي : تسلسل صفات الرب جل وعلا ، فذهبت الجهمية والمعتزلة إلي أن الرب يمتنع تسلسل صفاته في الماضي والمستقبل فلا بد من أمد لابتداء الصفة ولا بد من زمن تنتهي فيه ، والعياذ بالله

الثاني : قول الأشاعرة والماتريدية وهو أن التسلسل في الماضي ممتنع وفي المستقبل لا يمتنع ، بمعني ان الاتصاف لا بد له من زمن ابتدأ فيه ، وهذا مبني عندهم علي أن الله كان متصفا بصفات ولكن ظل فترة معطلا إلي أن ظهر أثر الصفة وذلك هروبا منهم من قول الفلاسفة ، وفي المستقبل لا يمتنع التسلسل بل تتجدد ولا تنقطع .

المذهب الثالث : وهو مذهب أهل السنة والجماعة أن التسلسل ثابت في الماضي والمستقبل وينفون أولية المخلوقات معه سبحانه ، وثبوته في الماضي غير متعلق بخلق تتسلسل فيه الصفات أو تظهر فيه اثر الصفات بل تتنوع المخلوقات باختلاف العوالم ، وفي الآخرة هو آخر بصفاته فالتسلسل ثابت في المستقبل وفي الماضي ثابت أيضا ولكن غير متعلق بخلق وذلك حتي لا نقول بقدم

المخلوقات واوليتها مع ذات الله سبحانه وذلك لانه كما قلنا في المبحث الأول أنه خلق عوالم كثيرة وخلق وأفني فلا ننظر إلي هذا العالم المشاهد فقط ، وكما سيأتي في التسلسل من جهة المخلوقات أنه ممتنع قديما في الماضي فالأشاعرة هربوا من قول الفلاسفة بإلغاء التسلسل في الصفات في الماضي وأهل السنة أثبتوا التسلسل الصفاتي في الماضي خلافا للاشاعرة ولكنه غير متعلق بخلق خلافا للفللاسفة وذلك لأن قول الفلاسفة يناقض الحديث (أنت الأول فليس قبلك شيء) ولأن الفعل لازم من لوازم الحياة، وكل حي فهو فعال، والله تعالى حي، فهو فعال وحياته لا تنفك عنه أبداً وأزلاً ولأن الفرق بين الحي والميت الفعل، والله حي؛ فلابد أن يكون فاعلاً، وخلوه من الفعل في أحد الزمانين: الماضي والمستقبل ممتنع؛ فوجب دوام فعله أزلاً وأبداً.

الجهة الثانية : تسلسل المخلوقات والناس فيه علي مذهبين : الأول : أن التسلسل في الماضي ممتنع عند عامة الفرق وعند أهل السنة كذلك وإلا لكانت المخلوقات قديمة أولية مع أولية الله سبحانه وفي نفس الوقت يثبتون إعمال الصفة لأن قول الأشاعرة كان فترة معطلا ثم أظهر أثر الصفة إثبات لأولية معبودهم ، يقولون أن هذا العالم المشاهد لا بد وأن له ابتداء وقبل وجوده كانت الصفات لا أثر لها ولكنا نرد عليهم ونقول هذا العالم له ابتداء وقبله كان هناك عوالم أخري كثيرة ولم يكن معطلا سبحانه كيف ولا بد أن يكون ثم ما ومن يعبده **!!** ، إلا قول الفلاسفة الذين يقولون أنه لا عالم إلا هذا العالم وأنه أول بأولية الله ، وهم كفار لأنهم يرون قدم العالم مطلقا رغم قول الرسول صلي الله عليه وسلم (أنت الأول فليس قبلك شيء) .

الثاني : التسلسل المستقبلي وهو غير ممتنع عند الجمهور إلا عند المعتزلة أنه ممتنع ولا بد أن يصيروا لعدم محض عندهم فهم يرون فناء الجنة والنار لامتناع التسلسل المستقبلي في الصفات وهي الجهة الأولي وفي المخلوقات كذلك في الجهة الثانية .

الجهة الثالثة : من جهة تسلسل الأثر والمؤثر والعلة والمعلول والسبب والمسبب وفيه مذهبان للناس

الأول : مذهب نفاة التعليل والعلل ويقول به الاشاعرة الجبرية وابن حزم وجماعات ، ويقولون أنه لا أثر لعلة مع معلولها ولا لسبب في مسبب وإنما يفعل الله عند وجود العلة لا لكونها علة ، فالنبات نبت في الأرض عند وجود الماء لا بالماء وليس في الماء خاصية الإنبات ، وهكذا في كل سبب ومسبب وأثر ومؤثر ، وهذا طعن في حكمة الله تعالي ، وسياتي نقضه من عدة أوجه .

والثاني : أن الاسباب تنتج مسبباتها ويتسلسل ذلك والعلة تنتج معلولها ، ولكن ذلك بخلق الله له ، وأن التسلسل ناتج في المؤثرات ليس لذاتها بل لسنة الله التي أجراها في خلقه فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وإذا رجعنا لمسألة أولية خلق القلم وأنها أولية نسبية وأن هذا هو معني رواية عبادة بن الصامت فهذا الجمع هو الموافق لمعتقدنا في تسلسل الصفات أن الله أول بصفاته وذاته ولم يعطل عنها مدة كما قالت الأشاعرة حتي يكون القلم هو أول المخلوقات مطلقا ! لا ، لأن الإطلاق يقتضي أن الله سبحانه تعطلت صفاته فترة حتي خلق القلم الذي هو أول المخلوقات مطلقا عند من يقول بذلك ، ولذا فمن قال بأولية القلم مطلقا قد يتعارض قوله في التسلسل ويتطرق من قال بذلك لقول الجهمية أو الاشاعرة في تسلسل الصفات أنه لم يسم خالقا إلا بعد أن خلق ، أما قول أهل السنة هو أن خلق القلم اوليته نسبية لهذا العالم المشاهد فقط فهذا هو الذي يتوافق مع تسلسل الصفات .

فنؤمن بأن هناك لوح كتب فيه مقاديركل شيء وليس لنا الحق في أن نبحث فيما وراء ذلك إلا ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة ما يدلنا علي شيء فالواجب اعتقاده حينئذ ، وسمي اللوح محفوظا لأنه محفوظ من أيدي الخلق ، قال ابن تيمية (إن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبدا)

وكتابة القلم للقدر كان في الساعة التي خلق فيها لما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت قال: حدثني أبي قال دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي فقال: أجلسوني فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره قلت يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال أكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة: يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار .

وخلق الله القلم بيده كما عند الآجري في الشريعة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال (خلق الله أربعة اشياء بيده آدم والعرش والقلم وجنات عدن ثم قال لسائر الخلق كن فكان) .

ومنكر الكتابة كافر كمنكر العلم لأن الكتابة مطابقة لعلم الله سبحانه ، ولأنه كفر تكذيب للآيات والأحاديث الصحيحة وخرق لإجماع أهل السنة والجماعة .

قال ابن بطة في الإبانة

(باب الإيمان بأن الله كتب علي آدم المعصية قبل ان يخلقه فمن رد ذلك فهو من الفرق الهالكة) .

ولا يعلم ما في اللوح المحفوظ احد إلا الله تعالي حتي الملائكة لا يعلمون ما فيه إلا إذا أعلمهم ربهم ودليل ذلك ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال (وكل الله

بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة ؟ أي رب علقة ؟ أي رب مضغة ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال أي رب أذكر أم أنثي ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه) .

ومما ورد أيضا في كتابة الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وأن كل حركة وسكون في الكون بقدَر ما جاء عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني رجل شاب وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة **جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر" رواه البخاري في صحيحه .**

وقول الله عز وجل: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}

قال الحسن فيما روي عنه : نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلا أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة حتى إن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر .

وقال عبد الله بن عمرو كما في المسند سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل" فلذلك أقول **جف القلم على علم الله .**

وروي البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث

بمخصرته ثم قال: **"ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة** قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فقال من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}"، وفي لفظ اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}

و روي مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم قال فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال: "بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم" وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}،

وأخرج الإمام أحمد في مسنده و الترمذي في جامعه عن شفي الأصبحي عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: "أتدرون ما هذان الكتابان قال قلنا

لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل عليهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص أبدا ثم قال للذي في يساره هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا فقال أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"سددوا وقاربوا "** فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل النار وإن عمل أي عمل ثم قال: بيده فقبضها ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ثم قال: باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير .

وأخرج الترمذي في الجامع من رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة أمثال الذر ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يا رب فقال هؤلاء ذريتك فرأى فيهم رجلا أعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال ابنك داود يكون في آخر الأمم قال كم جعلت له من العمر قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال الله: **إذا يكتب ويختم لا يبدل** فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال له أولم تجعلها لابنك داود قال: فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته "

وروي اللالكائي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال حدثنا أبو سعيد بن يحي بن سعيد ثنا أبو عامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: "أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضا شديدا أغمي عليه فأفاق فقال: أغمي علي قالوا: نعم قال: إنه أتاني

رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين فانطلقا بي فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه . **حسنه بعض أهل العلم .**

وعند الآجري بسند صحيح عن أبي هريرة

(السعيدُ من سعِد في بطنِ أمِّه والشقيُّ من شقيَّ في بطنِ أمِّه) .

وقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}

فذكر الحسني التي سبقت منه سبحانه لأهل السعادة قبل وجودهم .

فإن قيل أن المعبودين سيدخلونها لقوله تعالي (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)

قلنا قد أحسن ابن القيم في الجواب من ثلاثة أوجه فقال كما في شفاء العليل :

- أنه إنكم وما تعبدون من دون الله ولم يقل ومن تعبدون وما لما لا يعقل فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل وأيضا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام فإنه قال إنكم وما تعبدون فلفظة إنكم ولفظة ما تبطل سؤاله وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته أي إن كان كونه معبودا يوجب أن يكون حصب جهنم فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح فأجيب بالفارق وذلك من وجوه :

أحدها: أن الملائكة والمسيح وعزيرا ممن سبقت لهم من الله الحسنى فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بعضهم ومعاداتهم لهم فالتسوية بينهم وبين الأصنام

أقبح من التسوية بين البيع والربا والميتة والذكي وهذا شأن أهل الباطل وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه .

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلاما وتعذيبا لهم .

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إله وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيرا من ذلك وإنما ادعى ذلك الشياطين وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله ولا يرضى بذلك إلا الشياطين ولهذا قال سبحانه: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} وقال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} فما عبد غير الله إلا الشيطان وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} .

3) المرتبة الثالثة : المشيئة ، وهي الإرادة الكونية وتكون فيما يحبه الله وفيما يبغضه ، فيشاء الله أن يفعل العبد ما اختار لنفسه من خير أو شر ، وسوف يسألون ، وما من حركة ولا سكون في الكون كله إلا وهي حاصلة بمشيئته وإذنه وعلمه فالكون كونه والملك ملكه ولا تغيب عنه غائبة وكل شيء بقدرته .

قال الآجري في الشريعة

(فمن شاء الله تعالي له الإيمان آمن ، ومن لم يشأ له الإيمان لم يؤمن فقد فرغ الله تعالي من كل شيء)

ودليل هذه المرتبة قوله تعالي (ولو شاء ربك ما فعلوه) ، وقوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وتدل هذه الآيات وأمثالها علي أنه قادر علي ما لم يشأه ، وأن ما حصل من خير أو شر أو طاعة أو معصية فهو بمشيئة الله إذنه، ولو أراد ألا يعصي ما خلق إبليس .

قال ابن تيمية في التائية

فإن جميع الكون أوجب فعلَه : مشيئةُ ربّ الخلق باري البريةِ

مشيئته مع علمه ثم قدرةِ : لوازمُ ذات الله قاضي القضيةِ

فكل حركة وسكون إنما هي بإرادة الله وقدرته وعلمه ، وفي هذا يقول الشافعي فيما نقله عنه ابن عبد البر في كتاب (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) :

مَا شِئْتَ كَانَ، وإنْ لم أشَأْ : وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ

خَلقْتَ العِبَادَ لِمَا قَدْ عَلِمْتَ :فَفِي العِلْمِ يَجري الفَتَى وَالْمُسِنْ

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ، وَمِنْهُمْ سَعِيد : وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ، وَمِنْهُمْ حَسَنْ

عَلَى ذَا مَنَنْتَ، وَهَذا خَذلْتَ : وذاكَ أعنتَ، وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد : ومنهم قبيح ومنهم حسن

أقسام الإرادة لله عز وجل والفرق بينها وبين المشيئة ، وهكذا يقسم أيضا الإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم والأمر ، فكلها منها شرعي ومنها كوني :

أما الإرادة فتنقسم إلي إرادة شرعية وإرادة كونية :

أما الشرعية فهي تتعلق بما يحبه الله ويرضاه وبما شرعه علي ألسنة رسله سواء وقع أو لم يقع ، هذا من حيث التعلق ، ولا يلزم من إرادة الله الشرعية وقوع المراد ، وهذا من حيث موجبها .

وأما الإرادة الكونية فتتعلق بما يقع سواء كان مما يحبه الله أو لا يحبه ويلزم منها وقوع المراد ، فقوله تعالي (والله يريد أن يتوب عليكم) هذه إرادة شرعية لأنها لو كانت كونية لتاب كل الناس ، واما قوله تعالي (إن كان الله يريد أن يغويكم) فهذه كونية لأن الله لا يريد الإغواء شرعا وأما كونا وقدرا فيريده بما كسب العبد بيده خذلانا له .

وأهل السنة علي أن مشيئة الله هي إرادته الكونية وأن الإرادة منقسمة إلي شرعية دينية ، وإلي إرادة كونية قدرية وهي المشيئة فالمشيئة لا تنقسم فليس منها شرعية ، وهذا يعني أن الله قد يشاء الشيء كونا ولا يريده شرعا فيجتمع في بعض الحالات إرادة وعدم إرادة فيكون الفعل المعين مرادا وغير مراد شاءه الله فوقع ولكن لم يرده دينا ، وهذا فيما يكرهه الله مثل كفر الكافر ومعصية العاصي ، فإن الله شاء الكفر من الكافر وأذن به لكن هو إذن كوني لا شرعي ، فأذن الله بوقوع ما اختار العبد لنفسه فأراده كونا لأنه لا يحصل في ملكوته إلا ما أراده سبحانه كونا ولكنه لم يرضه شرعا ولم يرده شرعا .

قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الواسطية : فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهًا لله ومرادًا له؟

فالجواب: أنه لا غرابة في ذلك، فها هو الدواء المر طعمًا الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح، لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار.

فما من شيء يقع إلا بإذن الله ولا يقع في كونه ما لم يأذن به ، بل إن عموم قدرته وقهره وعلمه أنه لا يحصل شيء إلا بعلمه وبمشيئته لكن له حكمة في أن يقع فقتل القتيل ظلما وقع بمشيئة الله الكونية لكنه لم ياذن به شرعا بل حرمه ، فيجتمع في إذن الله الكوني الطاعات والمعاصي ، أما إذن الله الشرعي وهو إرادته الشرعية فهي ما أمر به ورضيه دينا لخلقه وأرسل به رسله ، ففي حق أبي جهل اجتمعت فيه الإرادة الكونية فشاء الله كونا أن يفعل العبد ما اختار لنفسه ، من كفر ومعصية وإلا فلو شاء لهداه ، وتخلفت عنه الإرادة الشرعية لكفره ، وأما في حق المؤمنين فاجتمع في حقهم إرادة الله الكونية والشرعية معا .

فما من حركة ولا سكون في كون الله إلا وقد علمها الله أزلا وكتبها وشاءها وخلقها فطاعة الطائعين بمشيئته وخلقه سبحانه ومعصية العاصين بمشيئته وخلقه ، ولكن طاعة الطائعين شاءها كونا وشرعا ، أما معصية العاصي وزني الزاني وسرقة السارق وغيرها من المعاصي فشاءها كونا لا شرعا .

وفي ذلك قال ابن عباس فيما أخرجه ابن بطة في الإبانة (الزنا بقدر وشرب الخمر بقدر والسرقة بقدر) ، فشاءها الله خذلانا منه للعاصي وخلق له إرادة وقدرة ففعله مخلوق ، ولهذا تواتر عن السلف أن القدر قدرة الله ، فهو قادر علي فعله وعلي فعل العبد وعلي الموجودات كلها فلا يكون في ملكه ما لم يأذن به إلا أن الطاعة من العبد أذن بها كونا وشرعا ، ومعصية العاصي أذن بها كونا لا شرعا .

كما قال الإمام أحمد فيما رواه عنه الخلال في السنة لما سُئل عن القدر فقال

(القدر قدرة الله علي العباد ، فقال رجل : إن زني فبقدر وإن سرق فبقدر ؟ فقال أحمد : نعم للهِ قدرةٌ عليه)

وقال الشافعي فيما رواه عنه البيهقي في الاسماء والصفات :

(المشيئة إرادة الله تعالي قال الله تعالي (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) فأعلم الله تعالي خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئته لا تكون إلا أن يشاء الله) .

وقال ابنُ عبد البرّ ـ رحمه الله ـ في [«التمهيد» (٦/ ١٣ ـ ١)]: «قال اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ) ،وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فليس لأَحَدٍ مَشيئةٌ تَنْفُذُ إلَّا أَنْ تَنْفُذَ منها مشيئةُ الله ـ تعالى ـ ، وإنما يجري الخَلْقُ فيما سَبَقَ مِن عِلْمِ الله، والقَدَرُ سِرُّ اللهِ لا يُدْرَكُ بجدالٍ ولا يَشْفي منه مَقالٌ، والحِجاجُ فيه مَرْتَجَةٌ [أي: مَحَلُّ انسدادٍ وانغلاقٍ]، لا يُفْتَحُ شيءٌ منها إلَّا بكسرِ شيءٍ وغَلَقِه، وقد تَظَاهَرَتِ الآثارُ وتواترَتِ الأخبارُ فيه عن السلف الأخيار الطيِّبين الأبرار، بالاستسلام والانقياد والإقرار: بأنَّ عِلْمَ اللهِ سابقٌ ولا يكونُ في مُلْكِه إلَّا ما يُريدُ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ .

ولهذا كفر القدرية لما أنكروا مرتبة المشيئة والخلق ، فهم كفار منكرون لقدرة الله ، ولأنهم بذلك نفوا ربوبية الله علي خلقه ، لأن حقيقة الربوبية ألا يقع شيء في الوجود إلا بمشيئة الله سبحانه وإرادته فهو القائم بتدبير عباده ، فوجود المقدور وعدمه راجع إلي وجود مشيئة الله وعدمها فإن وجد وجدت وإن لم توجد لم توجد ، فلو وجد في كونه ما لم يرده فهذا مغلوب لا يستحق أن يكون ربا .

وفي ذلك يقول زيد بن أسلم كما رواه الفريابي في القدر :

(القدر قدرة الله عز وجل فمن كذب بالقدر فقد جحد قدرة الله) .

وقال الآجري في الشريعة :

(اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القدريّ لا يقول ، اللهم وفقني ، اللهم اعصمني ، ولا يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، لأن عنده أن المشيئة إليه إن شاء أطاع وإن شاء عصي ، فاحذروا مذاهبهم لا يفتنوكم عن دينكم)

وبعدم التفريق بين نوعي الإرادة ضلت القدرية والجبرية كما سيأتي .

قال ابن تيمية (8/ 188-189) :

(لكن ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين :

أحدهما: الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد، التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: {فَمَنْ يُرِدْ الله أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} ، وقوله: {وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} ، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} ، وقال تعالى: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله} ، وأمثال ذلك. وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} ، قال السلف؛ خلق فريقًا للاختلاف، وفريقًا للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة، وهناك كونية؛ وقع المراد بها، فقوم اختلفوا، وقوم رُحموا.

وأما النوع الثاني: فهو الإرادة الدينية الشرعية، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، كما قال تعالى: {يُرِيدُ الله بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} ، وقوله تعالى: {مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ} ، وقوله: {يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا. يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا} ، فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة؛ **ولهذا كانت الأقسام أربعة:**

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع؛ فأمر به وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك لما كان .

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع .

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: مالم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، وإذا كان كذلك، فمقتضى اللام في قوله: : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [12]، هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خلق العباد له، أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية؛ كان عادمًا لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته، وعادمًا لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه) **انتهى**

وقال تعالي {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} وقال تعالى: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} وقال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعا} وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} وقال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} .

وقال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء لقومه: {وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} وقال الذبيح له: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} وقال خطيب الأنبياء شعيب: {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} وقال الصديق الكريم ابن الكريم ابن

الكريم: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} وقال حمو موسى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} وقال كليم الرحمن للخضر: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} وقال قوم موسى له: {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} وقال لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه: {وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} وقال: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ}) **انتهى كلامه** .

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة مشيئة الله سبحانه ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته وتارة أن ما لم يشأ لم يكن وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عُصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه رب العالمين وكونه القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا إضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء".

وعن ابن عباس قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه في بعض الأمر فقال الرجل لرسول الله: ما شاء الله وشئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أجعلتني لله عدلا بل ما شاء الله وحده"** رواه أحمد وغيره بسند صحيح .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك" وفي حديث النواس بن سمعان سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه"

والمشيئة هي الإرادة الكونية وسبق الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية ، ومما جاء في إرادته الكونية ومشيئته قوله: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً} وقوله: {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ} {وأن الله يهدي من يريد}: {إن الله يحكم ما يريد}
والنصوص النبوية في إثبات إرادة الله أكثر من أن تحصر كقوله "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين" "من يرد الله به خيرا يصب منه" "إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق" "إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها" "إذا أراد الله هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأقر عينه بهلكها" "إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا " .

وأما البعث الكوني ففي مثل قوله تعالي (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي باس شديد) ، وأما الشرعي ففي مثل قوله تعالي (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبو الطاغوت) .

وأما الإرسال الكوني ففي مثل قوله (وارسلنا الرياح لواقح) ، والشرعي في مثل قوله تعالي (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) .

واما القضاء فالكوني ففي مثل قوله تعالي (وقضينا إلي بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين) ، والشرعي ففي مثل قوله تعالي (وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) .

فائدة :

من الخطا أن يقال خلق الله السماوات والأرض وأرسل محمدا إن شاء الله ، فما مضي يقال فيه بمشيئة الله ، وما يستقبل لا يكون إلا أن يشاء الله ، فمن قال في شيء مضي إن شاء الله فقد أخطأ ، وإنما يقال مضي بمشيئة الله .

4) مرتبة الخلق ، فالله خالق كل شيء ، و خلق أفعال العباد من طاعة أو معصية، فهي مخلوقة لله تعالي ، ومن قال أن أفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من قال إن السماء والأرض غير مخلوقة

تفهم ذلك من وجوه، منها :

1. أنها نتاج إرادة جازمة وقدرة تامة وهما مخلوقتان .

2. والإرادة والقدرة أسباب مربوطة بمسببات تحدث ، والأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالي ،والله إذ جعل الأسباب مربوطة بالمسببات جعل خروج الفعل من العدم إلي الوجود بتوسط السبب المُحدَث المخلوق ، فأفعال العباد الاختيارية كالصلاة ونحوها مخلوقة بتوسط قدرة الإنسان ومشيئته بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل الناتج بهذه القدرة ، كخلقه النبات بالماء ، فالفعل والصنع قائم بالإنسان – وهو مخلوق لأنه نتاج إرادة وقدرة مخلوقتين - والمصنوع مخلوق مفعول لله تعالي بتوسط القدرة ، لا أنه الصانع المباشر بنفسه ، كما قال تعالي (والله خلقكم وما تعملون) علي كلا التفسيرين سواء قلنا خلقكم وعملكم علي اعتبار (ما) مصدرية تنسبك مع ما بعدها بمصدر هو العمل اي خلقكم وعملكم لأنهم يعملون بقدرة وإرادة وكلتاهما مخلوقتان لله تعالي ، أو خلقكم

وما تعملونه أي ما يعملونه من أصنام فهي مخلوقة لله تعالي خلقها بتوسط قدرتهم وإرادتهم ومباشرتهم النحت بجوارحهم وربط السبب بالمسبب ، قال تعالي (الله خالق كل شيء) .

وبهذا تعلم أن سبب ضلال الجبرية المتوسطة في هذا المعتقد وفي صفات الله الفعلية أيضا نفيهم للأسباب والمسببات والعلل والمعلولات والآثار والمؤثرات ، وسيأتي رده إن شاء الله تعالي .

3. ولأن الوصف تابع للموصوف فكما أن الإنسان مخلوق لله تعالي فأفعاله كذلك مخلوقة .

4. ومن الحجج أيضا علي ان أفعال العباد مخلوقة خلقها الله عز وجل لا العبد خلافا للقدرية ما قاله ابن تيمية في منهاج السنة (116/3)

(أفعال العباد حادثة كائنة بعد أن لم تكن ، فحكمها حكم سائر الحوادث ، فما من دليل يستدل به علي ان بعض الحوادث والممكنات مخلوقة لله إلا وهو يدل علي أن أفعال العباد مخلوقة لله ، فإنه قد علم أن المحدَث لا بد له من محدِث ، وهذه المقدمة ضرورية عتد جماهير العقلاء ، فإذا كان فعل العبد حادثا بعد أن لم يكن ، فإذا قيل المحدث هو العبد ، فيكون العبد صار محدثا له بعد أن لم يكن ، فهو أيضا امر حادث فلا بد له من محدث ؛ إذ لو كان العبد لم يزل محدثا له لزم دوام ذلك الفعل الحادث ، وإذا كان إعادته له حادثا فلا بد له محدث)

قلت : وإلا للزم أن يكون العبد **قادرا علي إحداث شيء لم يقدر ربهم علي إحداثه ، أو إحداث شيء لم يحدثه الله ، ومن اعتقد ذلك فقد اتخذ إلهين اثنين بل آلهة كثيرة إذ صار كل مخلوق إلها خالقا فعل نفسه – بزعمهم – والمحدث الذي يخلق من العدم هو الله وحده .**

قالت القدرية قوله: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} من العام المراد به الخاص ولا سيما أنكم قلتم إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم

فقال أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق فليس ههنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عداه مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه إذ ليس إلا الخالق والمخلوق والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وأنها أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالا لهم ومخلوقة مفعولة لله فإن الفعل غير المفعول وسيأتي نقض شبهة غلاة الجبرية في نفي الفعل عن العبد وأن غيره هو الفاعل ! تأتي ضمن الردود علي الجبرية إن شاء الله تعالي ، ولا نقول أنها فعل لله والعبد مضطر مجبور عليها ولا نقول أنها فعل للعبد والله غير قادر عليها كما تقوله القدرية ولا جاعل للعبد فاعلا لها كما تقول الجبرية المتوسطة الأشعرية ولا نقول أنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير فهذه الأقوال كلها باطلة .

وقالت القدرية قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}أي مما لا يقدر عليه غيره وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال

فقال أهل السنة: إضافتها إليهم فعلا وكسبا لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقا ومشيئة فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه.

5. ومن الأدلة على خلق أفعال العباد كما في شفاء العليل قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيآتها .

قلت : مع أن الإنسان هو الذي صنعها بيده ، إلا أن صنعها فعل قائم بالعبد ، مفعول لله تعالي بخلقه إرادته وقدرته علي ذلك وربطِه الأسبابَ بالمسببات بمشيئته وإذنه ، فالأمر كله لله أولا وآخرا ، فقدرة العبد علي الصنع وإرادته له لا تعدو كونها مؤثرة في الحدوث لا مستقلة فيه ، فقدرة العبد سبب خلق الله به الناتج المسبَّب وهو السرابيل وغيرها ، فالله خالقها والعبد هو المباشر لصنعها .

قال ابن القيم في شفاء العليل

(فخلقها الله منفصلة عنه قائمة بمحلها وهو العبد ، وأضيفت إلي العبد - قلت يعني بمباشرة الصنع بيده هو- لأن العبد فاعل لها بما أحدث الله فيه من القدرة والمشيئة ... فتقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه فيضاف الفعل إلي العبد إضافة السبب إلي مسببه ويضاف إلي قدرة الرب إضافة المخلوق إلي الخالق)

فبالجملة :

أفعال العباد مفعولة لله تعالي ، وليست هي فعله سبحانه ، ولهذا هي قائمة بالعبد لا بالله ، فالله لا يتصف بمفعولاته ، وإنما يتصف بفعله ، وافعال العبد الاختيارية خلقها الله بتوسط قدرة العبد ومشيئته بخلاف أفعاله الاضطرارية .

قال ابن تيمية في المجموع (8/ 389) :

(هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرة في وجود فعله؟ فإن كانت مؤثرة لزم الشرك، وإلا لزم الجبر، والمقام مقام معروف، وقف فيه خلق من الفاحصين والباحثين والبصراء والمكاشفين، وعامتهم فهموا صحيحًا ولكن قل منهم من عبر فصيحًا.

هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرة في وجود فعله؟ فإن كانت مؤثرة لزم الشرك، وإلا لزم الجبر، والمقام مقام معروف، وقف فيه خلق من الفاحصين والباحثين والبصراء والمكاشفين، وعامتهم فهموا صحيحًا ولكن قل منهم من عبر فصيحًا.

فنقول: التأثير اسم مشترك قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع، فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة، فحاشا لله لم يقله سنى، وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال.

قلت : يعني إن أريد أن قدرة العبد مؤثرة باستقلال عن قدرة الله فهذا باطل .

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة، قال (كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركا – يعني لأن الله هو الذي ربط السبب بالمسبب - وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركًا، وقد قال الحكيم الخبير: {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} ، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ الله بِأَيْدِيكُمْ}. فبين أنه المعذب، وأن أيدينا أسباب وآلات وأوساط وأدوات في وصول العذاب إليهم، وقال ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا آذنتموني حتى أصلي عليه، فإن الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة». فالله سبحانه هو الذي يجعل الرحمة، وذلك إنما يجعله بصلاة نبينا ﷺ) **انتهي كلامه .**

وكذا نقول في كل سبب ومسبب ، فالماء فيه خاصية الإنبات ، فالماء ينبت والثمر يثمر بالماء لا مع وجود الماء خلافا للجبرية الذين نفوا الاسباب والعلل والحكمة من أفعال الله ، ففي ذلك رد علي من يقول كيف تقولون ينبت النبات بالماء بإرادة الله فالله هو المنبت حقيقة عند وجود الماء لا بالماء فنقول لا تعارض أبدا فالله هو المنبت حقيقة لكن بسبب مؤثربإذن الله لا باستقلال ، الله خلق السبب والمسبب وجعلها بينهما تاثيرا بإذنه ، فالماء فيه خاصية الإنبات بإذن الله فليس معني ذلك أن الله ينبت مع وجود الماء اقترانا بل الله ينبت بالماء الذي خلق فيه خاصية الإنبات ، فنثبت كون الماء سببا في الإنبات وفيه خاصية الإنبات مع كون ذلك لن يقع إلا بإذن الله ، فالله خالق الماء وخالق النبات وربط سبب الإنبات - الذي هو الماء - بإخراج النبات ،

وكلاهما مخلوق لله تعالي ، وقد ضلت الجبرية في فهم هذا وقالوا إذن الله هو الذي ينبت النبات عند وجود الماء لا به فنقول قد ربط الله السبب بالمسبب وجعل خروج الفعل من العدم إلي الوجود بتوسط السبب المُحدَث .

ولكن ما دفعهم لذلك هو قولهم بنفي الأسباب والمسببات لنفي الاحتياج وهذا منقوض كما سيأتي في شبهاتهم المردودة إن شاء الله تعالي .

وعليه ففيه قوله تعالي (ويصنع الفلك) ، وقوله (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) الفلك الله خالقه فهو مفعول لله وأما إضافته لنوح فلأنه هو الفعل القائم به ونوح المباشر له ، و إرادته وقدرته علي الصنع مخلوقة والسبب والمسبب مخلوقان وربطهما الله بإذنه ، فنوح وما صنع مخلوق لله تعالي .

قال ابن القيم : ونظير هذا قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية .

ونظيره قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} فأخبر سبحانه وتعالى أنه خالق الفلك المصنوع للعباد وأبعد من قال أن المراد بمثله هو الإبل فإنه إخراج المماثل حقيقة واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة .

ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم فالاستدلال ظاهر وليس بقوي إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك فالأولى أن تكون ما موصولة أي والله خلقكم وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم فهي مخلوقة له لا آلهة شركاء معه فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم ولا يقال المراد مادته فإن مادته غير معمولة لهم وإنما

يصير معمولا بعد عملهم.

وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى وأئمة الشر يدعون إلى النار فتلك الإمامة والدعوة بجعله **فهي مجعولة له وفعل لهم** قال تعالى عن آل فرعون: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} وقال عن أئمة الهدى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} **فأخبر أن هذا وهذا بجعله مع كونه كسبا وفعلا للأئمة** ونظير ذلك قول الخليل: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلما وعند القدرية هو الذي جعل نفسه مسلما لا أن الله جعله مسلما ولا جعله إماما يهدي بأمره ولا جعل الآخر إماما يدعوا إلى النار على الحقيقة بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز بمعنى التسمية أي سمنا مسلمين لك و كذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال فمنهم الحقيقة ومنه المجاز والتعبير.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة وقد اختلف في إعراب من خلق هو النصب أو الرفع فإن كان مرفوعا فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور وكيف لا يعلم الخالق ما خلقه وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته وإن كان منصوبا فالمعنى ألا يعلم مخلوقه وذكر لفظة من تغليبا ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي على علمه سبحانه به وأيضا فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلا على علمه بها فقال: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي **خلقه فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي**

عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم .

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} وقوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً} وقوله حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} وقال في الطرف الآخر: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} وقال: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً} وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعا ولا عقلا والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكنة والوقر فهو موجب ومقتضاه فمن فسر الأكنة والوقر به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم وهي مجعولة لله سبحانه كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم والله جاعله فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإراداتها واعتقاداتها فذلك كله مجعول مخلوق له وإن كان العبد فاعلا له باختياره وإرادته فإن قيل هذا كله معارض بقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ} والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله قيل لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما **والجعل ههنا جعل شرعي أمري لا كوني قدري** فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلى هذه النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم كما سبق بيانه إن شاء الله فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني الشرعي أي لم يشرع ذلك ولا أمر به ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب وجعلوا ذلك دينا له بلا علم ومن ذلك قوله تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ}

ومن ذلك قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم وهذا لا يقدر عليه سواه وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين حبه وحسنه الداعي إلى حبه وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان وإن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلا منه ونعمة والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح حكيم بجعله في مواضعه ومن ذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً} وتأليف القلوب جعل بعضها يألف ويميل إليه ويحبه وهو من أفعالها الاختيارية وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} فأخبر سبحانه بفعلهم وهو إلههم وبفعله وهو كفهم عما هموا به ولا يصح أن يقال أنه سبحانه أشل أيديهم وأماتهم وأنزل عليهم عذابا حال بينهم وبين ما هموا به بل كف قدرهم وإرادتهم مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم وعند القدرية هذا محال بل هم الذين يكفون أنفسهم والقرآن صريح في إبطال قولهم ومثله قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} فهذا كف أيدي الفريقين مع سلامتهما وصحتهما وهو بأن حال بينهم وبين الفعل فكف بعضهم عن بعض .

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} والإيمان والطاعة من أجل النعم بل هما أجل النعم على الإطلاق فهما منه سبحانه تعليما وإرشادا وإلهاما وتوفيقا ومشيئة وخلقا ولا يصح أن يقال أنها أمرا وبيانا فقط فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة **وهذا قول القدرية وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه لفعله وتوفيقه إياه حين فعله وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منه في إعطائه الجزاء بل قالوا ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه واحتجوا بقوله: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} قالوا أي غير ممنون به عليهم إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها قالوا والمنة تكدر النعمة والعطية ولم يدعوا هؤلاء للجهل بالله موضعا وقاسوا منته على منة المخلوق فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات وليست المنة في الحقيقة إلا لله فهو المان بفضله وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منته عليهم قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** وقال تعالى لكليمه موسى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} وقال: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} وقال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي قالوا الله ورسوله أمن وقال الرسل لقومهم: {إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} فمنه سبحانه وتعالى محض إحسانه وفضله ورحمته وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم ولهذا قال أهلها وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" وقال: "إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم" والأول في

الصحيح والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله وقالت القدرية أنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله بل يكون ذلك النعيم عوضا وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحد إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله فلو أتى العباد بكل طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم فهو المان بفضله فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه وأما قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه غير مقطوع ومنه ريب المنون وهو الموت لأنه يقطع العمر.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} وإذنه ها هنا قضاؤه وقدره لا مجرد أمره وشرعه كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية قال ابن المبارك عن الثوري: "بقضاء الله" **وقال محمد بن جرير: "يقول جل ذكره لنبيه وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك فلا تجهدن نفسك في طلب هداها وبلغها وعيد الله ثم خلها فإن هداها بيد خالقها"** وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك فإنه سبحانه قال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} أي لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن .

ومن ذلك قوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ} وقول هود وما توفيقي إلا بالله ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد وقد أخبر أنه به لا بالعبد وهذا لا ينبغي أن يكون فعلا للعبد حقيقة ولهذا أمر به وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه وإنما يؤمر العبد بفعله هو ومع هذا فليس فعله واقعا به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالتصبير منه سبحانه وهو فعله والصبر هو القائم

بالعبد وهو فعل العبد ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}

ففي الآية أربعة أدلة

أحدها: قولهم: {أفرغ علينا صبرا} والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه .

والثاني: قولهم: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} وثبات الأقدام فعل اختياري ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله .

الثالث: قولهم: {وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعداهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر وأيضا فإن كون الإنسان منصورا على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره وأما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضا فعل العبد وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب

الرابع: قوله: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ} وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي بمشيئته وقضائه وقدره وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد قال ابن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد" .

وعند البخاري في كتابه خلق أفعال العباد قال قال يحيي بن سعيد :

(ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة) .

وقال البخاري في خلق أفعال العباد ايضا :

(حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة) .

وقال أيضا :

(فأما أفعال العباد فقد حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعي بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (إن الله يصنع كل صانع وصنعته). وتلا بعضهم عند ذلك: (والله خلقكم وما تعملون) فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة) .

ونقل الإجماع أيضا اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة فقال :

(سياق ما فسر من الآيات في كتاب الله عز وجل وما روي في سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم في إثبات القدر ، وما نقل من إجماع الصحابة والتابعين والخالفين لهم من علماء الأمة أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله عز وجل طاعاتها ومعاصيها) .

وقال ابن أبي عاصم في السنة :

(وافعال العباد من الخير والشر فعل لهم خلق لخالقهم) .

والقدرية كما سيأتي في بيان منهجهم ونقضه ينفون خلق الله لافعال العباد بحجة التنزيه عن خلق أفعال العصاة مع أن القدرية أنفسهم سيأتي في باب الاستطاعة أنهم صرحوا بأن أي فعل للعبد ناتج عن قدرة تامة وإرادة جازمة ولكن نفوا التوفيق والخذلان ، ولكن إثباتهم للإرادة الجازمة والقدرة التامة تصريح منهم بمعتقد أهل السنة في خلق الله لفعل العبد من طاعة أو معصية وإن لم ينطقوا بذلك ، وهذا دأب المبتدعة متناقضون نفوا خلق الله لأفعال العباد ثم إذا بهم يثبتون للعبد قدرة وإرادة وهما مخلوقتان لله سبحانه عندنا بلا شك .

ولهذا تناقض القدرية في المتولدات التي لا فعل مباشر للإنسان فيها كالشبع والظمأ هل هما مخلوقان لله أم لا ؟

فعند أهل السنة مخلوقان كسائر أفعال العباد ولهذا يؤجر العبد عليها كما قال سبحانه (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم به عمل صالح)، وعند القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد ويقولون أن الإنسان خالق فعل نفسه بحجة تنزيه الله عن خلق أفعال العصاة قالوا لا خالق لها ، وهذه حجة باطلة فإن إرادة الله سبحانه لفعل العاصي إرادة كونية لا شرعية وسبق في المعتقد المجمل سابقا أن هذا هو العدل ، وأنه من ربوبية الله سبحانه ألا يحصل حركة ولا سكون في كونه إلا بخلقه وعلمه وإذنه ، وفعل العبد ناتج عن قدرة جازمة وإرادة تامة وهما مخلوقتان ، ولكن القدرية تناقضوا فقالوا العبد خالق فعل نفسه والمتولدات لا خالق لها !!!! لأنه لا عمل له فيها وربهم لا يخلق فعل عباده ، ومنهم من قال أن العبد ايضا هو خالقها ، وسيأتي في الرد عليهم أن شركهم فاق شرك المجوس الثنوية لأن المجوس اعتقدوا أن للكون خالقين النور والظلمة أو الخير والشر وحجتهم تنزيه الله عن خلق الشر ! ، وهؤلاء القدرية اعتقدوا خالقِين لا حصر لهم مع ربهم فكل إنسان فهو خالق مع الله سبحانه ولهذا حذر النبي صلي الله عليه وسلم منهم فقال (القدرية مجوس أمتي فإن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم) وهم الشيعة الآن فهم معتزلة قدرية ، وكثير من جهال العوام .

وأما الجبرية فقالوا المتولدات فعل الله وليست فعلا للعبد أصلا بناء عندهم علي معتقدهم أن أفعال العباد هي أفعال الله حقيقة !!! سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا .

ومما يترتب علي قول القدرية أن الله لا يعلم ما تخفيه صدور عباده لانتفاء خلق الله لافعال عباده وإنما هم خالقوها ، وإذا انتفي الخلق انتفي العلم لقوله تعالي (ألا يعلم من خلق) ، إذ لم يبق ما يدل علي علمه بما في الصدور إذ كان غير خالق لذلك .

وفي هذا يقول ابن رجب في جامع العلوم :

(وقد قال كثير من أئمة السلف ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه فقد كفروا ، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن الله تعالى قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه) .

والمعني أنهم لو أقروا بالعلم فقد خُصموا إذ يلزمهم بذلك إثبات خلق الله لأفعال العباد ؛ **ولهذا قال ابن القيم في شفاء العليل في تفسير قوله تعالي (إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)** قال :

(وهذا من أبلغ التقرير فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها، ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه فأكفرهم السلف قاطبة ، وأيضا فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليل على علمه بها فقال: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ﴾ أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك

وهذا من أعظم الكفر برب العالمين، وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة أنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له) . **انتهي كلام ابن القيم .**

ومن وجه ثان أن منهجهم في الصالح والأصلح والظلم والعدل أنه لو علم لكان الأصلح أن يحول بين العاصي ومعصيته ، فلما وقعت المعصية قال الغلاة منهم إذاً لا يعلم ! ، وهذا كفر بالله ، وقال بعضهم علم ولم يصلح عبده العاصي وهذا يناقض منهجهم في الصالح والأصلح والظلم والعدل وسيأتي رده ، ولكنا نقول أنه علم به وتركه وما اختار لنفسه وأذن أن يعصيه كونا لا شرعا وخذله ، وسيحاسبه ، وسبق في المعتقد المجمل أن هذا ليس من الظلم في شيء لأنه هداه النجدين وارسل رسلا وأنزل كتبا ولم يجعله كالبهيمة ، بل الظلم أن يقول لك افعل فتفعل فيعاقبك علي ما أمرك به، ولكنه قال لا تفعل وحذرك وأنذرك في كتابه وعلي لسان رسله فإن فعلت عذبك فهذا هو عين العدل ، وسيأتي في الرد علي القدرية أن سبب ضلالهم الرئيسي في باب القدر عدم تفرقتهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية ، واستدلالهم بالمتشابه

وأما الجبرية فمنهجهم في خلق أفعال العباد أن افعالهم هي أفعال الله حقيقة !!! وهذا كفر ظاهر ، والأشاعرة وهم الجبرية المتوسطة كما يقول العلماء قالوا هي فعل الله وكسب الإنسان !!! وهذا تناقض عظيم حتي صار الناس يسخرون منهم فقالوا (مما يقال ولا حقيقة تحته أحوال بني هاشم وكسب الأشعري وطفرة النظام) وهؤلاء اضحكوا عليهم العقلاء لأنه لا حقيقة لقولهم هذا وسيأتي رده .

قال ابن القيم في شفاء العليل : وأهل السنة والجماعة في هذه المسألة وغيرها من المسائل أسعد بالحق من جميع الطوائف فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ، ومشيئته العامة ، وينزهونه ان يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه وأنهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته

وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه والقدر عندهم قدرة الله تعالى وعلمه ومشيئته وخلقه فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة إذ قالها غيرهم من القدرية على المجاز إذ العالم علويه وسفليه وكل حي يفعل فعلا فإن فعله بقوة فيه على الفعل وهو في حول مِن تركٍ إلى فعل ومن فعلٍ إلى ترك ومن فعلٍ إلى فعلٍ وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد ، ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلي مصليا والمتحرك متحركا وهو الذي يسيّر عبده في البر والبحر وهو المسيّر والعبد السائر وهو المحرك والعبد المتحرك وهو المقيم والعبد القائم وهو الهادي والعبد المهتدي وأنه المطعم والعبد الطاعم وهو المحي المميت والعبد الذي يحيى ويموت ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازا وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوي وغيره فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة وهو سبحانه هو المُقدِر لهم على ذلك القادر عليه الذي شاءه منهم وخلقه لهم ،ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته فما يشاؤون إلا أن يشاء الله وما يفعلون إلا أن يشاء الله وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب وجدته هو المذهب الوسط والصراط المستقيم ووجدت سائر المذاهب خطوطا عن يمينه وعن شماله فقريب منه ، وبعيد ، وبين ذلك ، وإذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك دالة عليه صريحة فيه وإن كان حمده لا يقتضي غير ذلك وكذلك كمال ربوبيته للعالمين لا يقتضي غير ذلك فكيف يكون الحمد كله لمن لا يقدر على مقدور أهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاؤه ويشاء ما لا يفعله كثير منهم فيشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء وهل يقتضي ذلك كمال حمده وهل يقتضيه كمال ربوبيته ! سبحانه وتعالي عما يشركون .

ثم قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} مبطل لقول الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل فإنه يتضمن إثبات فعل العبد وقيام العبادة به حقيقة فهو العابد على الحقيقة وإن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين عز وجل له فإن لم يعنه ولم يقدره ولم يشأ له العبادة لم يتمكن منها ولم يوجد منه البتة فالفعل والإقدار والإعانة من الرب عز وجل ثم قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده إن شاء أعطاها عبده وإن شاء منعه إياها والهداية معرفة الحق والعمل به فمن لم يجعله الله تعالى عالما بالحق عاملا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها وهي جعل العبد مريدا للهدى محبا له مؤثرا له عاملا به فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل وهي التي قال سبحانه فيها: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} مع قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد وهي التي هدي بها ثمود فاستحبوا العمى عليها وهي التي قال تعالى فيها: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُون} فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء التي لا يضل من هداه بها فذاك عدله فيهم وهذه حكمته فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق بهم) **انتهي كلام ابن القيم** .

وبالجملة – بعد أن انتهينا من شرح مراتب القدر الأربعة – فنحن صائرون إلي ما علمه الله عنا أزلا وكتبه في اللوح وشاء أن نفعله وخلقنا لنفعله .

وفي ذلك يقول مطرف بن عبد الله الشخير كما أخرجه عنه الخلال في السنة

(لم نوكل إلي القدر وإليه نصير) ، وقال أيضا (والله ما وكلوا إلي القدر وقد أمروا وإليه يصيرون)

ومثله قول مالك بن أنس

(لم نؤمر أن نتكل علي القدر وإليه نصير) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

(الزنا بقدر وشرب الخمر بقدر والسرقة بقدر) ، وقال (كل شيء بقدر حتي وضع يدك علي خدك) ، **وقال الإسماعيلي** (وأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا حجة لمن أضله الله ولا عذر)

فليس في هذا جبر بل كما قلنا في المعتقد المجمل أول الكتاب أنه سبحانه علم ما سيختار عبده فكتبه في اللوح ثم شاء أن يفعل ما اختار العبد لنفسه ثم خلقه ليظهر علمه فيه ثم يحاسبه ، وقد أرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين وخلق له سمعا وبصرا وعقلا فلله الحجة البالغة علي عباده .

قال ابن تيمية في تائية القدر :

فـنـؤمـنُ أنّ اللهَ عـــزّ بــقــدرةٍ *** وخـلـقٍ وإبـــرامٍ لـحـكـمِ الـمـشـيـئـةِ

فـنـثـبـت هـــذا كـلّــه لا لـهـنـا *** ونـثـبـتُ مـا فـي ذاك مـن كـلّ حـكـمـةِ

وهـــذا مـقـامٌ طـالـمـا عـجـزَ الأُلـى *** نــفــوه وكـــرّوا راجـعـيـن بِـحَـيْـرةِ

فــإن جـمـيـع الـكـون أوجــب فـعـلَـه *** مـشـيـئـةُ ربّ الـخـلـق بــاري الـخـلـيـقـةِ

وذاتُ إلـــهِ الـخـلـقِ واجـبـةٌ بـمـا لـهـا *** مـــن صــفــاتٍ واجــبــاتٍ قـديـمـةِ

مـشـيـئـتُه مــع عـلـمـه ثـم قــدرة *** لــوازم ذاتِ الله قــاضــي الـقـضـيـةِ

وإبـداعُـه مـا شــاء مـن مـبـدعـاتـه *** بـهـا حـكـمـةٌ فـيـه وأنـــواعُ رحـمـةِ

ولـسـنـا إذا قـلـنـا جـــرَت بـمـشـيـئـةٍ *** مـــن الـمـنـكـري آيـاتِـه الـمـسـتـقـيـمـةِ

بــل الـحـقُ أنّ الـحـكـمَ لـلـهِ وحـــده *** لـه الـخـلـق والأمـر الـذي فـي الشـريـعـةِ

هـو الـمـلـكُ الـمـحـمـودُ فـي كـل حـالـةٍ *** لـه الـمـلـك مـن غـيـر انـتـقـاصٍ بـشـركـةِ

فـمـا شـــاء مـولانـا الإلـــهُ فـإنـّه *** يــكــونُ ومـــــا لا لا يــكـون بـحـيـلـةِ

وقـدرتـُه لا نـقـص فـيـها وحـكـمُـهُ يـعـمُّ *** فـــلا تـخـصـيـصَ فــــي ذي الـقـضـيـةِ

أريـــــدُ بــــذا أنّ الــحــوادثَ كـلَّــهـا *** بـقـدرتـِه كـانـت ومـحـضِ الـمـشـيـئةِ

ومـــا كـــان فـــي كــلّ مـــا قـد أراده *** لــه الـحـمـد حـمـدا يـعـتـلـي كـل مِـدحةِ

كيفية الجمع بين قوله تعالي (لكل أجل كتاب) وقوله تعالي (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقوله تعالي (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وقوله تعالي (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

وبيان أنواع الأقدار المكتوبة

1) التقدير الميثاقي

وهي المسألة الموسومة بمسألة الميثاق ، وهي من المسائل التي اتفق عليها أرباب الفرق المختلفة ، فلا خلاف بينهم في أن الميثاق أُخِذ لكن ما تفسيره وكيف أخذ ؟ هذا ما اختلفوا فيه

قال ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القران وهو من أعلم الصحابة بالتفسير وقد دعا له النبي صلي الله عليه وسلم بالفقه في الدين والتأويل ، وهو في السلسلة الصحيحة 1623.

(أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال : { ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

وروى الإمام أحمد وأبو داوود بسند صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها ، فقال :

(إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل إذا

خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار)

و روي الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ) .

والميثاق هو العهد الشديد المؤكد كقوله تعالي (قال لن أرسله معكم حتي تؤتؤن موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم) ، وقوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسي بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) .

وقال كثير من أهل العلم كابن تيمية وابن كثير وابن القيم والشيخ السعدي أن الميثاق المأخوذ من ظهر آدم من ذريته دليله السنة السابقة ولا دليل عليه من القران وأن آية الأعراف والإشهاد الذي ذكر فيها إنما هو إشهاد بلسان الحال وبما فطر الخلق عليه من دلائل وحدانيته فالخالق وحده هو المستحق إذن للعبادة وحده وهذه حجة الله علي خلقه فكم من آية في القران يحاج الله عز وجل فيها المشركين بأفعال ربوبيته كقوله (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ، وقوله (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأني يؤفكون) ،

وقوله (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولون الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) .

وحجتهم في ذلك أن الله عز وجل في الميثاق المأخوذ أخذ من آدم ولم يأخذ من بني آدم ، وأخذ من الظهور علي صفة الجمع ولم يأخذ من ظهر آدم وأنه أشهد بعضهم علي بعض وهذا ليس موجودا في أحاديث الميثاق السابقة ، فيكون قوله تعالي (أخذ ربك) أي جعل وخلق بني آدم ذريتهم وأشهدهم علي أنفسهم بلسان حالهم لا مقالهم أنهم مخلوقون مربوبون مما يدل علي أن خالقهم ورازقهم هو المستحق للعبادة دون ما سواه

وقال آخرون كالبغوي أن الآية مؤكدة لما جاء في أحاديث الميثاق لما فيها من أخذ الميثاق من ظهور بني آدم ، وظهورإشهادهم وإجابتهم .

قال البغوي في تفسيره مجيبا عن ما استشكله أصحاب القول الأول :

(فإن قيل : ما معنى قوله "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم " وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل : إن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأُخرجوا من ظهره ، وقوله تعالي (وأشهدهم علي أنفسهم ألست بربكم) أي : أشهد بعضهم علي بعض ، وقوله "شهدنا أن تقولوا " قرأ أبو عمرو بالياء فيهما ، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما ، واختلفوا في قوله :شهدنا ، قال السدي : هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم . وقال بعضهم : هو خبر عن قول بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض ، فقالوا بلى شهدنا . وقال الكلبي : ذلك من قول الملائكة ، وفيه حذف تقديره : لما قالت الذرية : بلى قال الله للملائكة : اشهدوا ، قالوا شهدنا ، وقال الكلبي : ذلك من قول الملائكة ، وفيه حذف تقديره : لما قالت الذرية : بلى قال الله للملائكة : اشهدوا ، قالوا : شهدنا .

فإن قيل : كيف تلزم الحجة أحدا لا يذكر الميثاق؟ قيل : قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا ، فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة) انتهي تفسير البغوي وهو ممن يري أن الآية مؤكدة للميثاق المذكور في الأحاديث .

ولا منافاة بين القولين فإن هذه المواثيق ثابتة في الكتاب والسنة .

وجملة القول أن المواثيق ثلاثة

1) الميثاق الثابت في الأحاديث السابقة الذي أخذه الله تعالي حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام ، وهو ما عليه جمهور المفسرين في آية الأعراف .

2) الميثاق الثاني : ميثاق الفطرة ، وتقدمت الأحاديث فيها وهي مصداق لقوله تعالي (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

3) الميثاق الثالث : وهو ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب ميثاقا تنقطع به المعذرة وتثبت به الحجة وينزل العذاب الخالد المخلد علي من خالفها بالشرك بالله عز وجل .

قال الشيخ حافظ حكمي في المعارج ص 93

(فمن أدرك هذا الميثاق وهو باقٍ على فطرته التي هي شاهدة بما ثبت في الميثاق الأول، فإنه يقبل ذلك من أول مرة ولا يتوقف؛ لأنه جاء موافقًا لما في فطرته، وما جبله الله عليه؛ فيزداد بذلك يقينه، ويقوى إيمانه، فلا يتلعثم ولا يتردد.

ومن أدركه وقد تغيرت فطرته عما جبله الله عليه من الإقرار بما ثبت في الميثاق الأول، بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه، وهوَّده أبواه أو نصَّراه أو مجَّساه - فهذا إن تداركه الله برحمته فرجع إلى فطرته وصدَّق بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، نفعه الميثاق الأول والثاني، وإن كذب بهذا الميثاق، كان مكذبًا بالأول والثاني، فلم ينفعه إقراره به يوم أخذه الله عليه .

ومن لم يدرك هذا الميثاق، بأن مات صغيرًا قبل التكليف، مات على الميثاق الأول، على الفطرة، فإن كان من أولاد المسلمين، فهم مع آبائهم، وإن كان من أولاد المشركين، فالله أعلم بما كانوا عاملين) انتهي .

ولكن من ذهب للقول أن الآية دليل علي الميثاق الذي جاء بالسنة فلا يقول أنه كاف لإنزال العذاب الأخروي بالخلود في النار بقوله تعالي (أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) بل الآية في بيان استحقاقهم للعذاب وإن لم يرسل رسول لأنهم خالفوا مقتضي ما فطرهم الله عليه وأخذ عليهم الميثاق به ، ولكن لن يحل بهم إلا بإدراك الميثاق الثالث وهو رسالة الرسول كما قال تعالي (وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا) .

فمن لم يدرك الميثاق الثالث ومات صغيرا قبل التكليف فإن كان من أب مسلم فهو من أهل الجنة بلا خلاف ، قال ابن كثير رحمه الله : فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة . وهذا هو المشهور بين الناس (أي عامة العلماء) وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل. " تفسير القرآن العظيم " (3 / 33) .

وأما أطفال المشركين فلهم حكم أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة ، فعن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود ، والمعتوه ، ومن مات في الفترة ، والشيخ الفاني ، كلهم يتكلم بحجته ، فيقول الرب تبارك وتعالى لعُنُق من النار : أُبْرزْ ، ويقول لهم : إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم ، وإني رسول نفسي إليكم ، ادخلوا هذه (أي النار) ، قال : فيقول من كتب عليه الشقاء : يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفرّ ، قال : ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً ، قال : فيقول الله تعالى أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية ، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار) ذكره ابن كثير في تفسيره وهذه جملة من الأحاديث الشاهدة له وهو قول أكثر أهل السنة والجماعة .

قال ابن القيم: فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضًا، وتشهد لها أصول الشرع وقواعده، والقول بمضمونها هو مذهب السلف وأهل السنة، نقله عنهم الأشعري - رحمه الله - في المقالات وغيرها، ورجَّح هذا المذهب شيخه ابن تيمية.

وقيل هم من أهل الجنة كأطفال المسلمين أو من أهل الأعراف الذين مردهم إلي الجنة ، ودليلهم حديث سمرة رضي الله عنه : أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين . رواه البخاري ، وقيل هم من أهل النار وهذا قول باطل مخالف لصريح القران (وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا) ، وقيل هم خدم أهل الجنة ولا دليل علي ذلك ، وتوقف آخرون استدلالا بقول النبي صلي الله عليه وسلم (الله أعلم بما كانوا عاملين) .

ولكن القول الأول هو الذي دلت عليه السنة وبه تجتمع الأدلة فالله أعلم بما كانوا عاملين ؛ هل سيستجيبون لمنادي الله يوم القيامة أم سيدخلون جنته التي هي ناره ، فمن يجيب رسول الله يوم القيامة دخل الجنة وبهذا القول تجتمع الأحاديث السابقة .

2) تقدير عام وهو التقدير الأزلي في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل وهو ما قال فيه الرسول صلي الله عليه وسلم (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة) رواه مسلم في صحيحه .

3) تقدير خاص ، ومنه :

1- تقدير عمري لكل إنسان في رحم أمه كما في حديث ابن مسعود في الصحيحين قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا - نطفة - ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْبِ رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيدٌ)) .

وهذا التقدير لا يتغير أيضا بدلالة بقية حديث ابن مسعود (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتي ما

يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتي ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) ، وعن عامر بن واثلة أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: **"الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره"** فأتى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال وكيف يشقى رجل بغير عمل فقال له الرجل أتعجب من ذلك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب أجله فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب رزقه فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده **فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص" .**

وعند الآجري بسند صحيح عن أبي هريرة (السعيدُ من سعِد في بطنِ أمِّه والشقيُّ من شقيَ في بطنِ أمِّه) .

فوائد من حديث ابن مسعود وحديث حذيفة بن أسيد :

- والنطفة ماء الرجل ، والعلقة ما يعلق في الرحم من الدم ، والمضغة قطعة اللحم ، والتصوير التخطيط ، والخلق جعل الله مقادير من الأطراف ، والبرء استكمال الخلق هكذا بهذا الترتيب .
- وإذا أعلم الله الملك بنوع الجنين فقد خرج عن العلم المختص بالله إلي الملك ، فمن علمه لا يعد عالما بالغيب غير أنهم يعلمون ذلك الآن بمقدمات وفي وقت معين لا قبله .
- ولا تعارض بين حديث ابن مسعود وحديث حذيفة بن أسيد - رضي الله عنهما - في بيان أن الكتابة بعد مائة وعشرين يوما كما في حديث ابن مسعود ، وبعد الأربعين يوما الأولي في حديث حذيفة بن أسيد ، لا تعارض إنما التعارض في الأفهام والأذهان ؛ففي حديث ابن مسعود ذكرت الكتابة بعد

مائة وعشرين يوما بتقديم وتأخير بين مراتب الخلق لأن حسن اللغة يقتضي ألا يقطع تسلسل خلق الجنين من نطفة لعلقة ومن علقة لمضغة ، فرتب مراتب الخلق ثم ذكر بعدها الكتابة وإن كانت الكتابة تحدث بعد الأربعين الأولي كما في حديث حذيفة .

وعليه فتنفخ الروح بعد مائة وعشرين يوما يعني بعد أربعة أشهر من الحمل ، ويكون التصوير والبرء بعد اثنين وأربعين يوما كما في حديث حذيفة ، وتكون الكتابة بعد اثنين وأربعين يوما وفي أثناء المائة والعشرين يوما علي الصحيح من أقوال العلماء وهو الموافق لحديث حذيفة ، وإنما أخرت عند ابن مسعود لئلا ينقطع ترتيب مراحل الخلق لا سيما وقد جيء بالواو العاطفة فقال (ويؤمر بأربع كلمات) والواو لا تقتضي ترتيبا وإنما هي استئنافية فليست دليلا علي أن الكتابة تكون بعد مائة وعشرين يوما بل بعد اثنين وأربعين .

وذهب ابن القيم في شفاء العليل إلي أنها كتابتان بواسطة ملكين اثنين مختلفين كتابة بعد الأربعين وكتابة بعد المائة والعشرين

فقال في شفاء العليل :

(وكثير من الناس يظن التعارض بين الحديثين، ولا تعارض بينهما بحمد الله وان الملك الموكل بالنطفة يكتب ما يقدر الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى حتى يأخذ في الطور الثاني وهو العلقة، وأما الملك الذي ينفخ فإنما ينفخها بعد الأربعين الثالثة، فيؤمر عند نفخ الروح فيه بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقاوته أو سعادته، **وهذا تقدير آخر غير التقدير الذي كتب بالنطفة**، ولهذا قال في حديث ابن مسعود: (ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات)، وأما الملك الموكل بالنطفة فذاك راكب معها ينقلها بإذن الله من حال إلى حال، فيقدر الله سبحانه شأن النطفة حتى تأخذ في مبدأ التخليق وهو العلق، ويقدر شأن الروح حين تتعلق بالجسد بعد مائة وعشرين يوماً، فهو تقدير بعد تقدير، فاتفقت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق بعضها بعضاً، ودلت كلها على إثبات القدر السابق، ومراتب

التقدير، وما يؤتى أحد إلا من غلط الفهم أو غلط في الرواية، ومتى صحت الرواية وفهمت كما ينبغي تبيّن أنّ الأمرَ كله من مشكاة واحدة صادقة متضمنة لنفس الحق، وبالله التوفيق) **انتهي** .

- معرفة جنس الجنين يكون بعد اثنين وأربعين يوما كما عند حذيفة ويكون قد خرج من علم الغيب علي ما سبق بيانه .

- وعلي قول الإمام أحمد وجماعة من العلماء استدلالا بحديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أن الجنين إذا سقط بعد مائة وعشرين يوما يصلي عليه لأنه قد نفخت فيه الروح كما سبق .

- تعلق الروح بالبدن له أربع حالات :

الأولي : تعلق في الرحم ولكن هذا التعلق ليس كالتعلق الذي في الدنيا .

الثانية : تعلق في الدنيا والروح فيه تبع للجسد تألم لألمه وتسعد بسعادته .

الثالثة : تعلق برزخي ويكون البدن فيه تبعا للروح فتنعم الروح أو تعذب ويلحق ذلك البدن تبعا فالنعيم والعذاب يقع علي البدن كما يقع علي الروح ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة خلافا للمبتدعة من الأشاعرة وغيرهم ، بأدلة لا تأتيك هنا ولعلي أفردها في رسالة إن شاء الله تعالي .

الرابعة : تعلق يوم القيامة وهذا أكمل تعلق فلا تبعية هنا ، وإنما الروح مخلوق منفصل والبدن مخلوق منفصل وكلاهما ينعمان استقلالا لا تبعا .

2- تقدير سنوي حولي في ليلة القدر

كما قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالي (فيها يفرق كل أمر حكيم) :

(في ليلة القدر يفصل عن اللوح المحفوظ إلي الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وهكذا روي عن ابن عمر ومالك ومجاهد وغير واحد من السلف) .

وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان .

وقال الطبري (وعنى بقوله: فيها يفرق كل أمر حكيم ـ في هذه الليلة المباركة يقضى ويفصل كل أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى) .

3- تقدير يومي ودليله قوله تعالي (كل يوم هو في شأن) قيل في تفسيرها يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين ، فأول تقديرين مما كتب في اللوح وما كتبه الملك الموكل بالرحم لايتغيران وقيل أن التقدير العمري يتغير ولكنه قول مخالف للأحاديث والآثار التي تقدمت ، وأما التقدير اليومي والحولي مما في صحف الملائكة فهذا مما يقبل التغيير ، وبه نفهم الأحاديث التي فيها تغيير الرزق وبسطه بعد أن كتب مقدورا مضيقا علي صاحبه، وتغيير العمر وإنساؤه بعد ان كان مكتوبا قصيرا ، كما في قوله صلي الله عليه وسلم (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) ، وحرمان الرزق بالذنوب ونقصه كما في قوله صلي الله عليه وسلم (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) وبهذا أيضا نفهم قول عمر الذي أخرجه اللالكائي (اللهم إن كنت كتبتني شقيا فاكتبني سعيدا) ، وقوله تعالي (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) في أحد التفاسير وإلا فقد قيل أنه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ ، وقيل يمحو من جاء أجله، ويُثبت من لم يجئ أجله قاله الحسن ، ويفهم أيضا قوله تعالي (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) فعمر واصل الرحم لم يكن بالطويل فأطيل فيه حقا بصلة رحمه ، وليس كما قيل ما يعمر من

معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر ، ولكن هذا في صحف الملائكة أما أجله وعمره الحقيقي في اللوح فلا يتغير بمقتضي علم الله الازلي القديم بعمل العبد الذي سيطيل عمره ، ودليل ذلك ما صح عن ابن عباس كما عند الحاكم في المستدرك بسند صححه أهل العلم عن ابن عباس قال: هما كتابان، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أُمُّ الكتاب لا يغيَّر منه شيء) يعني يمحو الله ما يشاء ويثبت مما في صحف الملائكة وعنده أم الكتاب في اللوح المحفوظ .

فالذي يتغير هو التقدير السنوي واليومي مما في صحف الملائكة ، واما اللوح المحفوظ ففيه كل شيء ولا يتغير ، وكل ما في صحف الملائكة وإن محي ما محي منه سيصير أخيرا إلي ما في اللوح الذي هو أم الكتاب أي أصله لأن أم كل شيء أصله .

وبهذا تعلم الفرق بين ما كتب في اللوح وما كتبته الملائكة في صحفهم في اليوم والسنة :

فما في اللوح كتبه القلم أما ما في صحف الملائكة فكتبتها الملائكة ، وما كتب في اللوح سابق علي خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وما في صحف الملائكة لاحق ، ما في اللوح ثابت لا يتغير لأنه مبني علي علم الله القديم ،أما ما في صحف الملائكة فيمحو الله منه ما يشاء ويثبت لأنه مبني علي علم الملائكة .

واختلفوا ما الذي يُمحَي في صحف الملائكة ؟؟

فذهب ابن عباس كما سبق إلي أن كل شيء قد يمحي إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت وهو منسوب إلي ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم ، وقيل يمحي كل شيء حتي الشقاوة والسعادة والحياة والموت وهو منوسب إلي ابن مسعود وعمر رضي الله عنهم.

والراجح عموم المحو لأمور:

الأول : عموم قوله تعالي (يمحو الله ما يشاء ويثبت) و(ما) من صيع العموم كما هو معلوم اصوليا

الثاني : ما رواه الترمذي عن النبي صلي الله عليه وسلم (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر) والقضاء شامل للحياة والموت والشقاوة والسعادة .

وهذا الذي يحمل عليه ما روي في كتب السنة عن عدد من الصحابة (اللهم إن كنت كتبتني شقيا فاكتبني سعيدا) .

وأما القول بأن الشقاوة والسعادة كتبها الملك الموكل بالرحم والكتابة العمرية لا تتغير فكيف تتغير علي هذا القول ؟ أقول تتغير في الكتابة السنوية التي في ليلة القدر فإنه يكتب فيها أمر الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وغير ذلك وسبق أن الكتابة السنوية تتغير .

ونستطيع أن نقول أنه لا تعارض إذا وجهنا ما نسب لابن عباس في عدم محو الشقاوة والسعادة بأنها مما في اللوح أو ما كتبه الملك الموكل بالرحم .

بيان أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يجعلك تتكاسل عن العمل

بل يقتضي الاجتهاد والحرص

قال ابن القيم في شفاء العليل : (يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال وأن ما قضاه الرب سبحانه وقدره لا بد من وقوعه فتوسط العمل لا فائدة فيه وقد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبي ﷺ فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: "ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة فقال رجل يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} وفي بعض طرق البخاري أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل .

فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كل من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة .

وعند مسلم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: " جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال: "لابل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير قال: ففيم العمل فقال: اعملوا فكل ميسر" .

وعن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار فقال: نعم قيل ففيم يعمل العاملون فقال كل ميسر لما خلق له" متفق عليه .

وفي بعض طرق البخاري "كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له" ورواه الإمام أحمد أطول من هذا فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عروة بن ثابت عن يحي بن عقيل عن أبي نعيم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على عمران بن حصين يوما من الأيام فقال: إن رجلا من جهينة أو مزينة أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم الحجة قال بل شيء قضى عليهم قال فلم يعملون إذا يا رسول الله قال من كان الله عز وجل خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}وقال المحاملي ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت أبا سفيان يحدث عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنه قال نزل فمنهم شقي وسعيد فقال عمر: يا نبي الله علام نعمل على أمر قد فرغ منه أم لم يفرغ منه قال لا على أمر قد فرغ منه قد جرت الأقلام ولكن كل ميسر: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} .

فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يوجب الجد والاجتهاد ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال ما كنت أشد اجتهادا مني الآن وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيئ له فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب وكلما زاد اجتهادا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسري والوطء وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع وإذا قدر الشبع والري فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس **وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن**

عطل العمل اتكالا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ما قدر له .

فالقدر السَّابِق معِين على الْأَعْمَال وَمَا يحث عَلَيْهَا ومقتضي لَهَا لَا أَنه منَاف لَهَا وصاد عَنْهَا وَهَذَا مَوضِع مزلة قدم من ثبتَتْ قدمه فَازَ بالنعيم الْمُقِيم وَمن زلت قدمه عَنهُ هوى إِلَى قَرَار الْجَحِيم فالنبي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أرشد الْأمة فِي الْقدر إِلَى امرين هما سَببا السَّعَادَة الْإِيمَان بالأقدار فَإِنَّهُ نظام التَّوْحِيد والإتيان بالأسباب الَّتِي توصل إِلَى خَيره وتحجز عَن شَره وَذَلِكَ نظام الشَّرْع فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نظام التَّوْحِيد وَالْأَمر فَأبى المنحرفون إِلَّا الْقدح بإنكاره فِي أصل التَّوْحِيد أَو الْقدح بإثباته فِي أصل الشَّرْع وَلم تتسع عقلوهم الَّتِي لم يلق الله عَلَيْهَا من نوره للْجمع بَين مَا جمعت الرُّسُل جَمِيعهم بَينه وَهُوَ الْقدر وَالشَّرْع والخلق وَالْأَمر وَهدى الله الَّذين آمنُوا لما اخْتلفُوا فِيهِ من الْحق بِإِذْنِهِ وَالله يهدي من يَشَاء إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم وَالنَّبِيّ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم شَدِيد الْحِرْص على جمع هذَيْن الْأَمريْنِ للأمة وَقَالَ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم احرص على مَا ينفعك واستعن بِاللَّه وَلَا تعجز وَإِن الْعَاجِز من لم يَتَّسِع للأمرين وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق) انتهي .

قال ابن تيمية (68/8) :

(الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسبابًا تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي، فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق؛ لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء، وكذلك إذا علم أنه هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب، فلو قال: إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر، كان جاهلا ضالا؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل، وهذا يروي بالشرب، وهذا يموت بالقتل، فلابد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها.

وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدًا في الآخرة، وهذا شقيًا في الآخرة، قلنا ذلك؛ لأنه يعمل بعمل الأشقياء، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل، فلو قيل: هو شقي، وإن لم يعمل كان باطلا؛لأن الله لا يدخل النار أحدًا إلا بذنبه، كما قال تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ، فأقسم أنه يملؤها من إبليس وأتباعه، ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمله حتى يعمله .

وكذلك الجنة، خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته، فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان والطاعة، فمن قال: أنا أدخل الجنة، سواء كنت مؤمنًا أو كافرًا، إذا علم أني من أهلها، كان مفتريًا على الله في ذلك، فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان، فإذا لم يكن معه إيمان، لم يكن هذا هو الذي علم الله أنه يدخل الجنة، بل من لم يكن مؤمنًا بل كافرًا، فإن الله يعلم أنه من أهل النار، لا من أهل الجنة.

ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب. ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالا على القدر، كان مخطئًا أيضا لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه. وإذا قدر للعبد خيرًا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات) انتهي كلام ابن تيمية - رحمه الله - .

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة وهو الحكيم بما نصه من الأسباب في المعاش والمعاد وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادا في فعلها من القيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه وقد فقه هذا كل الفقه

من قال ما كنت أشد اجتهادا مني الآن فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضي به إلى رياض مونقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضي إليه ولهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا مني بآخره وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها لتوصله إليها فالأمر كله من فضله وجوده السابق فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها فالمؤمن أشد فرحا بذلك من كون أمره مجعولا إليه كما قال بعض السلف والله ما أحب أن يجعل أمري إلي ؛ إنه إذا كان بيد الله خيرا من أن يكون بيدي فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها لا أنه مناف لها وصاد عنها وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم **فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلي أمرين هما سببا السعادة الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد ، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر فأبى**

المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بإثباته في أصل الشرع ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه وهو القدر والشرع والخلق والأمر وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والنبي ﷺ شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة وقد تقدم قوله: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن العاجز من لم يتسع للأمرين" وبالله التوفيق. (شفاء العليل)

في التوفيق بين قوله تعالي (قل كل من عند الله) وقوله صلي الله عليه وسلم (الخير بيديك والشر ليس إليك) وقوله (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)

وهل الشر في قضاءِ الله وقدره أم في مَقضِيّه ومقدوره

فإن قضاء الله وإرادته كونا وخلقه لفعل العاصي خير ولحكمة ومصلحة

وإن كان وقوعه من العبد - وهو المَقضيُّ المخلوقُ المرادُ كونا - عيبا ونقصا وشرا

لا ينسب الشر إلي الله أبدا فضلا عن أن يكون بيديه ، وإن كان هو خالقه ، فإيجاده هو المنسوب إليه سبحانه وهو من هذه الجهة ليس بشربل لحكمة ، فالشر إنما هو في المخلوق لا في الخلق الذي هو فعله سبحانه ؛ لأن ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله كلها خير ولحكمة بالغة ولا يتطرق إليها الشر بوجه ، وذلك لأمور :

الأول : أن إضافة الشر إليه سبحانه يوهم أنه خارج من ذاته كما تخرج من ذات العبد والله منزه عن ذلك .

الثاني : أنه يوهم أن الله أمر بها والله لا يأمر بالفحشاء .

الثالث : تأدبا مع الله عز وجل .

فالله لا يفعل إلا الخير ، والقدَر من حيث نسبته إلي الله لا شر فيه بوجه من الوجوه لأنه علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه وذلك خير محض ، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ، ولم تكن اسماؤه كلها حسني

وفي ذلك يقول رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَح الصَّلاةَ كبَّر ثمَّ يقولُ : (وجَّهْتُ وجهيَ للَّذي فطَر السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا مِن المُشرِكينَ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي للهِ ربِّ العالَمينَ لا شريكَ له وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسلِمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِكُ لا إلهَ إلَّا أنتَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ ظلَمْتُ نفسي واعترَفْتُ بذَنْبي فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ لبَّيْكَ وسعدَيْكَ **والخيرُ كلُّه في يدَيْكَ والشَّرُّ**

ليس إليكَ أنا بكَ وإليكَ تبارَكْتَ وتعالَيْتَ أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ) رواه مسلم في صحيحه من حديث علي رضي الله عنه ، وقوله تعالي (بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير) .

وكان يستفتح أيضا بقوله (لبيك وسعديك ، **والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك** ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت)

قال ابن القيم في شفاء العليل :

(فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، **والشر إنما صار شرًّاً لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّاً، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله.**

وخلقُهُ، وفعلُه، وقضاؤه، وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزَّه سبحانه عن الظلم، الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًّاً، فعُلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك.

وقال أيضاً :فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء؛ فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيحَ المنهيَّ عنه، كان قد فعل الشرَّ والسوءَ.

والربُّ سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمةٌ، وصوابٌ، فَجَعْلُهُ فاعلاً خيرٌ، والمفعولُ شرٌّ قبيح؛ فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، **فهو خير وحكمة، ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً، ونقصاً، وشرًّاً)** انتهي .

فقضاء الله هو الفعل القائم به سبحانه ، ومقضيه هو المباين له ، وتقديره هو الفعل القائم به سبحانه والمقدرالمباين له ، إرادته فعل قائم به سبحانه ومراده المباين له ، خلقه فعله القائم به ومخلوقه هو المباين له

، فالفعل القائم بالله من إرادة وقضاء وخلق وتقدير خير أبدا وعدل ولحكمة ، أما مفعوله الذي هو مقضيه ومقدوره ومراده ومخلوقه فهو الذي يحتمل الشر ، فإن كان من المصائب التي لا يد للعبد فيها فهي خير وإن كانت في نظر الإنسان القاصر شرا ، وإذا كان هذا الشر الذي هو في المقضي والمقدر في المعائب والمعاصي الصادرة من العبد فهي شر يعاقب عليه العبد وإن كان قضاء الله لها خيرا وعدلا ولحكمة بالغة .

إنما الشر يكون في المقدور والمقضي ومع ذلك فهو وإن كان شرا في محله فهو خير في محل آخر ولا يمكن أن يكون شرا محضا ، بل قد يكون خيرا بالنسبة إلي نفس المحل القائم به من وجه ، بل هذا هو الغالب كالقصاص والحدود والكفارات والأمراض فالشر فيها إنما هو من نظرالإنسان القاصر ولكنها في الحقيقة خير من جهة تكفير الذنوب وغير ذلك من الحكم ، وهذا الشر الظاهر قد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه ، ولكنه يحدث بإذن الله ومشيئته الكونية وهو لحكمة بالغة قد نعلمها وقد لا نعلمها فلا يكون شرا محضا .

قال ابن القيم في شفاء العليل

(قدرها الله سبحانه وقضاها لحكمته، وهي باعتبار تلك الحكمة نوع من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط، بل فعله كله حسن وخير وحكمة، كما قال تعالى: بيدك الخير. وقال أعرف الخلق به صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك، فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزه عنه وليس إليه) **انتهي كلامه .**

فالموجودات - باعتبار ما فيها من خير أو شر- قسمان لا ثالث لهما :

الأول : ما هو خير محض .

الثاني : ما فيه شر جزئي .

وليس في الموجودات شر محض ، كما أنه ليس فيها ما يستوي فيه الخير والشر ، أو غلب شره علي خيره أو لا يكون فيه شر ولا خير .

ولهذا قال تعالي (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ، وقال (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون) ، وقال في آية الأنبياء (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) ، وقال تعالي (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) قال الطبري : يقول تعالى ذكره: وما خلقنا الخلائق كلها، سماءها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما ، يعني بقوله (وَمَا بَيْنَهُمَا) مما في أطباق ذلك (إلا بِالْحَقِّ) يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور . انتهي كلام الطبري .

وهذا الشر الجزئي المفعول المقدور الذي هو شر في محل وخير في محل آخر أو لنفس ذات المحل لا يضاف إلي الله إلا علي أحوال ثلاثة كما قال ابن تيمية (8/ 94) :

الأول : علي سبيل العموم كقوله تعالي (الله خالق كل شيء) ، فالله خالق الشر والخير وخلقه للشر لحكمة بالغة فلا يفعل شيئا إلا لحكمة علمناها او لم نعلمها ، فإضافته لله سبحانه علي سبيل العموم يفيد عموم القدرة والمشيئة والخلق .

الثاني : إضافته إلي السبب الفاعل المخلوق كقوله تعالي (وإذا مرضت فهو يشفين) .

الثالث : حذف فاعله كقوله تعالي (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وكقوله صلي الله عليه وسلم (والشر ليس إليك) فإن هذا من حسن الأدب مع الله تعالى في عدم نسبة الشر إليه وإن كان هو خالقه وموجده سبحانه.

فهنا يجب التفريق بين القدر والمقدور وبين القضاء والمقضي لأن القدر يطلق على معنيين :

الأول: التقدير أي: إرادة الله عز وجل الشيء، الثاني: المقدر أي: ما قدره الله عز وجل،فالشر في مقضيه ومقدوره لا في تقديره وقضائه بل تقديره وقضاؤه كله خير وعدل ولحكمة ، وأما مقدوره الذي فيه شر فهو ظاهر للإنسان أن فيه شرا ولكن في الحقيقة هو خير إما لذات المرء أو لغيره بالنسبة للمجموع فالشر والخير هو بالنسبة لنظر الإنسان القاصر ، ولكن فعله سبحانه كله خير ومن قال بغير ذلك كفر ، ومفعولاته ظاهرها للإنسان شر ولكن هو خير له أو لغيره فشر من وجه ، وخير من وجه آخر، وهذا في القدر الاضطراري الذي لا مدخل للعبد فيه يعني في المصائب لا المعائب ، وأما المعائب وهي الذنوب مما يقع باختيارالإنسان من أنواع المعاصي فسيأتي ما يجب علي الموحد اعتقاده في الفصل القادم .

فالشر لا ينسب إلي الله تعالي وهذا بالاتفاق بين أهل السنة وأهل البدعة إلا أنهم اختلفوا في ماهية الشر ومعناه ، فالقدرية عندهم الشر هو كفر العبد ومعصيته وسيأتي نقض شبهتهم في نظرية الصالح والاصلح والظلم والعدل فإنهم يقولون أن الله لم يشأها ولم يخلقها لأنهم جهلوا الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية لله تعالي ، فإنه لم يردها شرعا ولكنه أرادها كونا ، فلا حركة ولا سكون في الكون إلا بإذنه ومشيئته ولا يكون في ملكه إلا ما يريد كونا علي التفرقة التي سبقت في الفرق بين نوعي الإرادة لله تعالي ، واما الجبرية فالخير عندهم هو كل ما وجد ، وما لم يوجد فهو شر ، لأن ربهم مجبر عباده باطنا وظاهرا وهو الفاعل حقيقة عند الغلاة الجهمية ، أو باطنا دون الظاهر عند الاشاعرة وهم الجبرية المتوسطة فالمعاصي كلها خير عندهم ، ولهذا يقولون (ليس في الوجود أفضل مما كان) وهذا بسبب جهلهم بالفرق بين فعله ومفعوله سبحانه ، وبين نوعي الإرادة كالقدرية وبسبب معتقدهم الجبري أن ربهم هو الفاعل في الحقيقة أو أنه مجبر عبده باطنا دون الظاهر ، ولنفيهم الحكمة عن ربهم ، وكل هذا مردود كما سيأتي في موضعه .

واعلم أنه لا يصح إضافة الشر إلي الله فلا نقول الله يريد الشر ويفعله ولا نقول أيضا الله لا يريد الشر ولا يفعله لما في ذلك من إجمال ؛فلا بد من تفصيل ؛ فإذا أردنا بالإرادة الإرادة الكونية التي سبق بيانها فيجوز، لأنها إن كانت إرادة كونية فهي لحكمته وعدله فهي خير ، وإن أردنا بالإرادة الإرادة شرعية فهي كلها خير ولمصالح عباده وليس فيها شر أصلا ، فباعتبارها منسوبة إلي الله سبحانه خلقا وإيجادا ولأنه لا يفعل إلا الخير ولحكمة فهي خير ، هذا من جهة نسبة **إرادة الشر** بالنسبة لأفعال العباد وإرادته لها، وهو كذلك من جهة نسبة **فعل الشر** له فإن أردنا بفعل الشر الفعل القائم بالله سبحانه فهذا باطل ، وإن أردنا بفعل الشر مفعوله فهو من جملة خلقه ففعله خير وأما الشر ففي المفعول ومنه ، وهذا بالنسبة لنظر الإنسان القاصر .

فبالجملة :

- لا ينسب الشر إلي الله ، ولكن ينسب إليه الخلق والإيجاد فإن قضاء الله وإرادته كونا وخلقه لفعل العاصي خير ولحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيبا ونقصا وشرا ، ففعله الذي هو الخلق والقضاء والإيجاد و الفعل والإرادة والتقدير لا يكون إلا خيرا لأنه لحكمة بالغة ، فالله أراد حصول المعصية من العاصي كونا فإرادته وخلقه وإيجاده وتقديره خير وعدل ولحكمة ، وأما المقضي والمقدور الذي هو المعصية فشر يعاقب العبد عليها ، فالله خلق فعل العاصي من قدرة وإرادة وشاءها كونا عدلا منه سبحانه ولحكمة فإرادته وخلقه خير وعدل، و المقدور الذي هو المعصية شر ، الله قضي بالمرض علي العبد فقضاؤه خير ولمصلحة وحكمة والمرض خير لتكفير الذنوب ، وشر بالنسبة لنظر الإنسان القاصرمن وجه ، فالشر في المخلوق والمقضي والمُوجَد والمراد والمقدور ، وهذا الشرإنما هو بالنسبة لنظر الإنسان القاصر وإلا فهو في الحقيقة إما خير له نفسه أو لغيره وهذا بالنسبة للمصائب التي لا يد للإنسان في حصولها وأما المعائب من الذنوب والمعاصي فتقدير الله وإرادته لها كونا خير ولحكمة وعدل منه سبحانه ، وأما بالنسبة للعبد فهي شر منه وعليه وتجب مسارعته بالتوبة .

- لا يصح إضافة الشر إلي الله فلا نقول الله يريد الشر ويفعله لأنها إن كانت إرادة كونية فهي لحكمته وعدله فهي خير وإن كانت إرادة شرعية فهي كلها خير ولمصالح عباده ، ولأنها منسوبة إليه خلقا وإيجادا وهو لا يفعل إلا الخير .

- الشر إنما هو في مقدوره ومقضيه ومفعوله أي ما يتعلق بالعبد أو المراد بمعني آخر محل الشر ومحل الخير .

- وهذا الشر إنما هو في نظر الإنسان القاصر ، ولكنه في الحقيقة خير إما له وإما لغيره ، هذا بالنسبة للمصائب أما المعائب فدونك الباب القادم .

- **وفهم الفرق بين الفعل والمفعول مهم وبه يزول عنك كثير من الإشكالات** منها أن تعلم بطلان ما عليه غلاة الجهمية في نسبة حقيقة فعل الإنسان لله سبحانه وسيأتي رد ذلك ضمن شبهات الجبرية المردودة فإن فعل الإنسان فعل له لأنها مسندة إليه هو ، وهي مفعولة لله تعالي وتقدمت أدلة ذلك ، وتعلم ايضا ما نحن فيه هنا من الفرق بين قضاء الله ومقضيه وإرادته ومراده ، فقضاؤه وإرادته التي هي فعله خير أبدا لأنها لا بد لحكمة وعدل ، وأما الشر فهو في نظر الإنسان في المقضي والمراد ، وتعلم أيضا الفرق بين اللفظ والملفوظ في شبهة لفظي بالقران مخلوق وهذه لا يأتيك تفصيلها في هذا الكتاب

ولكن اعلم أن فعل الله هو القائم به سبحانه وأما مفعوله فهو المباين له سبحانه وليس هو نفس فعله إنما يقول ذلك نفاة صفات الله الفعلية المتجددة ، وفعل العبد هو فعله القائم به ومفعوله هو مفعول الله عز وجل وكان عبده فيه سببا لحصوله بإذن الله ، ففعل العبد مخلوق ومفعوله أيضا مخلوق لله تعالي .

قال ابن تيمية (121/8) :

(قول القائل: هذا فعل هذا، وفعل هذا، لفظ فيه إجمال، فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل، وتارة يراد به مسمي المصدر، فيقول: فعلت هذا أفعله فعلًا، وعملت هذا أعمله عملًا، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمي المصدر كصلاة الإنسان وصيامه ونحو ذلك، فالعمل هنا هو المعمول، وقد اتحد هنا مسمي المصدر والفعل، وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك، فالعمل هنا غير المعمول، قال تعالي: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} ، فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن، ومن هذا الباب قوله تعالي: {وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} ، فإنه في أصح القولين «ما» بمعني الذي، والمراد به: ما تنحتونه من الأصنام، كما قال تعالي: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} أي: والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها، ومنه حديث حذيفة عن النبي ﷺ: «إن الله خالق كل صانع وصنعته»، **لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من وجه آخر، فيقال: إذا كان خالقًا لما يعملونه من المنحوتات، لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها، فإنها إنما صارت أوثانًا بذلك التأليف، وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم، وإذا كان خالقًا للتأليف، كان خالقًا لأفعالهم.**

والمقصود أن لفظ الفعل والعمل والصنع أنواع، وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمي المصدر، وعلي المفعول، وكذلك لفظ: التلاوة والقراءة والكلام والقول يقع على نفس مسمي المصدر وعلي ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام، فيراد بالتلاوة والقراءة نفس القرآن المقروء المتلو، كما يراد بها مسمي المصدر.

والمقصود هنا أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد؛ فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعني المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل، ولكن من قال هي فعل الله وأراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق.

ثم من هؤلاء من قال: إنه ليس لله فعل يقوم به، فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه – قلت يعني بهم الجهمية وسيأتي نقض شبهتهم هذه ضمن الردود عليهم -

وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا فيقولون: هذه مخلوقة لله مفعولة لله ليست هي نفس فعله، وأما العبد فهي فعله القائم به، وهي أيضا مفعولة له إذا أريد بالفعل المفعول، فمن لم يفرق في حق الرب تعالي بين الفعل والمفعول إذا قال: إنها فعل الله تعالي ليس لمسمي فعل الله عنده معنيان، وحينئذ فلا تكون فعلًا للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولي، وبعض هؤلاء قال: هي فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولًا بين فاعلين) .

الصبر والرضا بقضاء الله وقدره

الصبر والرضا بقضاء الله وقدره وفعله واجبان ، وأما المقضي والمقدور **وهو ما يتعلق بالعبد** فالصبر عليه واجب والرضا مستحب لا واجب عند جمع من أهل العلم قالوا لأن الله إنما أمرنا بالصبر علي المصائب لا الرضا ، هذا ما يتعلق بالمصائب لا المعائب .

ودليل استحباب الرضا حديث عطاء بن السائب عن أبيه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه صلى بأصحابه يوما صلاة أوجز فيها فقيل له : يا أبا اليقظان خففت قال : " ما علي في ذلك لقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " قال : فقام رجل فتبعه هو أبو عطاء فسأله عن الدعاء فرجع فجاء فأخبر " : اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الغنى والفقر ، وأسألك نعيما لا يبيد وأسألك قرة عين لا تنفد ولا تنقطع ، **وأسألك الرضا بعد القضاء** ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين " صحيح النسائي ، وأخرجه غيره .

وهذا في المصائب أما المعائب من الذنوب والمعاصي التي هي باختيار العبد وإرادته فيجب أن يكره العبد ذلك ولا يرضي به أبدا مع أنه قضاء ولكنه كوني لا شرعي فيجب أن يكره فعل المعصية ويسارع للانسلاخ منها بالتوبة .

فإن قيل كيف يجتمع الرضا الواجب (بفعل الله) مع الكره لكفر الكافرين ومعصية العاصين ؟؟

فنقول الجهة منفكة أيضا ، فالعبد يكره ذلك ويبغضه من حيث هو فعل للعبد وبسببه هو ، وأنه واقع فيه بإرادته واختياره ومشيئته ، ولكن يرضي بعلم الله وكتابته ومشيئته وإذنه الكوني فيه عدلا منه سبحانه وما ربك بظلام للعبيد، فيرضي بما من الله ويسخط بما هو من المخلوق فالجهتان منفكتان .

وإن قيل كيف يجتمع الرضا المستحب شرعا في المصائب مع كراهة العبد للمقضي كالمرض والألم ؟

فالجواب أنه لا تنافي بين الامرين لانفكاك جهة الرضا عن جهة الكره ؛ لأن العبد لما علم أنه يفضي إلي تكفير السيئات رضي به وإنما يكرهه لما يلحقه من الأذي والألم ولهذا قال الرسول صلي الله عليه وسلم كما في الصحيحين " ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها خطاياه " .

وخالف القدرية في ذلك لما لم يفرقوا بين هاتين الجهتين السابقتين فقال القاضي عبد الجبار المعتزلي القدري - والمعتزلة كلهم قدرية - (إن كانت كل الفواحش والقبائح من خلق الله تعالي ، وما خلقه فقد قضاه وقدره من وجه فيجب الرضا إذاً بذلك وهذا كفر **!!**) وهذا ناشئ من اعتقادهم الفاسد في القدر أن الإنسان خالق فعل نفسه وأن ربهم غير قادر علي فعل العبد العاصي **!** ولعدم فهمهم أن هاتين الجهتين السابقتين بينهما انفكاك.

وإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهًا لله ومرادًا له ؟

نقول هو مراد له كونا لا شرعا وقد سبق أن الإرادة الكونية لا تختص بما يحبه وشرعه ، بل تتناول ما يحبه وما يكرهه ، غير أن المراد إما أن يكون مرادا لذاته ، وإما أن يكون مرادا لغيره وإن كان مكروها في ذاته ، فيحب من وجه ويكره من وجه .

قال الشيخ ابن عثيمين في الواسطية :

(لا غرابة في ذلك، فهذا هو الدواء المر طعمًا الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح، لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار).

فإذا كان ذلك في حق المخلوق وفي أمر مؤلم موجع ، وهو مع ذلك مضطر إليه اضطرارا ، فكيف بالخالق الحكيم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، مع كون ما أراده كونا إنما هو باختيار العبد وإرادته وقدرته المخلوقة لاجبرا ، وكيف إذا ما قدم الله بإنذار العباد فأرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب رحمة منه بهم ، أفتعجب بعدئذ من عدله سبحانه إذا ما عذب المستحق ورحم المتقي **!** تلك إذن قسمة ضيزي **!** ، بل لله الحجة القاطعة علي خلقه ، والحكمة البالغة التي تعجز عنها العقول وتحار .

فإذا جادل متعنت وقال إذا كان الله يحب الحكمة التي خلق لأجلها المكروه فأنا أحب ما يحبه الله ؛ فنقول فلتحب الحكمة الناشئة عن حكيم حميد ولكن لتكره المعصية نفسها التي كرهها الله وما أرادها إلا باعتبار غايتها لا باعتبارها في نفسها فهو يكرهها ويسخطها سبحانه ، فينبغي علي العبد أن يستحسن ما حسنه الله وأحبه ورضيه، ويستقبح ما كرهه الله وسخطه، ولكن إذا كان الله خلق هذا المكروه لحكمة يحبها، فالعارف هو أيضا يكرهه ويبغضه كما كرهه الله، ولكن يحب الحكمة التي خلق لأجلها، فيكون حبه وعلمه موافقًا لعلم الله وحبه، لا مخالفًا، والله عليم حكيم، فهو يعلم الأشياء على ما هي عليه، وهو حكيم فيما يحبه ويريده، وما يأمر به ويفعله، فإن كان يعلم أن الفعل الفلاني والشيء الفلاني متصف بما هو مذموم، مستحق للبغض والكراهة كان من حكمته أن يبغضه ويكرهه، وإذا كان يعلم أن في وجوده حصول حكمة محبوبة محمودة، كان من حكمته أنه يخلقه ويريده؛ لأجل تلك الحكمة المحبوبة التي هي وسيلة إلى حصوله.

وقد خلق الله إبليس وهو أصل كل شر ، ومع ذلك فالحكمة من خلقه عجيبة وظاهرة منها تمييز الخبيث من الطيب ليظهر علم الله في العباد فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، ومنها تكميل الله لأوليائه مراتب العبودية فيجازيهم ربهم بأحسن الجزاء جنات النعيم ورؤية وجهه الكريم ، ومن هذه الحكم أيضا ظهور أسماء الله الحسني ومقتضياتها فتظهر قدرة الله القدير في خلق المتضادات كالخير والشر والصالح والخبيث ، إلي غير ذلك من الحكم من هذا الفعل من أفعال الله العليم الخبير سبحانه

وفي إثبات الحكمة في أفعال الله يقول ابن تيمية في تائية القدر :

وإبداعُه ما شاء من مبدعاته : بها حكمةٌ فيه وأنواعُ رحمةِ

فإن له في الخلق من نعمٍ سَرَت : ومن حكمٍ فوق العقول الحكيمةِ

أموراً يحارُ العقلَ فيها إذا رأي : من الحكمِ العليا وكلِّ عجيبةِ

ولا ريب في تعليق كل مسبَّب : بما قبله من علة موجبيةِ

بل الشأن في الأسباب أسباب ما تري : وإصدارها عن حكم محض المشيئة

ويكفيك نقضا ما بجسم ابن آدم : صبيٍ ومجنونٍ وكل بهيمة

من الألم المَقضيّ في غير حيلةِ *** وفيما يشاء الله أكملُ حكمةِ

ففي المصائب والابتلاءات حكم كثيرة منها تكفير الذنوب ، والهرع إلي الصلاة وإخلاص الدعاء لله ومناجاته وانكسار النفس له ، ومعرفة قدر نعمه ومدي رحمته وإحسانه ، والتوبة والاستغفار إلي غير ذلك من النعم .

قال المنبجي في تسلية أهل المصائب :

(و ليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا و مصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر و العجب و الفرعنة و قسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا و آجلا فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء و حفظا لصحة عبوديته و استفراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة فسبحان من يرحم ببلائه و يبتلي بنعمائه كما قيل :(قد ينعم الله بالبلوى و إن عظمت... و يبتلي الله بعض القوم بالنعم) فلولا أنه سبحانه و تعالى يداوي عباده بأدوية المحن و الابتلاء لطغوا و بغوا و عتوا و تجبروا في الأرض و عاثوا فيها بالفساد فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر و نهي و صحة و فراغ و كلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها تمردت و سعت في الأرض فسادا مع علمهم بما فعل بمن قبلهم فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال ؟ ! و لكن الله سبحانه و تعالى إذا أراد بعبده خيرا سقاه دواء من الابتلاء و الامتحان على قدر حاله و يستفرغ منه الأدواء المهلكة حتى إذا هذبه و نقاه و صفاه أهَّله لأشرف مراتب الدنيا و هي عبوديته و رقاه أرفع ثواب الآخرة و هي رؤيته) .

حديث الرسول صلي الله عليه وسلم (اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له)

قوله صلي الله عليه وسلم (كل ميسر) لا تفيد الجبر فلم يقل مسير ، وإنما يعني ان الله تعالي علم أن هؤلاء سيعملون بعمل أهل النار وسيختارونه فكتب ما سيختارونه وشاء كونا أن يعملوه وخلقهم وخلق فعلهم فكتبهم من أهل النار لما في نفوسهم من الخبث فقد بين لهم طريق الخير وطريق الشر وحذرهم من عاقبته فلم يستجيبوا لداعي الله ، وإذا خذلهم يسر لهم سبل الضلال ، فالتيسير لأهل الجنة فيه زيادة فضل ، والتيسير لاهل النار فيه سلب فضل ، فلا جبر ، وإنما هو التوفيق والخذلان ، وسبق أول الكتاب في المعتقد المجمل أن هذا هو عين العدل وليس ظلما كما تدعيه القدرية فارجع لما قلته في المعتقد المجمل أول الكتاب ، فمن أراد الخير واختاره يسره الله عليه وأعانه وقواه ووفقه وزاده هدي وشكر سعيه ، ومن اختار الشر خذله الله ويسره له ، ولا يظلم ربك أحدا .

بيان أن قدرة الله تتعلق بما شاءه وما لم يشاه

أهل السنة يجعلون قدرة الرب متعلقة بكل شيء بما شاءه وما لم يشأه كما قال تعالي (إن الله علي كل شيء قدير) ، واسم الله القدير متعلق بكل شيء وأما أهل البدع من القدرية فيعلقون قدرته سبحانه بما شاءه فقط ، ومن الحجج عليهم قوله تعالي (قل هو القادر علي أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ، وكذلك قوله تعالي (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلي الأرض واتبع هواه) ، وقوله تعالي (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) ، وقوله (لو يشاء الله لهدي الناس جميعا) ، أما القدرية فيقولون (غير قادر علي ألا يخلق السماوات والارض) لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه ، وأما ما لم يشأه فالقدرة غيرمتعلقة به لذلك ترى أنهم يعدلون عما جاء في القرآن بقول وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إلى قولهم والله على ما يشاء قدير؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه الله وليست متعلقة بما لم يشأه فإذا قيل هل الله قادر على أن لا يُوجِد إبليس؟ قالوا :لا ،غير قادر، والآيات السابقة حجة عليهم ، فالله تعالي لم يشأ أن يبعث علي هذه الأمة عذابا من فوقها أو من تحتها فيهلكهم بسنة بعامة بل جعل بأسهم بينهم شديدا لحكمته البالغة فلذلك لم يشأه ومع ذلك تتعلق قدرته به فهو قادر عليه سبحانه .

فالمشية والقدرة تجتمعان في الشيء الموجود او الذي سيوجد ، وتنفرد القدرة بالممكن الذي لم يشأه فهو قادر عليه ، ولكن لم يشأ حدوثه بعد لحكمته البالغة ، وسبب مخالفة القدرية هنا أنهم يقولون أن ربهم غير قادر علي فعل العبد وأن الشر والمعاصي لا تحصل بمشيئته ، وأن العبد خالق فعل نفسه ، ومنهم فرقة تقول لا يقدر الشر ولا الخير فالقدرية فرق مختلفة متناحرة ، ولهذا السبب قالوا أنه غير قادر علي ما لم يرده شرعا ، فإنه نهي عن المعاصي ففعلها بعض عباده فيقول القدرية كان ما لم يرد الله فلم يقدر عليه ، وجهلوا أنه لم يرده شرعا ولكن أراده كونا وأراد حصوله كونا فهو قادر عليه وأذن بحصوله ولكن كونا لا شرعا ، فهو سبحانه قادر علي ما شاءه وما لم يشأه .

فإذا قيل إذا كان قادرا عليه فلماذا لم يوجد فنقول لأنه لم يشأ حدوثه فتعلق بالمشيئة هنا لا القدرة .

وفي ذلك قال ابن تيمية في تائية القدر :

وقدرته لا نقص فيها وحكمُه : يعمّ فلا تخصيصَ من ذي القضيةِ

أريدُ بذا أنَّ الحوادثَ كلها : بقدرته كانت ومحضِ المشيئةِ

ومالكنا في كل ما قد أراده : له الحمد حمدا يعتلي كل مدحة

وهو قادر سبحانه علي أفعال نفسه كما قال (بلي قادرين علي ان نسوي بنانه) ، وقوله (أليس ذلك بقادر علي أن يحيي الموتي) ، وقادر علي أفعال العباد كما سبق وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالي .

هل قدرة الله تتعلق بالمستحيلات

نقول إن القدرة التي هي صفة الله تتعلق بالممكنات إيجادا وعدما ، فالأشياء تنقسم إلي ثلاثة أقسام :

(واجبات ، ومستحيلات ، وجائزات أو ممكنات) والجائز هو ما يقبل الوجود والعدم ، أما الواجبات فهي التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء ولا عدم فذات الله سبحانه وصفاته وأسماؤه يقال فيها واجب الوجود ، فهو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء

وفي هذا قال ابن تيمية في تائية القدر :

وذات إله الخلق واجبة بما : لها من صفات واجبات قديمة

وأما المستحيل فهو ما لا وجود له، ولا يليق بالله أن يوجد ذلك لا عجزا ولكن لأن القدرة لا تتعلق بالمستحيلات ولا يليق بالله إيجادها .

فإن قيل هل الله قادر علي أن يخلق له شريكا ؟!!

نقول سبحان الله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ، إن قدرته لا تتعلق بالمستحيلات لأن المستحيل ليس بشيء ، وقد علق الله القدرة بالشيء دون غيره فقال (إن الله علي كل شيء قدير) والشيء هو ما يصح أن يعلم أو يؤول إلي العلم سواء كان من الأعيان والذوات أو كان من الصفات والأحوال ، فالممتنع لذاته أوالمستحيل ليس بشيء فمن العبث أن نقول أن الله قادر عليه أو ليس بقادر عليه لأن المستحيل ليس بشيء أصلا ولا يتصور وجوده .

فلفظة شيء لا تطلق علي المستحيل لأن المستحيل ليس بشيء ، وقدرة الله تتعلق بما شاءه وما لم يشأه فلا تتعلق بالمستحيلات ، أما الواجبات فالواجب لا يوصف بالإيجاد ولا بالإعدام ، فذات الله سبحانه وصفاته

الذاتية القديمة لا توصف بالإيجاد ولا بالإعدام ، إذن لا تتعلق قدرته بالواجبات لأنها ليست مخلوقة ولا تتعلق بالمستحيلات .

إذن فبم تتعلق القدرة ؟

بالجائزات والممكنات ، فما لا يخضع للإيجاد والإعدام كالواجبات لا تتعلق به القدرة ولا نقول غير قادر ، بل لا تتعلق به لأنه لا يليق بالله ، وما لا يقبل الإيجاد لكونه مستحيلا لا تتعلق به القدرة لا لأنه عاجز عن إيجادها بل لأن المستحيل ليس بشيء ، فنثبت القدرة وننفي ما لا يليق بالله .

فقد أخبر الله أنه على كل شي ء قدير

والناس في هذا على ثلاثة أقوال ، قال ابن تيمية في أوائل الجزء الثامن من المجموع :

"طائفة " تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين(والنقيضين) وكذلك يدخل في المقدور كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم.

و " طائفة " تقول: هذا عام مخصوص يُخصّ منه الممتنع لذاته؛ فإنه وإن كان شيئا فإنه لا يدخل في المقدور كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره.

وكلا القولين خطأ.

والصواب هو القول الثالث وهو قول اهل السنة الذي عليه عامة النظار وهو ما سبق شرحه

وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة

وإن كانوا متنازعين في المعدوم ، والصحيح أنه ليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب

فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج.

ولا يتصوره الذهن ثابتا في الخارج؛

ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج؛ إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان

وتصوره في الأذهان؛ إلا على وجه التمثيل: بأن يقال: قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد. كما تجتمع الحركة والسكون.

فيقال: هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه

وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل

فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان.

فلم يدخل في قوله: {وهو على كل شيء قدير}.

والطائفة الرابعة وهم القدرية أن قدرة الله عامة ويخص منها افعال العباد وسبق نقض مذهبهم وسياتي المزيد إن شاء الله تعالي .

بيان الفرق التي ضلّت في باب القدر وبيان مناهجهم ونقضها بالأدلة

ضل في باب القدر الجبرية والقدرية وهما علي طرفي نقيض ، والجبرية فرقتان والقدرية فرقتان كذلك الغلاة والمتوسطة ،وكلهم علي كفر وضلال وبدعة كما سيأتي إن شاء الله تعالي ، وقد جمعهم ابن تيمية في قوله في قصيدته (التائية حل المشكلة القدرية) فقال :

ويُدعَي خصومُ الله يومَ معادهم : إلي النار طُرّا معشرَ القدريةِ

سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا : به الله أو مارَوا به للشريعةِ

والنفاة هم القدرية المجوسية الذين نفوا مراتب القدر علي اختلافهم ، والساعون في خصومة الله سبحانه يعني بهم الجبرية أو المجبرة ويسميها بعضهم القدرية المشركية لأنهم شابهوا المشركين في قولهم (لو شاء الله ما أشركنا) محتجين بالقدر علي شركهم ومعاصيهم وسيأتي نقض ذلك ، وأما الممارون بالقدر فيعني بهم المصدقين بمراتب القدر مع إثبات مشيئة واختيار الإنسان وإرادته إلا أنهم يرون أن ذلك تناقضا ! وطعنوا في حكمة الله وعدله فهم خصماء الله تعالي وسماهم أهل العلم القدرية الإبليسية لأنهم أشبهوا إبليس في مقولته التي ذكرت في القران (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) .

أما الجبرية فقد غلوا في إثبات القدر وسلبوا العبد قدرته واختياره ، وقالوا أن العبد ليس له قدرة ولا اختيار وإنما هو مسير لا مخير كالشجرة في مهب الريح ولم يفرقوا بين فعل العبد الواقع باختياره وبين فعله الواقع بغير اختياره ولا شك أن هؤلاء ضالون لانه مما يعلم بالضرورة من الدين والعقل والعادة أن الإنسان يفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري .

وأما القدرية فإنهم غلوا في إثبات قدرة العبد واختياره حتي نفوا أن يكون لله تعالي مشيئة واختيار أو خلق فيما يفعله عبده ، وزعموا أن العبد مستقل بعمله ، حتي غلا طائفة منهم فقالوا إن الله تعالي لا يعلم أفعال العباد إلا بعد أن يقع منهم وهؤلاء غلوا وتطرفوا تطرفا عظيما .

1) الجبرية أو المجبرة ، وهم صنفان الغلاة الجهمية ، و الأشاعرة ومن لف لفهم ممن يثبتون للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا .

أما الغلاة وهم الجهمية وغلاة الصوفية ، فأثبتوا قدرة الله تعالي وغلوا في إثبات مرتبة الخلق حتي سلبوا العبد اختياره وقدرته فقالوا بـأن الإنسان لا اختيار له ولا قدرة وأنه مجبر علي كل شيء .

والجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز رأس الجهمية وإليه ينسبون وكان من بدعه نفي صفات الله عز وجل وأسمائه وأنها مخلوقة ، والقول بأن القران مخلوق ، والجبر ونفي الاستطاعة المقارنة وأن ربهم هو الفاعل حقيقة وهو جبر الغلاة ، والقول بفناء الجنة والنار ، والقول بالحلول ونفي علو الله فوق خلقه واستوائه علي عرشه ، وبأن الايمان هو مجرد المعرفة ، وقد مات جهم مقتولا علي يد سلم بن أحوز عام (128) ، وأخذ الجهم بدعته عن الجعد بن درهم الذي أخذها عن بيان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ساحر النبي صلي الله عليه وسلم ، قاتلهم الله ، والجعد هذا هو أول من قال ان الله لم يكلم موسي تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا وبأن القران مخلوق ونفي كذلك استواء الله سبحانه علي عرشه وحرف الاستواء بمعني الاستيلاء وقد قتله خالد القسري وضحي به يوم عيد الاضحي وقال(يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم فنزل وذبحه وذلك عام 124 هجريا.

قال الشهرستاني في الملل والنحل :

(سمي الجَبريَّة بذلك لأنهم يقولون: إن العبد مُجبر على أفعاله، ولا اختيار له، **وأن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى،** وأن الله سبحانه أجبر العباد على الإيمان أو الكفر).

وقال أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين :

(الجبر: هو إجبار الناس وإرغامهم على فعل شيءٍ من غير إرادةٍ أو مشيئة لهم، ويرى الجَبريَّة أن الناس لا اختيار لهم في أفعالهم، ولا قدرة لهم على أن يغيِّروا مما هم فيه شيئًا، **وإنما الأفعال لله سبحانه؛** فهو الذي يفعل بهم ما يفعلونه، وجعلوا هذا مطلقًا في جميع أفعالهم، **فإذا آمن العبد أو كفر فإن الإيمان أو**

الكفر الذي وقع منه، والطاعة أو المعصية، ليست فِعلَه إلا على سبيل المجاز، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه؛ لأن العبد لا يستطيع أن يغير شيئًا من ذلك) .

فالعبد عندهم مجبر علي كل شيء ، وحركاته كحركة الريشة ، في مهب الريح ، وكحركة الخشبة في البحر ، فإن الأمواج تتقاذفها وليس لها اختيار وكذلك الهواء يقلب الريشة وليس لها اختيار فالعبد كذلك ليس له اختيار عندهم، وإنما هو مفعول به في كل أحواله ، سواء كان مطيعا أو عاصيا ، فيصلي مجبورا ويصوم مجبورا ، ويسرق ويغش مجبورا ، ويزني مجبورا ، ويقولون أفعال الله غير معللة ، فقد يدخل إبليس الجنة ! علي معتقدهم فينفون الحكمة من فعل الله يقولون يفعل لمجرد الفعل والمشيئة ولا حكمة تقتضيها ، فقد يدخل آدم النار ، فلا تعليل عندهم في افعال الله فقد يعذب المطيع ويعطي الكافر الطاغوت ، فأفعال العبد هي كحركة أمعائهم لا اختيار لهم فيها ولا قدرة ، فعندهم الفعل فعل الله والكسب كسب الله كما سيأتي في مسألة الكسب في بيان منهج المتوسطين منهم وهذا هو الفرق بينهم وبين الجبرية المتوسطة يقولون أن الفعل والكسب لله ، أما المتوسطة فيقولون أن الكسب للإنسان والفعل لله سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا ، وعندالغلاة ليسن الإنسان بفاعل حقيقة فليس له فعل ولا كسب ، ولكن أضيف للعبد اقترانا ، فقط والفاعل حقيقة هو الله ، وغلوهم في مرتبة الخلق أن العبد ليس له فعل حقيقة ولا تصرف ولا كسب ، وفعل العبد هو فعل الله ، وهذا القول يؤدي إلي القول بوحدة الوجود وأن الخلق هم الله ، تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا .

أما الأشاعرة وهم الجبرية المتوسطة فقد حاولوا التوسط فلم يقلوا في الكفر عن الجهمية الغلاة ، والأشاعرة نسبة إلي أبي الحسن الأشعري ، نشأ علي مذهب المعتزلة وتتلمذ علي أبي عليّ الجبائي زوج أمه ، ومضي علي ذلك صدرا من حياته ثم ترك مذهبهم لفساد معتقد المعتزلة في القدر ثم سلك مذهب ابن كُلاّب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلي مذهب أهل الحديث وانتسب إلي الإمام أحمد وألف في مذهب أهل السنة كتابه الإبانة ، ورسائل الثغر ، والموجز ، ومقالات الإسلاميين ، إلا أنه ظلت معه بقايا من مذهب ابن كُلاّب ، والأشاعرة المنتسبون إليه في هذا العصر رغم توبته غلوا في الإيمان والصفات فنفوها إلا سبعة وحرفوها أيضا فإثباتهم لها ليس كإثبات أهل السنة ، وانتهجوا الجبر المتوسط المُسمّي بكسب الأشعري في القدر ، وأفسدوا مفهوم التوحيد والشهادة وفسّروها بالربوبية ، ويقولون عذاب القبر روحي لا بدني ومنهم من ينفيه أصلا ، وقالوا بخلق القران قولا أشد من قول الجهمية علي التحقيق ، ونفوا الرؤية ، وقالوا بقول المرجئة في الإيمان بل يضارعون الجهمية في مسائل ، إلي غير ذلك من الضلالات ،وكثير منهم يعتقد زيادة الإيمان ونقصانه وكذلك الاستثناء ولكن باعتبار الموافاة ، ولم يوافقوا اهل السنة في شيء من أبواب الاعتقاد إلا في الصحابة فقط ، ومنهم من يسب معاوية رضي الله عنهم ، وبهذا لم يوافقوا اهل السنة في جميع أبواب العقيدة ، والأشاعرة المعاصرون أسوا حالا من الأولين كما قال عنهم أهل العلم (الأشاعرة الإناث مخانيث المعتزلة) في الصفات والمعتزلة مخانيث الجهمية .

وهؤلاء متناقضون تناقضا عظيما حتي صار الناس يسخرون منهم كما سبق ، فهؤلاء غلوا في إثبات المشيئة مشيئة الله وقالوا بأن الإنسان ليس مجبرا علي كل حال ، وإنما هو مجبر باطنا لا ظاهرا يعني في الباطن مجبر ولا يتحرك بإرادته ولكن في الظاهر هي تصرفاته فيحاسب علي تصرفاته الظاهرة وأما الذي دفعه الحقيقة فهو أمر باطني مجبر عليه من الله سبحانه وهذا القول في الحقيقة مؤدّ للقول الأول قول الغلاة ، فالأشاعرة يقولون الكسب ظاهرا للإنسان والفعل لله باطنا ، وفرقوا بين الظاهر والباطن ، فربهم

فعل بالإنسان باطنا وأجبره باطنا ثم العبد كسب بنفسه ظاهرا ما أجبر عليه باطنا فالفعل فعل الله باطنا والكسب كسب العبد ظاهرا وهذا ضلال مبين .

فإنهم أثبتوا للإنسان قدرة ومشيئة وإرادة ولكنهاغيرمؤثرة اصلا لأنه مجبور عندهم باطنا فماذا يفيده ظاهره إذان !!! وقولهم يؤدي إلي قول من أبطل الباطل لأن العباد منهم السارق والزاني والعاصي وحاشاه أن تنسب هذا الأفعال إليه أنه أجبر العبد عليها ! أو يفعلها معبودهم بنفسه عند الغلاة .

فالجبرية المحضة غلوا في إثبات مرتبة الخلق فنسبوا الفعل حقيقة إلي معبودهم وكذلك الكسب ، وعند الأشاعرة يكسب الإنسان ظاهرا ما أجبر عليه باطنا ! .

وهذا ضلال أملاه عليهم إبليس فنعوذ بالله من انتكاس الفطر ، وتناقضهم ناشئ من تفرقتهم بين الكسب والفعل ولا فرق بينهما فكسب المرء هو عمله والكسب هو هو العمل والفعل بخلاف الجبرية الذين يفرقون بين الكسب والفعل ، فالغلاة منهم جعلوا الكسب والفعل لله وأما المتوسطة فجعلوا الفعل لله والكسب للعبد وهذا تناقض إذ إن الكسب هو الفعل ولا فرق في اللغة وفي الشرع ، ولذلك سموا نفاة الاسباب .

والعلاقة بين معتقدهم الفاسد ونفي الأسباب أنهم أحالوا بواطن الأمور إلي الله واعتقدوا الجبر الباطن ، وبما أن معبودهم هو المحرك حقيقة في الباطن والتنفيذ من العبد في الظاهر فنفوا تأثير الاسباب لأن محدث الفعل هو معبودهم في الحقيقة ، وسبب نفيهم ذلك التنزيه عن الاحتياج وهذه شبهة صلعاء يأتي نقضها ضمن الردود علي شبهاتهم .

ولذلك يقولون إذا جامع الإنسان زوجته فحملت لم يحصل الحمل بالجماع وإنما أحدث الله الحمل عند التقاء الرجل بالمرأة يعني أن معبودهم يفعل ((عند)) وجود السبب لا لكونه سببا ، والنبات ينمو عند وجود الماء لا بسبب الماء فليس من خصائص الماء الإنبات ، ويقطع ربهم الخبز عند إمرار السكين عليه لا لأن السكين سبب في القطع !! ، وهذا مؤدي قولهم في مسألة التسلسل والأثر والمؤثر والعلة والمعلول

وقد أطال ابن القيم الرد علي نفاة التعليل في كتابه شفاء العليل وعقد له بابا خاصا فارجع إليه إن شئت .

أدلة أهل الضلال من الجبرية والرد عليهم

استدلوا بمتشابه القرآن كقوله تعالي (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي) ، وقوله تعالي (والله خلقكم وما تعملون) ، وقوله تعالي (الله خالق كل شيء) ، نظروا بنظر الأعور إلي النصوص ولم يضموا إليها غيرها من النصوص التي أثبت الله فيها مشيئة العبد وأن له إرادة وقدرة واختيارا .

والردّ عليهم من وجوه :

1) الرد علي غلاة الجبرية من الجهمية في أن الإنسان غير فاعل حقيقة يرده الشرع وترده اللغة ويرده العقل وترده الفطر السليمة

قال ابن تيمية في جزءالقدر من مجموع الفتاوي :

(المعنى إذا قام بمحل عاد حكمه على ذلك المحل، واشتُقّ لذلك المحل منه اسم، ولم يشتق لغيره منه اسم وعاد حكمه على ذلك المحل، ولم يعد على غيره، كما أن الحركة والسواد والبياض، والحرارة والبرودة إذا قامت بمحل كان هو المتحرك الأسود الأبيض الحار البارد، دون غيره. قالوا: فكذلك الكلام والإرادة، إذا قاما بمحل كان ذلك المحل هو المتكلم المريد، دون غيره، قالوا: فلا يكون المتكلم متكلماً إلا بكلام يقوم به، ولا مريداً إلا بإرادة تقوم به، وكذلك لا يكون حياً عالماً قادرا، إلا بحياة وعلم وقدرة تقوم به، وطرد هذا أنه لا يكون فاعلا، إلا بفعل يقوم به)انتهي .

وقد أسند الله كثيرا من الأفعال إلي العباد كقوله تعالي (وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، وقوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين علي ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وغيرها من الآيات الكثيرة نسب الله فيها الأفعال إلي العباد من الصلاة والزكاة والإنفاق وغيرها ،

فالإنسان هو المصلي و المنفق والمزكي لا غيره ويشتق من هذه الأفعال وغيرها له اسم لا يقصد به غيره ، خلافا للجهمية في قولهم المنكر .

قال ابن أبي عاصم في السنة :

(وأفعال العباد من الخير والشر فعل لهم خلق لخالقهم)

وقال الطبري في قوله تعالي (ويصنع الفلك) : ويصنع نوح السفينة .

وقال قوام السنة الأصبهاني أبو القاسم التيمي في كتابه (الحجة في بيان المحجة) :

(**أفعال العباد ليست بفعل الله** ، وإنما هي مخلوقة له ، والخلق غير المخلوق ، فالخلق صفة لذاته ، والمخلوق محدث) انتهي كلامه .

فالخلق غير المخلوق ، فلا يكون فعل المخلوق فعلا للخالق ، وإلا لصار الخالق والمخلوق سواء .

وقد بوّب البخاري في صحيحه قائلا :

(باب ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره فالرب بصفاته وفعله وأمره وكلامه وهو الخالق المكون غير مخلوق وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون) .

وقال في كتابه (خلق أفعال العباد) :

(الفعل إنما هو إحداث الشيء، والمفعول هو الحدث، لقوله: "خلق السماوات والأرض"، فالسموات والأرض مفعوله، وكل شيء سوى الله بقضائه فهو مفعول، فتخليق السماوات فعله، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله، ففعله من ربوبيته حيث يقول: كن فيكون، وال "كُن" من صفته وهو الموصوف به لذلك قال: رب السماوات، ورب الأشياء، وقال النبي صلى

الله عليه وسلم: "رب كل شيء ومليكه"... فالفعل صفة والمفعول غيره، وبيان ذلك في قوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم"، ولم يرد بخلق السماوات السماوات نفسها، وقد ميز فعل السماوات من السماوات، وكذلك فعل جملة الخلق، وقوله: "ولا خلق أنفسهم" وقد ميَّز الفعلَ والنفسَ، ولم يصيِّر فعلَه خلقاً ... وقال أهل العلم: التخليق فعل الله، وأفاعيلنا مخلوقة لقوله تعالى: "وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق"، يعني السر والجهر من القول، ففعل الله صفة الله والمفعول غيره من الخلق) **انتهي كلامه – رحمه الله - .**

وأما قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} فليس فيه أن الله هو الفاعل حقيقة ، بل الصنع فعل العبد ومفعول لله تعالي مباين له ، فإنه كما سبق أن أهل السنة يفرقون بين الفعل والمفعول والجعل والمجعول ونحو ذلك ، فأفعال العباد لا تخرج عن خلق الله ، لكن الذي تقوم به ويتصف بها هو العبد نفسه ، وعليه فهل تصرفات العبد فعل لله؟ نقول إن اردنا بالفعل الفعل القائم به سبحانه فهذا باطل وشرك فليس هو سبحانه الذي جعل ذلك بيده بل العبد هو الذي باشر ذلك ، وإن أردنا بالفعل المفعول فهذا حق فأفعال العباد مفعولة مخلوقة لله تعالي .

فإنه أخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة ، ولكن مادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيآتها ،والإنسان هو الذي صنعها بيده ، فالصنع فعل قائم بالعبد ، مفعول لله تعالي بخلقه إرادتَه وقدرتَه علي ذلك وبربطه الأسباب بالمسببات بمشيئته وإذنه ، فالأمر كله لله أولا وآخرا وهو الذي ربط السبب بالمسبب وجعله مؤثرا فيه ، فقدرة العبد علي الصنع وإرادته له لا تعدو كونها مؤثرة في الحدوث لا مستقلة فيه ، وليست هي بفعل الله أيضا سبحانه وتعالي .

وكذا نقول في كل سبب ومسبب ، فالماء فيه خاصية الإنبات ، فالماء ينبت والثمر يثمر بالماء لا مع وجود الماء خلافا للجبرية الذين نفوا الاسباب والعلل والحكمة من أفعال الله ، ففي ذلك رد علي من يقول منهم كيف تقولون ينبت النبات بالماء بإرادة الله فنقول لا تعارض أبدا فالله خلق السبب والمسبب وجعلها بينهما تاثيرا بإذنه ، فالماء فيه خاصية الإنبات بإذن الله فليس معني ذلك أن الله ينبت مع وجود الماء اقترانا بل الله ينبت بالماء الذي خلق فيه خاصية الإنبات ، فنثبت كون الماء سببا في الإنبات وفيه خاصية الإنبات مع كون ذلك لن يقع إلا بإذن الله ، فالله خالق الماء وخالق النبات وربط سبب الإنبات - الذي هو الماء - بإخراج النبات ، وكلاهما مخلوق لله تعالي ، وقد ضلت الجبرية في فهم هذا وقالوا إذن الله هو الذي ينبت النبات عند وجود الماء لا به فنقول قد ربط الله السبب بالمسبب وجعل خروج الفعل من العدم إلي الوجود بتوسط السبب المُحدَث .

وعليه ففيه قوله تعالي (ويصنع الفلك) ، وقوله (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) فالفلك الله خالقه فهو مفعول لله وأما إضافته لنوح فلأنه هو الفعل القائم به ونوح المباشر له ، و إرادته وقدرته علي الصنع مخلوقة والسبب والمسبب مخلوقان وربطهما الله بإذنه فنوح وما صنع مخلوق لله تعالي .

فبالجملة :

أفعال العباد مفعولة لله تعالي ، وليست هي فعله سبحانه ، ولهذا هي قائمة بالعبد لا بالله ، فالله لا يتصف بمفعولاته ، وإنما يتصف بفعله ، وافعال العبد الاختيارية خلقها الله بتوسط قدرة العبد ومشيئته بخلاف أفعاله الاضطرارية .

قال ابن تيمية (111/2) :

[والتحقيق ما عليه أئمة السنة وجمهور الأمة، من الفرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة مفعولة لله، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعولة لله، وليس ذلك نفس خلقه وفعله، بل هي مخلوقة ومفعولة، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به ليست قائمة بالله ولا يتصف بها؛ فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته، وإنما يتصف بخلقه وفعله كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته، والعبد فاعل لهذه الأفعال، وهو المتصف بها، وله عليها قدرة وهو فاعلها باختياره ومشيئته، وذلك كله مخلوق لله، فهي فعل العبد وهي مفعولة للرب.

لكن هذه الصفات لم يخلقها الله بتوسط قدرة العبد ومشيئته، بخلاف أفعاله الاختيارية؛ فإنه خلقها بتوسط خلقه لمشيئة العبد وقدرته، كما خلق غير ذلك من المسببات بواسطة أسباب أخر، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع، ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة والله أعلم] انتهي كلامه .

وقال ابن تيمية أيضا في المجموع (8/ 389) :

(هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرة في وجود فعله؟ فإن كانت مؤثرة لزم الشرك، وإلا لزم الجبر، والمقام مقام معروف، وقف فيه خلق من الفاحصين والباحثين والبصراء والمكاشفين، وعامتهم فهموا صحيحًا ولكن قل منهم من عبر فصيحًا.

فنقول: التأثير اسم مشترك قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع، فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة، فحاشا لله لم يقله سنى، وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال.

قلت : يعني إن أريد أن قدرة العبد مؤثرة باستقلال عن قدرة الله فهذا باطل .

ثم قال : وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة. كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركا – يعني لأن الله هو الذي ربط السبب بالمسبب - وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركًا، وقد قال الحكيم الخبير: {فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} ، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ الله بِأَيْدِيكُمْ}.

فبين أنه المعذب، وأن أيدينا أسباب وآلات وأوساط وأدوات في وصول العذاب إليهم، وقال ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا آذنتموني حتى أصلي عليه، فإن الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة». فالله سبحانه هو الذي يجعل الرحمة، وذلك إنما يجعله بصلاة نبينا ﷺ ... وإذا أشكل عليك هذا البيان فخذ مثلا من نفسك، أنت إذا كتبت بالقلم وضربت بالعصا ونجرت بالقدوم. هل يكون القلم شريكك أو يضاف إليه شيء من نفس الفعل وصفاته؟ أم هل يصلح أن تلغي أثره وتقطع خبره وتجعل وجوده كعدمه؟ أم يقال: به فعل وبه صنع ولله المثل الأعلى فإن الأسباب بيد العبد ليست من فعله وهو محتاج إليها لا يتمكن إلا بها، والله سبحانه خلق الأسباب ومسبباتها، وجعل خلق البعض شرطًا وسببًا في خلق غيره، وهو مع ذلك غني عن الاشتراط والتسبب، ونظم بعضها ببعض، لكن لحكمة تتعلق بالأسباب، وتعود إليها والله عزيز حكيم.

وأما قوله: إذا نفينا التأثير لزم انفراد الله سبحانه بالفعل، ولزم الجبر، وطي بساط الشرع الأمر والنهي.

فنقول: إن أردت بالتأثير المنفي، التأثيرعلى سبيل الانفراد في نفس الفعل، أو في شيء من صفاته، فلقد قلت الحق، وإن كان بعض أهل الاستنان يخالفك في القسم الثاني.

وإن أردت به أن القدرة وجودها كعدمها، وإن الفعل لم يكن بها ولم يصنع بها، فهذا باطل كما تقدم بيانه، وحينئذ لا يلزم الجبر بل ينبسط بساط الشرع، وينشر علم الأمر والنهي، ويكون لله الحجة البالغة.

فقد بان لك أن إطلاق القول، بإثبات التأثير أو نفيه دون الاستفصال، وبيان معنى التأثير ركوب جهالات واعتقاد ضلالات، ولقد صدق القائل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وبان لك ارتباط الفعل المخلوق بالقدرة المخلوقة، ارتباط الأسباب بمسبباتها، ويدخل في عموم ذلك جميع ما خلقه الله تعالى في السموات والأرض والدنيا والآخرة، فإن اعتقاد تأثير الأسباب على الاستقلال، دخول في الضلال، واعتقاد نفي أثرها وإلغاؤه ركوب المحال، وإن كان لقدرة الإنسان شأن ليس لغيرها) انتهي كلامه .

وحاول الأشاعرة التوسط بين قول الجهمية الجبرية وقول المعتزلة القدرية فاخترعوا القول بالكسب للإنسان فرارا من قول الجهمية ، إلا أن الإنسان عندهم مجبر باطنا ومفعول به فهو فاعل في الظاهر مفعول به في الباطن فأثبتوا قدرة للعبد غير مؤثرة أصلا فرارا منهم – بزعمهم – من قول القدرية ، و عليه نفوا الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والأثر والمؤثر وإنما يقترن حدوث الشيء بفعل العبد وليس له في حدوثه أثر وإنما الفاعل حقيقة غيره **!**، قال شارح أم البراهين: "والكسب مقارنة القدرة الحادثة للفعل من غير تأثير"

وعليه فالقدرة التي أثبتوها غير مؤثرة اصلا إنما العبد مجبر باطنا مفعول به علي ما يحاول فعله ظاهرا ولهذا صرح التفتازاني بفساد هذا المعتقد فقال"فالإنسان مضطر في صورة المختار" ، وقال الرازي

مستشكلا هذا المعتقد "وعند هذا التحقيق يظهر أن الكسب اسم بلا مسمى" ! ، وقال الآمدي في ابكار الافكار" أما أن القدرة الحادثة غير مؤثرة في حدوث مقدورها ، فقد استدل عليه الأصحاب بمسالك ضعيفة "

والحق أن كسب العبد هو نفس فعله وصنعه ، وأن فعل العبد خلق لله عز وجل وكسب للعبد لا كسب غيره ، وقول الأشاعرة الجبرية المتوسطة مردود لعدة أمور ، منها :

1. أن اللغة ترده فإن الكسب لا يأتي في اللغة إلا بمعني الجمع والطلب ، قال تعالي (ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) ، ولا يأتي بمعني الاقتران الذي ابتدعوه ، والذي فيه جبر للعبد وإثبات قدرة له غير مؤثرة فلم يخرجوا من القول بالجبر بقولهم ، غير أن فيه إلغاء لسنن الله الكونية من نفي تأثير الأسباب والعلل والمؤثرات بإذن الله .

2. لا يلزم من إثبات ذلك أن تكون الاسباب هي الخالقة حتي ينفوها ويفروا بذلك من قول القدرية من أن الإنسان خالق فعل نفسه ، بل نقول فيها ما قلنا في خلق افعال العباد وإراداتهم وقدرهم وهم مع ذلك مخيرون مختارون مريدون لا مجبرون ، وكون الله خالقا لأفعالهم لا يستلزم جبرا ابدا ، وكون العباد لن يفعلوا ما اختاروه لأنفسهم من خير أو شر إلا بإذن الله وإرادته الكونية لا يستلزم جبرا أيضا ، أرأيت لو أن والدا خير ولده بين طريقين أحدهما خير له والآخر شر واختار الولد أحد الطريقين بمحض إرادته واختياره فأذن له أبوه أفيعد أبوه مجبرا له ! كلا ، ولله المثلي الأعلي في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، فإن الله وهب للعبد سمعا وبصرا وعقلا وأرسل رسلا وأنزل كتبا وأقام الحجة علي العباد فإذا اختاروا خيرا يسره لهم بفضله ورحمته ، وإذا اختاروا شرا يسره لهم بعدله وحكمته فقد قدم إليهم بالوعيد فلا عذر ولا جبر .

3. أن قولهم مؤداه إلى القول بتكليف العاجز ؛ لأنه مجبر باطنا علي ما يحاول تحصيله ظاهرا وهو حاصل لا بفعله بل بفعل غيره لأنهم ينفون تاثير الأسباب في المسببات ، وعليه فلن يتأثر بعجزه ، ولن يكون عجزه مانعا من تكليفه إذ ليس هو الفاعل حقيقة بل الفاعل غيره بالاقتران ! سبحان الله وتعالي عما يصفون .

4. أن قولهم في إثبات قدرة غير مؤثرة بشهادتهم هم كما سبق من كلام ائمتهم إنما هو مجرد تمويه وتلبيس علي العوام حتي تنفق بدعتهم بالجبر الباطني ، ويأبي الله ذلك ورسوله والمؤمنون ؛ إذ إنهم أرادو بذلك الهروب من قول الجهمية المجبرة ، وفي الحقيقة لا يزالون في حمأة الجبر إذ ما فائدة قدرة الإنسان غير المؤثرة وهو مفعول به مُحرَّك باطنا أصلا ، وإذا حصل ما أجبر علي فعله بقدرته الصورية هذه فبالاقتران لا بالقدرة .

2) و استدلالُهم بالآيات التي أثبتت فيها مشيئة الله أخذ بالمتشابه وهذه عادة أهل الزيغ واستدلالاتهم عامة مُعارَضة بنصوص كثيرة أثبتت فيها مشيئة العبد وإرادته كقوله تعالي (اعملوا ما شئتم) ، وقوله تعالي (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) وقوله تعالي (لمن شاء منكم أن يستقيم) .

وقوله تعالي (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) لا يدل علي أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري ولا أنه ليس بقادر عليه ولا أنه ليس بمريد ، بل يدل علي أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله يعني لن يفعل ما اختاره لنفسه من خير أو شر ولو تحققت فيه القدرة عليه وإرادته إلا بمشيئة الله ولو شاء ما أقدره عليه فالله قادر علي فعله ، وإن قيل كيف نجمع بين كون العبد مختارا لما يفعل قادرا عليه وكونه لن يفعل ما اختار إلا بمشيئة الله وإرادته أليس هذا جبرا ؟ فنقول كلا ، بل الله عز وجل أقدر من اختار الخير علي فعله ، واقدر من اختار الشر علي فعل الشر ، ولو شاء لمنعهم ولكنه سبحانه قدم إليهم بالوعد والوعيد وأقام الحجة عليهم وكل محاسب علي عمله الذي اختاره وأراده .

قال ابن تيمية في التائية :

فـلـيـس بـمـجـبـورٍ عـديـمِ الإرادةِ *** ولـكـنّـه شـاءٍ بـخـلـقِ الإرادةِ

ومـن أعـجـب الأشـيـاء خـلقُ مـشيئةِ *** بـهـا صـار مـخـتـارَ الـهـدى والـضّلالةِ

وهذه الآية رد علي الطائفتين المجبرة الجهمية والمعتزلة القدرية ، فإنه قال لمن شاء منكم أن يستقيم ، فأثبت للعبد مشيئة وفعلا ، ثم قال (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله ، والأولي رد علي الجبرية وهذه رد علي القدرية الذين يقولون قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون إن الله يشاء ما لا تشاؤون .

3) وأما استدلالهم بقوله تعالي (والله خلقكم وماتعملون) فهو حجة عليهم أيضا لا لهم لأن الله أثبت للإنسان عملا ، وهذا رد علي الجبرية الغلاة ، وأما كونه سبحانه خالق فعل العبد فسيأتي بيانه في الرد علي القدرية ، وقد سبق أول الباب في بيان مرتبة الخلق .

4) وأما قوله تعالي (وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمي) ، فهو حجة عليهم أيضا لا لهم لأن الله سبحانه أضاف الرمي إلي النبي صلي الله عليه وسلم ، فالرمي له معنيان : حذف المَرميّ وهو من فعل النبيّ صلي الله عليه وسلم ، وإيصال المرمي وهو من فعل الله ، فأثبت له الحذف بقوله تعالي (إذ رميت) ونفي عنه الإيصال في قوله (وما رميت) .

5) أنه لوقيل كما قال الغلاة إن الله هو الذي يفعل حقيقة لا الإنسان فيلزم من ذلك لوازم باطلة ، كأن يقال وما صليت إذ صليت ولكن الله صلي **!!** سبحانه ، وهكذا في سائر الأفعال القبيحة وسبحانه الله وتعالي عما يقولون علوا كبيرا , والقول إذا كان يلزم منه لوازم باطلة فهو باطل ، وكذلك المتوسطون منهم من الاشاعرة يلزمهم القول بأن معبودهم أجبر عباده علي المعاصي والفواحش باطنا **!!**

6) وعلي هذا فالقول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس والإجماع

فمن الكتاب آيات تثبت للعبد مشيئة وإرادة وفعل كقوله تعالي (اعملوا ما شئتم) وقوله تعالي (منكم من يريد الدنيا ومنكن من يريد الآخرة) ، والجبرية الذين أرادوا أن يتوسطوا فخابوا وضلوا وهم الاشاعرة يقولون نعم له مشيئة ولكن الله هو الفاعل بذاته لا السبب والله هو المحرك له باطنا لما يفعل ظاهرا ،

فإرادة الإنسان التي اثبتوها غير مؤثرة اصلا وأيضا تسميتهم للأسباب اسبابا مجاز عندهم وإلا ففي الحقيقة لا تاثير لها ، لذا فهم نفاة مشيئة العبد واختياره لأنها غير مؤثرة .

ومن السنة كقوله صلي الله عليه وسلم (ما أمرتكم بأمر فأتوا به ما استطعتم وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) ، وغيره من الأحاديث التي يثبت فيها للإنسان إرادة وقدرة واختيارا ومشيئة .

وأما الإجماع فلم ينقل عن السلف أن أحدا قال بذلك بل ردوه وأنكروه .

وأما العقل فلو كان العبد مجبرا لكانت عقوبة العاصي ظلما ، ومثوبة الطائع عبثا ، والله تعالي منزه عن هذا وهذا ، وقد اقام الله تعالي الحجة علي خلقه برسله وكتبه ، وما كان الله ليقيم الحجة عليهم مع انتفاء كونها حجة ، وهذا ينزه عنه الجكيم الخبير ، فمن عرف صفات الله تعالي وعلم حكمته ، فإن القول بالجبر في حقيقة الأمر إبطال للتكاليف ، أو رجوع إلي أفعال الله بأنها لعب ، ولا حكمة فيها ، ولا تُوافقُ غايات محمودة ، والله تعالي منزه عن ذلك كله ، وقد قال تعالي (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد) فبيّن سبحانه أن العقاب لهم ليس ظلما بل هو كمال العدل ، لأنه قدّم إليهم بالوعيد وبيّن لهم الطرق ، وبين لهم الحق ، وبين لهم الباطل ، ولكنهم اختاروا لأنفسهم أن يسلكوا طريق الباطل فلم يبق لهم حجة عند الله عز وجل ، ولو قلنا بهذا القول الباطل لبطل قوله تعالي (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل) فإن الله تعالي نفي ان يكون هناك حجة بعد إرسال الرسل لأنهم قامت عليهم الحجة بذلك ، فلو كان القدر حجة لهم لكانت هذه الحجة باقية حتي بعد إرسال الرسل لأن قدر الله تعالي لم يزل ولا يزال موجودا قبل إرسال الرسل وبعد إرسال الرسل ، إذن فهذا القول تبطله النصوص ويبطله الواقع .

وأما رد قول الجبرية بدلالة الحس فذلك لدلالة الحس علي بطلان القول بالجبر لأن الإنسان يدرك ما يفعله اختيارا وما كان بغير اختيار كارتعاشة البرد ونحوه مما ليس لأحد من عباد الله فيها مشيئة ولا يتعلق بها ثواب ولا عقاب ، فإن الأفعال التي يحدثها الله تعالي في الكون تنقسم إلي قسمين :

الأول : ما يجريه الله تعالي من فعله في مخلوقاته كالإحياء والإماتة والمرض والصحة وغير ذلك مما ليس لأحد فيها مشيئة وإنما المشيئة فيها لله تعالي الواحد القهار .

الثاني : ما تفعله الخلائق كلها فهذه تكون باختيارهم وإرادتهم .

وكلنا يعلم الفرق بين القسمين بين ما يقع باختيار العبد وما يقع باضطرار وإجبار .

فالمرء يعلم الفرق بين نزوله علي السلم باختياره ، وبين سقوطه هاويا من السطح ، ويعلم الفرق بين الفعلين ، فالاول اختيار والثاني إجبار .

قال الشيخ ابن عثيمين في رسالته الموجزة النافعة في القدر : لم يفرقوا بين العبد الواقع باختياره وبين فعله الواقع بغير اختياره. ولا شك أن هؤلاء ضالون لأنه ما يعلم بالضرورة من الدين والعقل والعادة أن الإنسان يفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري.

القسم الثاني: غلوا في إثبات قدرة العبد واختياره حتى نفوا أن يكون الله تعالى مشيئة أو اختيار أو خلق فيما يفعله العبد وزعموا أن العبد مستقل بعمله حتى غلا طائفة منهم فقالوا أن الله تعالى لا يعلم بما يفعله العباد ألا بعد أن يقع منهم وهؤلاء أيضا غلوا وتطرفوا تطرفا عظيما في إثبات قدرة العبد اختياره.

القسم الثالث: وهم الذين آمنوا فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق وهم أهل السنة والجماعة سلكوا في ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعي وعلى الدليل العقلي وقالوا: أن الأفعال التي يحدثها الله تعالى في الكون تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يجريه الله ـ تبارك وتعالى من فعله في مخلوقاته فهذا لا اختيار لأحد فيه كإنزال المطر وانبات الزرع والأحياء والإماتة والمرض والصحة وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تشاهد في مخلوقات الله تعالى وهذه بلا شك ليس لأحد فيه اختيار وليس لأحد فيها المشيئة فيها لله الواحد القهار.

القسم الثاني: ما تفعله الخلائق كلها من ذوات الإرادة فهذه الأفعال تكون باختيار فاعليها وأرادتهم لان الله تعالى جعل ذلك إليهم قال الله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} وقال تعالى: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ} وقال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختياره وبين ما يقع منه باضطرار واجبار فالإنسان ينزل من السطح بالسلم نزولاً اختيارياً يعرف انه مختار ولكنه يسقط هاوياً من السطح يعرف انه ليس مختاراً لذلك ويعرف الفرق بين الفعلين وان الثاني إجبار والأول اختيار وكل إنسان يعرف ذلك.

وكذلك الإنسان يعرف انه إذا أصيب بمرض سلس البول فالبول يخرج منه بغير اختياره وإذا كان سليما من هذا المرض فان البول يخرج منه باختياره. ويعرف الفرق بين هذا وهذا ولا أحد ينكر الفرق بينهما. وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختياراً وبين ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختياراً وبين ما يقع اضطراراً وإجباراً بل إن من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو باختيار العبد ولكن لا يلحقه به إثم كما في فعل الناسي) انتهي .

7) ومما استدلوا به علي الجبر والاحتجاج بالقدر علي المعصية حديث آدم و موسي

ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي ﷺ فحج آدم موسى فحج آدم موسى فحج آدم موسى" وفي رواية "كتب لك التوراة بيده" وفي لفظ آخر: "تحاج آدم وموسى فحج آدم موسى فقال له موسى أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم أنت موسى الذي أعطاه

الله علم كل شيء واصطفاه على الناس برسالته قال نعم قال أفتلومني على أمر قدر عليّ قبل أن أُخلق"، وفي لفظ آخر: "احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى فقال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض قال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم هل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى"، وفي لفظ آخر: "احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت الذي أخرجتنا خطيئتك من الجنة" وذكر الحديث وهو **متفق عليه** .

وقد رد هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة وهم قدرية ظنوا ان الحديث دليل علي الجبر فردوه وهذا من قلة فهمهم وسوء معتقدهم ، كأبي علي الجبائي ومن وافقه على ذلك وقال لو صح لبطلت نبوات الأنبياء فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي فإن العاصي بترك الأمر أو فعل النهي إذا صحت له الحجة بالقدر السابق ارتفع اللوم عنه وهذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته فإن هذا حديث صحيح متفق على صحته لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبيها قرنا بعد قرن وتقابله بالتصديق والتسليم ورواه أهل الحديث في كتبهم وشهدوا به على رسول الله ﷺ أنه قاله وحكموا بصحته فما لأجهل الناس بالسنة ومن عرف بعداوتها وعداوة حملتها والشهادة عليهم بأنهم مجسمة ومشبهة حشوية وهذا الشأن ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله ﷺ التي تخالف قواعدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة كما ردوا أحاديث الرؤية وأحاديث علو الله على خلقه وأحاديث صفاته القائمة به وأحاديث الشفاعة وأحاديث نزوله إلى سمائه ونزوله إلى الأرض للفصل بين عباده وأحاديث تكلمه بالوحي كلاما يسمعه من شاء من خلقه حقيقة إلى أمثال ذلك وكما ردت الخوارج والمعتزلة أحاديث خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وغيرها وكما ردت الرافضة أحاديث فضائل

الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة وكما ردت المعطلة أحاديث الصفات والأفعال الاختيارية وكما ردت القدرية المجوسية أحاديث القضاء والقدر السابق وكل من أصل أصلا لم يؤصله الله ورسوله قاده قسرا إلى رد السنة وتحريفها عن مواضعها فلذلك لم يؤصل حزب الله ورسوله أصلا غير ما جاء به الرسول فهو أصلهم الذي عليه يعولون وجنتهم التي إليها يرجعون .

ثم اختلف الناس في فهم هذا الحديث ووجه الحجة التي توجهت لآدم على موسى كما في شفاء العليل

فقالت فرقة إنما حجه لأن آدم أبوه فحجه كما يحج الرجل ابنه وهذا الكلام لا محصل فيه البتة فإن حجة الله يجب المصير إليها مع الأب كانت أو الابن أو العبد أو السيد ولو حج الرجل أباه بحق وجب المصير إلى الحجة .

وقالت فرقة إنما حجه لأن الذنب كان في شريعة واللوم في شريعة وهذا من جنس ما قبله إذ لا تأثير لهذا في الحجة بوجه وهذه الأمة تلوم الأمم المخالفة لرسلها المتقدمة عليها وإن كان لم تجمعهم شريعة واحدة ويقبل الله شهادتهم عليهم وإن كانوا من غير أهل شريعتهم .

وقالت فرقة أخرى إنما حجه لأنه كان قد تاب من الذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ولا يجوز لومه وهذا وإن كان أقرب مما قبله فلا يصح لثلاثة أوجه :

أحدها: أن آدم لم يذكر ذلك الوجه ولا جعله حجة على موسى ولم يقل أتلومني على ذنب قد تبت منه،

الثاني: أن موسى أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره سبحانه أنه قد تاب على فاعله واجتباه بعده وهداه فإن هذا لا يجوز لآحاد المؤمنين أن يفعله فضلا عن كليم الرحمن.

الثالث: أن هذا يستلزم إلغاء ما علق به النبي ﷺ وجه الحجة واعتبار ما ألغاه فلا يلتفت إليه

وقالت فرقة أخرى إنما حجه لأنه لامه في غير دار التكليف ولو لامه في دار التكليف لكانت الحجة لموسى عليه وهذا أيضا فاسد من وجهين أحدهما: أن آدم لم يقل له لمتني في غير دار التكليف وإنما قال

أتلومني على أمر قدر عليّ قبل أن أخلق فلم يتعرض للدار وإنما احتج في القدر السابق الثاني أن الله سبحانه يلوم الملومين من عباده في غير دار التكليف فيلومهم بعد الموت ويلومهم يوم القيامة

وقالت فرقة أخرى وهم الجبرية إنما حجه لأن آدم شهد الحكم وجريانه على الخليقة وتفرد الرب سبحانه بربوبيته وأنه لا تحرك ذرة إلا بمشيئته وعلمه وأنه لا راد لقضائه وقدره وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن قالوا ومشاهدة العبد الحكم لا يدع له استقباح سيئة لأنه شهد نفسه عدما محضا والأحكام جارية عليه معروفة له وهو مقهور مربوب مدبر لا حيلة له ولا قوة له قالوا ومن شهد هذا المشهد سقط عنه اللوم ، ويقول أنا وإن عصيت أمره فقد أطعت إرادته ومشيئته ويقول العارف لا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله في القدر .

واعلم – بارك الله فيك – أن الاحتجاج بالقدر علي المعاصي من أخطر ما يكون من الشبه علي دين المسلم ، وهؤلاء الجبرية المحتجون شر من القدرية ، وهم الأشاعرة في هذا العصر

كما قال ابن تيمية (100/8) :

(والمقصود هنا أن من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور، والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء، وموسى وفرعون سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء.

وهذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف والزهد والعبادة، لا سيما إذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير إثبات المحبة والبغض والرضى والسخط، الذين يقولون: التوحيد هو

توحيد الربوبية، والإلهية عندهم هي القدرة على الاختراع، ولا يعرفون توحيد الإلهية، ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود. وأن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيدًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} ، قال عكرمة: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره، وهؤلاء يدعون التحقيق والفناء في التوحيد، ويقولون: إن هذا نهاية المعرفة، وإن العارف إذا صار في هذا المقام لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة، وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام

الذين قال الله عنهم: {قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ} ، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ. الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله قُلْ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} ، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلْ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} ، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} ، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ. فَذَلِكُمْ الله رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ. كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ الله يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ. قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} ، **وقال تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ الله قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ} .**

فإن هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم، وبيده ملكوت كل شيء، بل كانوا مقرين بالقدر أيضا فإن العرب كانوا يثبتون القدر في الجاهلية، وهو معروف عنهم في النظم والنثر، ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له، بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرًا من اليهود والنصارى، فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين.

وهذا المقام مقام وأي مقام ! زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وبدل فيه دين المسلمين، والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الأصنام، على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام.

ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله أن المعتزلة والشيعة القدرية المثبتين للأمر والنهي، والوعد والوعيد خير ممن يسوى بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي الصادق، والمتنبئ الكاذب، وأولياء الله وأعدائه، ويجعل هذا غاية التحقيق، ونهاية التوحيد، وهؤلاء يدخلون في مسمى القدرية الذين ذمهم السلف، بل هم أحق بالذم من المعتزلة ونحوهم، كما قال أبو بكر الخلال في كتاب السنة:

الرد على القدرية، وقولهم إن الله أجبر العباد على المعاصي، وذكر عن المروذي قال: قلت لأبي عبد الله: رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا تقول، وأنكر ذلك، وقال: {يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وذكر عن المروذي رجلا قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي.، فرد عليه آخر فقال: إن الله جبر العباد أراد بذلك إثبات القدر فسألوا عن ذلك أحمد ابن حنبل، فأنكر عليهما جميعًا؛ على الذي قال: جبر، وعلى الذي قال: لم يجبر حتى تاب، وأمر أن يقال: {يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} . الخلال وغيره من أهل العلم أدخلوا القائلين بالجبر في مسمى "القدرية"، وإن كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصي، فكيف بمن يحتج به على المعاصي؟ ومعلوم أنه يدخل فى ذم من ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر والنهي أعظم مما يدخل فيه المنكر له، فإن ضلال هذا أعظم؛ ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة فى كلام غير واحد من السلف، وروي فى ذلك حديث مرفوع؛ لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهي والوعد والوعيد، فالإرجاء يضعف الإيمان بالوعيد، ويهون أمر الفرائض والمحارم والقدري إن احتج به كان عونًا للمرجئ، وإن كذب به كان هو والمرجئ قد تقابلا، هذا يبالغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وهذا يبالغ في الناحية الأخرى.

ومن المعلوم أن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لتصدق الرسل فيما أخبرت، وتطاع فيما أمرت، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله} ، وقال تعالى: {مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله} ، والإيمان بالقدر من تمام ذلك، فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضًا للأمر فقد أذهب الأصل.

ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن أحدًا منهم أن يعيش به، ولا تقوم به مصلحة أحد من

الخلق، ولا يتعاشر عليه اثنان؛ فإن القدر إن كان حجة فهو حجة لكل أحد، وإلا فليس حجة لأحد، فإذا قدر أن الرجل ظلمه ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك، فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر، ومن ادعى أن العارف إذا شهد القدر سقط عنه الأمر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه لا اليهود ولا النصارى، بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع؛ فإن الجائع يفرق بين الخبز والتراب، والعطشان يفرق بين الماء والسراب، فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه، والجميع مخلوق لله تعالى، فالحي وإن كان من كان لابد أن يفرق بين ما ينفعه وينعمه ويسره، وبين ما يضره ويشقيه ويؤلمه، وهذا حقيقة الأمر والنهي، فإن الله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم.

والناس في الشرع والقدر على أربعة أنواع؛ فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره، يستند إليه في الذنوب والمعائب، ولا يطمئن إليه في المصائب، كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به، وبإزاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب، كما قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} ، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ} ، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} .

وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام أنه لما فعل ما فعل قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ} ، وعن إبليس أنه قال: {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} ، فمن تاب أشبه أباه آدم، ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس، والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى: «أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وعلمك أسماء كل شيء، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وخط لك التوراة بيده، فبكم وجدت مكتوبًا علي قبل أن أُخلق {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} ، قال: بكذا وكذا سنة. قال: فحج آدم موسى». وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبى هريرة، وقد روى بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه.

فآدم عليه السلام إنما حج موسى؛ لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة، لم يكن لومه له لأجل حق الله في الذنب، فإن آدم كان قد تاب من الذنب، كما قال تعالي: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} ، وقال تعالى: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} ، وموسى ومن هو دون موسى عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب، وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب. وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة، فإن هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم، وحجة لفرعون عدو موسى، وحجة لكل كافر وفاجر، وبطل أمر الله ونهيه، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى؛ لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه.

وقد قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ} ، وقال أنس: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته، لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته؟

وكان بعض أهله إذا عاتبني على شيء يقول: «دعوه، فلو قضى شيء لكان»، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا ولا امرأة ولا دابة ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ففي أمر الله ونهيه يسارع إلى الطاعة، ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإذا آذاه مؤذٍ أو قصر مقصر في حقه، عفا عنه، ولم يؤاخذه نظرًا إلى القدر.

فهذا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير فعل آدمي كالمصائب السماوية، أو بفعل لا سبيل فيه إلى العقوبة كفعل آدم عليه السلام فإنه لا سبيل إلى لومه شرعًا لأجل التوبة ولا قدرًا؛ لأجل القضاء والقدر، وأما إذا ظلم رجل رجلا، فله أن يستوفى مظلمته على وجه العدل، وإن عفا عنه كان أفضل له، كما قال تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}.

وأما الصنف الثالث، فهم الذين لا ينظرون إلى القدر، لا في المعائب ولا في المصائب التي هي من أفعال العباد، بل يضيفون ذلك كله إلى العبد، وإذا أساؤوا استغفروا، وهذا حسن، لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذي مضى به عليهم، ولا يقولون لمن قصر في حقهم: دعوه، فلو قضى شيء لكان، لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها وقد قال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} ، وقال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} ، وقال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}) انتهي .

وقال (8/ 262) :

(هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ، فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقًا، فكيف بمن كفر بالجميع، ولم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده، بل ترك ذلك محتجًا بالقدر، فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض) انتهي كلامه .

وجواب أهل السنة علي فهم الجبرية واحتجاجهم بالقدر علي المعصية من أوجه ذكر ابن القيم منها خمسة أوجه في شفاء العليل وهي الخمسة الأولي هنا ، وذكرت ستة أخري بعدها :

1) حكى الله سبحانه الاحتجاج بالقدر عن المشركين أعداء الرسل ورده أبلغ رد فقال تعالى في سورة النحل (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) ، وقال في سورة النحل (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) ، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ الله أَطْعَمَهُ} ، وقال (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) .

فقوله تعالي (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) فبين سبحانه أنه إنما يهدي من كان أهلا للهداية ، ويضل من كان أهلا للضلالة كما قال تعالي (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، وقوله تعالي (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) ، فبين سبحانه أن أسباب إضلاله لمن ضل إنما هو بسبب العبد نفسه ، **والعبد لا يدري ما قدر الله تعالي له لأنه لا يعلم بالقدر إلا بعد وقوع المقدور ولهذا قال تعالي (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) فالعبد لا يدري هل قدر الله له أن يكون ضالا أم أن يكون مهتديا ، فما باله يسلك طريف الضلال ثم يحتجّ بأنّ الله قد أراد له ذلك ، أفلا كان الأجدر به أن يسلك طريق الهداية ، ثم يقول إن الله تعالي قد هداني إلي الصراط المستقيم** ، أيجدر به أن يكون جبريا عند الضلالة وقدريا عن الطاعة !! ، كلا لا يليق به ذلك ن فإذا عصي أو ضل قال هذا أمر قد كتب علي !! ولا يمكنني أن أخرج عما قضي الله وقدر ، وإذا كان في جانب الطاعة ووفقه الله تعالي للطاعة والهداية زعم أن ذلك منه ثم منَ به علي الله كما تقعل القدرية !! ، فيكون قدريا في جانب الطاعة جبريا في باب المعصية !! ، هذا لا يمكن ابدا ، فالإنسان في الحقيقة له قدر وله اختيار ، وليس باب الهداية بأخفي من باب الرزق ، وبأخفي من ابواب طلب العلم ، والإنسان كما هو معلوم قد قدر له ما قدر من الرزق ، ومع ذلك هو يسعي في اسباب الرزق في بلده وخارج بلده يمينا وشمالا ، لا يجلس في بلده ويقول إن قدر لي رزق فسيأتيني ! ، بل هو يسعي في باب الرزق مع أن الرزق نفسه مقرون بالعمل كما في حديث الصادق المصدوق عن ابن مسعود الذي سبق في التقدير التقدير الجنين في بطن أمه ، فالرزق مكتوب كما أن العمل الصالح أو السيء مكتوب ، فما بالك تذهب يمينا وشمالا وتجوب الأرض والفيافي طلبا لرزق الدنيا ولا تعمل عملا صالحا طلبا لرزق الآخرة والفوز بدار النعيم ، إن البابين واحد ليس بينهما فرق ، فكما أنك تسعي لرزقك وتسعي لحياتك وامتداد أجلك فإذا مرضت ذهبت إلي أقطار الدنيا تريد طبيبا ماهرا يداويك ومع ذلك فإن لك ما قدر من الأجل لا يزيد ولا ينقص ، ولست تعتمد علي هذا وتقول أبقي في بيتي مريضا طريحا وإن قدر الله لي أن يمتد الأجل امتد ، بل نجدك تسعي بكل ما تستطيع من قوة وبحث عن الطبيب فلماذا لا يكون

عملك في طريق الآخرة وفي العمل الصالح كطريقك فيما تعمل للدنيا ، وسبق ان قلنا أن القضاء سر مكتوم لا يمكن أن تعلم عنه ، فأنت الآن بين طريقين طريق يؤدي بك إلي السلامة والفوز والسعادة بدار النعيم وطريق يؤدي بك إلي الهلاك والندامة والمهانة وأنت الآن واقف بينهما ومخير ليس أمامك ما يمنعك من سلوك طريق اليمين ولا من سلوك طريق الشمال إن شئت ذهبت إلي هذا وإن شئت ذهبت إلي هذا فما بالك تسلك طريق الشمال ثم تقول إنه قدر علي ، أفلا يجدر بك أن تسلك طريق اليمين وتقول إنه قُدّر عليّ ، فلو أنك أردت السفر إلي بلد ما وكان أمامك طريقان أحدهما معبد قصير آمن والآخر غير معبد وطويل ومخوف لوجدنا أنك تختار المعبد الآمن وهذا في الطريق الحسي فالطريق المعنوي مواز له ولا يختلف عنه ابدا ولكن النفوس والأهواء هي التي تتحكم أحيانا في العقل وتغلب عليه ، والمؤمن ينبغي أن يكون عقله غالبا علي هواه ، وإذا حكم عقله فالعقل بالمعني الصحيح يعقل صاحبه عما يضره ويدخله فيما ينفعه ويسره ، بهذا تبين لنا أن الإنسان يسير في عمله الاختياري سيراً اختيارياً ، وأنه كما يسير لعمل دنياه سيراً اختيارياً ، فكذلك أيضا هو في سيره إلى الآخرة يسير سيراً اختيارياً ، بل إن طرق الآخرة أبين بكثير من طرق الدنيا ؛ لأن مبين طرق الآخرة هو الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . فلا بد أن تكون طرق الآخرة أكثر بيانا وأجلى وضوحا من طرق الدنيا . ومع ذلك فإن الإنسان يسير في طرق الدنيا التي ليس ضامنا لنتائجها ، ولكنه يدع طرق الآخرة التي نتائجها مضمونة معلومة ؛ لأنها ثابتة بوعد الله ، والله تبارك وتعالى لا يخلف الميعاد .

قال ابن تيمية في جامع الرسائل (341/2) ، (8/ 64) ، (97/8)

(فالواجب علي العبد في هذا الباب أن يؤمن بقضاء الله وقدره ، وأن يؤمن بشرع الله ، وأمره ، ونهيه فعليه تصديق الخبر وطاعة الأمر) ، (فإذا أحسن حمد الله وإذا أساء استغفر الله وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، فإن آدم عليه السلام لما اذنب تاب ، فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس اصر واحتج فلعنه الله واقصاه ، فمن تاب كان آدميا ، ومن أصرواحتج بالقدر صار إبليسيا فالسعداء يتبعون آباءهم والاشقياء يتبعون عدوهم إبليس) ، (وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلق ما وأمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازدادا علما وإيمانا ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ، ويبين له تصديق ما أخبر به في كتابه) .

2) أن للفعل وجهين وجها قائما بالرب تعالى وهو قضاؤه وقدره له وعلمه به والعبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول وملاحظة للوجه الثاني والكمال أن لا يغيب بأحد الملاحظتين عن الأخرى بل يشهد قضاء الرب وقدره ومشيئته ويشهد مع ذلك فعله وجنايته وطاعته ومعصيته فيشهد الربوبية والعبودية فيجتمع في قلبه معنى قوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} مع قوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله} وقوله: {إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله} فمن الناس من يتسع قلبه لهذين الشهودين ومنهم من يضيق قلبه عن اجتماعهما بقوة الوارد عليه وضعف المحل فيغيب بشهود العبودية والكسب وجهة الطاعة والمعصية عن شهود الحكم القائم بالرب تعالى من غير إنكار له فلا يظهر عليه إلا أثر الفعل وحكمه الشرعي وهذا لا يضره إذا كان الإيمان بالحكم قائما في قلبه ومنهم من يغيب بشهود الحكم وسبقه وأولية الرب تعالى وسبقه للأشياء عن جهة عبوديته وكسبه وطاعته ومعصيته فيغيب بشهود الحكم عن المحكوم به فضلا عن صفته فإذا لم يشهد له فعلا فكيف يشهد كونه حسنا أو قبيحا وهذا أيضا لا يضره إذا كان علمه بحسن الفعل وقبحه قائما في قلبه وإنما توارى عنه لاستيلاء شهود الحكم على قلبه وبالله التوفيق، فأين هذا من احتجاج أعداء الله بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه وعباد هؤلاء الكفرة يشهدون أفعالهم كلها طاعات لموافقتها المشيئة السابقة ولو أغضبهم غيرهم

وقصر في حقوقهم لم يشهدوا فعله طاعة مع أنه وافق فيه المشيئة فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي الآمن هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتبعهم لهواه وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}

قلت : وآدم قد استحضر كلتا الملاحظتين من خطأ فعله ووجوب التوبة منه ، والملاحظة الثانية أن يعتقد ويستحضر علم الله السابق وكتابته ومشيئته وخلقه لافعال عباده ولم يقله آدم ليزيل عن نفسه الخطأ والمعصية وأنها قربة إلي الله سبحانه !!! وطاعة لإرادته !! كما تزعم الجبرية !

3) فإن قيل قد علم بالنصوص والمعقول صحة قولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولو شاء الرحمن ما عبدناهم فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وقد قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} فكيف أكذبهم ونفى عنهم العلم وأثبت لهم الخرص فيما هم فيه صادقون وأهل السنة جميعا يقولون لو شاء الله ما أشرك به مشرك ولا كفر به كافر ولا عصاه أحد من خلقه فكيف ينكر عليهم ما هم فيه صادقون ؟؟

قيل أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين ولم ينكر عليهم صدقا ولا حقا بل أنكر عليهم أبطل الباطل فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتا لقدره وربوبيته ووحدانيته وافتقارا إليه وتوكلا عليه واستعانة به ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين وإنما قالوه معارضين به لشرعه ودافعين به لأمره فعارضوا شرعه وأمره ودفعوه بقضائه وقدره ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر .

وأيضا فإنهم احتجوا بمشيئتة العامة وقدره على محبته لما شاءه ورضاه به وإذنه فيه فجمعوا بين أنواع من الضلال معارضة الأمر بالقدر ودفعه به والإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر .

فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك فكانت حجة الله هي البالغة وحجتهم هي الداحضة وبالله التوفيق .

4)والرد الرابع أن آدم احتج بالقدر علي المصيبة لا علي المعائب فإن موسي لم يقل لآدم صلوات الله وسلامه عليهما أكلت من الشجرة تعييرا منه له لارتكابه الذنب بل بأثره من ما ترتب عليه من خروجه وذريته من الجنة ، إذا عرفت هذا فموسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه بعده وهداه واصطفاه وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم فذكر الخطيئة تنبيها على سبب المصيبة المحنة التي نالت الذرية ولهذا قال له أخرجتنا ونفسك من الجنة وفي لفظ خيبتنا فاحتج آدم بالقدر على المصيبة وقال أن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة

قلت :هذا جواب ابن تيمية رحمه الله ، يعني أن آدم كتب عليه أنه للأرض سواء أكل أو لم يأكل من الشجرة فاحتج بالقدر علي المصائب لا علي المعائب ، كما يصاب به الإنسان من فقر أو مرض ونحو ذلك فالاحتجاج فيها بالقدر صحيح مقبول ، فاحتج موسي علي آدم بالمصيبة لا بالمعصية ، فحجه آدم بالقدر المكتوب ولم يحتج بالمعصية ، فتأمل .

فإن آدم – عليه وعلي موسي ونبينا الصلاة والسلام – لما تاب من ذنبه قبلت توبيته بقبول الله في القرآن فصار كمن لا ذنب له ، وصارت معصيته بعد أن محيت - مثل ما يصاب به الإنسان من فقر ومرض ، والاحتجاج بالقدر عليهما صحيح ، لا لوم فيه ، ويؤيد ذلك ما سيأتي من الوجه الخامس لآتي

وفيه ذلك قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية :

(فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله ربا ، فليس لأحد أن يذنب ، **وإذا اذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعائب ، ويصبر علي المصائب)** ، اي يصبر علي ما يتبع المعصية من المصائب وإن كانت توبة صاحبها مقبولة ، **فاحتج آدم بالخروج نفسه لا بالمعصية التي هي من اسباب الخروج .**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتج بالخروج نفسه. انتهى.

وقال أيضا (8/ 108) :

(هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم، وحجة لفرعون عدو موسى، وحجة لكل كافر وفاجر، وبطل أمر الله ونهيه، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى؛ لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، **وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه**)انتهي .

فإن قيل لماذا بعد التوبة المقبولة أهبط إلي الارض ؟؟

قال ابن تيمية (التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلي بعد التوبة لينظر دوام طاعته ، وإذا كان الله تعالي قد يبتلي من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره أم كفره وجزعه وطاعته أم معصيته ، فالتائب أحق بالابتلاء ، فآدم أهبط إلي الأرض ابتلاء له ووفقه الله في هبوطه لطاعته ، فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط ، وهذا بخلاف ما لو كان الابتلاء بالقدر نافعا له ، فإنه لا يكون عليه ملام ألبتة ، ولا هناك توبة تقتضي أن يبتلي صاحبها ببلاء) انتهي .

5) وقد يتوجه جواب آخر وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، يوضحه أن آدم قال لموسى أتلومني على أن عملت عملا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول هذا أمر كان قد قدر عليّ قبل أن أخلق فإنه لم يدفع بالقدر حقا ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلا محرما أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره فيبطل بالاحتجاج به حقا ويرتكب باطلا كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: {لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا}: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه وأنهم لم يندموا على فعله ولم يعزموا على تركه ولم يقروا بفساده فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود فإذا لامه لائم بعد ذلك قال كان ما كان بقدر الله، ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل .

فإن قيل فقد احتج عليّ بالقدر في ترك قيام الليل وأقره النبي ﷺ كما في الصحيح عن علي: "أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال لهم ألا تصلون قال فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ولم يرجع إلي شيئا ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه وهو يقول: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}"، قيل علي لم يحتج بالقدر على ترك واجب ولا فعل محرم وإنما قال أن نفسه ونفس فاطمة بيد الله فإذا شاء أن يوقظها ويبعث أنفسها بعثها وهذا موافق لقول النبي ﷺ ليلة ناموا في الوادي: "إن الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء" وهذا احتجاج صحيح صاحبه يعذر فيه فالنائم غير مفرط واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح وقد أرشد النبي ﷺ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد

الاحتجاج به فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان"

واعلم – وفقك الله – أن آدم – عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام - لم يظلم أولاده حتي يلام ؛ لأنهم إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، فلم يهبط إلا آدم وحواء ولم يكن معهم ولد حينئذ حتي يقال إن ذنبهما تعدي إلي أولادهما ، بل ما جاء الأولاد إلا بعد هبوطهما من الجنة ، وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة كان أمرا مقدرا عليهم لا يحق لهم به لوم آدم ، وآدم قد تاب توبة مقبولة فلم يبق مستحقا لذم ولا عقاب .

6) والاحتجاج بالقدر علي المعاصي يبطله السمع والعقل والواقع ، قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الواسطية

- فأما السمع؛ فقد قال الله تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} قالوا ذلك احتجاجًا بالقدر على المعصية، فقال الله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}؛ يعني: كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا}، وهذا يدل على أن حجتهم باطلة؛ إذ لو كانت حجة مقبولة؛ ما ذاقوا بأس الله.

- ودليل سمعي آخر: قال الله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} إلى قوله: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} ووجه الدلالة من هذه الآية أنه لو كان القدر حجة؛ ما بطلت بإرسال الرسل، وذلك لأن القدر لا يبطل بإرسال الرسل، بل هو باق.

فإذا قال قائل: يرد عليك في الدليل الأول قول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} فهنا قال الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا}؛ فنقول: إن قول الإنسان عن الكفار: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكُوا}: قول صحيح وجائز، لكن قول المشرك: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} يريد أن يحتج بالقدر على المعصية قول باطل، والله عزَّ وجلَّ إنما قال لرسوله هكذا تسلية له وبيانًا أن ما وقع فهو بمشيئة الله.

- وأما الدليل العقلي على بطلان احتجاج العاصي بالقدر على معصية الله أن نقول له: ما الذي أعلمك بأن الله قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ فنحن جميعًا لا نعلم ما قدر الله إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع؛ فلا ندري ماذا يراد بنا؛ فنقول للعاصي: هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدر لك المعصية؟ سيقول: لا.

فنقول: إذًا؛ لماذا لم تقدر أن الله قدر لك الطاعة وتطع الله؛ فالباب أمامك مفتوح؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذي تراه مصلحة لك؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك. واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الحجة لا بد أن تكون طريقًا يمشي به الإنسان؛ إذ إن الدليل يتقدم المدلول .

ونقول له أيضًا: ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق معبد آمن، والثاني طريق صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ سيقول: بلى. فنقول: إذًا؛ لماذا تسلك في عبادتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل الله تعالى بالأمن لمن سلكه؛ فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} ، وهذه حجة واضحة.

ونقول له: لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين: إحداهما بالمرتبة العالية، والثانية بالمرتبة السفلى؛ فأيهما تريد؟ بلا شك ستريد المرتبة العالية، وهذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل في أمور دنياك؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل في أمور دينك؟**!** وهل هذا إلا تناقض منك؟**!**

وبهذا يتبين أنه لا وجه أبدًا لاحتجاج العاصي بالقدر على معصية الله عزَّ وجلَّ . **انتهي كلام الشيخ رحمه الله**

وقد حث النبي –صلي الله عليه وسلم – أمته علي الأخذ بالأسباب فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل

قدر الله ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان" ففي هذا الحديث إثبات القدر وإثبات الكسب والاختيار ولا يجتمعان إلا عند اصحاب القلوب السليمة ولا عزاء للجبرية والقدرية

قال ابن القيم في شفاء العليل :

(فالخير كله في الحرص على ما ينفع ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولا تتم إلا بمعونته فأمره بأن يعبده وأن يستعين به ثم قال ولا تعجز فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة في لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده فلهذا قال فإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين حالة حصول مطلوبة وحالة فواته فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدا بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام والعبودية ظاهرا وباطنا في حالتي حصول المطلوب وعدمه وبالله التوفيق) **انتهي كلامه رحمه الله** .

7) والله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل لكن يقضي ويقدّر ويخلق **ويَجبُل** عبده علي ما أحبه ، وقد نقل ذلك الخلال في السنة عن الإمام الزبيدي صاحب الزهري ؛ لأن الجبر المعروف في اللغة هو إلزام الإنسان بخلاف رضاه ؛ فقال الزبيدي ذلك لأن الله –سبحانه – قادر علي ان يجعل العبد مختارا راضيا لما يفعله ومبغضا وكارها لما يتركه ، فالله قادر علي أن يهديهم فيفعلوا الشيء رضا منهم به لا جبرا ولكن لا تفوت الحكمة من الخلق ومحل الابتلاء في هذه الحياة الدنيا ليبلونا أينا أحسن عملا ، وما ربك بظلام للعبيد .

وقد استهجن السلف لفظ الجبر ومنعوا إطلاقه نفيا وإثباتا ، وإنما الوارد الجبل كما قال الأوزاعي كما في شرح أصول الاعتقاد

(ما أعرف للجبر أصلا من القران ولا السنة ، فأهاب أن اقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القران والحديث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم) .

يشير – رحمه الله – إلي حديث الرسول صلي الله عليه وسلم الذي اخرجه ابو داوود في سننه من حديث زارع بن عامر بن عبد القيس قال (لما قدمنا المدينةَ، فجعلْنا نتبادرُ من رواحِلنا، فنقبِّل يدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ورجلَه، وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له إن فيك خلتين يحبهما الله الحلم والأناة . قال : يا رسول اللهِ ! أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال : بل الله جبلك عليهما . قال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله)

وذكر الخلال عن عبد الرحمن بن مهدي قال أنكر سفيان الثوري "جبر" وقال إن الله جبل العباد ، قال المروذي اراد قول الرسول – صلي الله عليه وسلم – لاشج عبد القيس ، وروي الحديث .

وقال ابن تيمية (461/8):

(حتى في لفظ الجبر أنكروا على مَن قال: جبر، وعلى مَن قال: لم يجبر. والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وغيرهم من سلف الأمة وأئمتها)

وقال (16/ 237) :

(ولهذا نص الأئمة كالإمام أحمد ومَنْ قَبْلَهُ من الأئمة كالأوزاعي وغيره على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيًا وإثباتًا، فلا يقال: إن الله أجْبَرَ العباد. ولا يقال: لم يُجْبِرْهُم. فإن لفظ الجبر فيه اشتراك وإجمال، فإذا قيل: أجْبَرَهُم، أشعر بأن الله يُجْبِرُهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم. وإذا قيل: لم يُجْبِرْهم، أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير اختياره، وكلاهما خطأ)

وقال (664/7)

(وكذلك لفظ الجبر، إذا قال: هل العبد مجبور أو غير مجبور؟ قيل: إن أراد بالجبر أنه ليس له مشيئة، أو ليس له قدرة، أو ليس له فعل، فهذا باطل؛ فإن العبد فاعل لأفعاله الاختيارية، وهو يفعلها بقدرته ومشيئته، وإن أراد بالجبر أنه خالق مشيئته وقدرته وفعله فإن الله تعالى خالق ذلك كله)

فإطلاق لفظ الجبر مرادا به نفي مشيئة العبد واختياره وقدرته كما تقول الجبرية فهذا ضلال ، وأما إطلاق الجبر مراداً به أن الله جعل العباد مريدين مختارين من غير إكراه وأنه خالق مشيئتهم وفعلهم وإرادتهم وقدرتهم فهذا صحيح، وقال بعض السلف في معنى الجبار: هو الذي جبر العباد على ما أراد، ولما كان لفظ الجبر لفظا مجملا كما تري يطلق على هذا وهذا منع السلف من إطلاقه نفياً أو إثباتاً.

وإنما الوارد هو الجبل من جبل يجبُل جبلا من الطبع والخلق أي جعل العبد مريدا مختارا من غير جبر ولا إكراه ، فاعلا بمشيئته الخير أو الشر بإرادة وقدرة مخلوقتين لله تعالي ، ولو شاء سبحانه لما فعل ولكنه لا يجبر مكرها أحدا من عباده علي ما أمرهم به ، بل من شاء منهم فعله فيثيبه ومن شاء عصي فيعاقبه ولو شاء لجعل

الناس كلهم مطيعين لما أراد منهم ولكن قدم إليهم بالوعد والوعيد في كتبه وعلي ألسنة رسله ، وأفعال العباد كلها مخلوقة له طاعاتها ومعاصيها ، وكله بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته الكونية ، فالجبل لا يختص بالطاعة بل الله يجبل عبده علي الطاعة التي اختارها كما يجبل العاصي علي المعصية بالمعني السابق ، فلا يختص الجبل بإرادة الله الشرعية بل يشمل الإرادة الكونية .

فلفظ الجبل يشمل جميع ما سبق تقريره من معتقد الجماعة في القدر من إثبات مراتب القدر وخلق الله لأفعال العباد وإرادته لها كونا ، وإثبات قدرة العبد وإرادته واختياره ونفي الجبر .

فينبغي الاستفصال في معني الجبر :

فإن أريد به الإكراه من غير أن تكون للعبد إرادة واختيار ، فإطلاق لفظ الجبر بذلك باطل ، فالله أجل من أن يجبر أو يكره عبده ، وقد جعله الله مريدا مختارا وإن كانت إرادته مخلوقة .

وإن أريد بالجبر القهر والقدرة علي فعل العبد ، فالله قادر علي أن يفعل بعبده ما يشاء ، فيجعل العبد مختارا علي ما أراده سبحانه ، فهذا حق ، وهو ما نقصده بالجبل) .

وعن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة) أن المروزي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا نقول، وأنكر ذلك وقال: يُضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء. وذكر عن المروذي أن رجلاً قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه آخر، فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل، فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جَبَر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمره أن يقول: يضل من يشاء ويهدي من يشاء. وذكر عن إسحاق الفزاري قال: جاءني الأوزاعي فقال: أتاني رجلان فسألاني عن القدر، فأجبت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما. قلت: رحمك الله، أنت أولى بالجواب. قال: فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما. فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر، فنازعونا في القدر ونازعناهم فيه، حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا: إن الله جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به،

ورزقنا ما حرَّم علينا. فقلت: يا هؤلاء، إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة، وأحدثوا حدثاً، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه. فقال الأوزاعي: أصبت وأحسنت يا أبا إسحاق.

8) وهذا السؤال من جنس سؤال إبليس الذي أخبر الله عنه أنه قال (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وإبليس هو الذي غوي وعصي واستكبر فاحتج علي ربه بالمعصية ولهذا سماهم أهل العلم القدرية الإبليسية ، وأما آدم عليه السلام فتاب إلي الله فاجتباه ربه وتاب عليه وهدي ، فكل من احتج بالقدر علي معصيته التي اختارها فهو وارث لإبليس آخذ عنه خصومة ربه وهو في الآخرة من الخاسرين .

قال ابن تيمية في تائيته في القدر ؛ لما سأله جبري فقال

أيـــا علـمـاء الـديـن ذمــي ديـنـكم *** تــحـيـر دلــــوه بـــأوضـــح حـــجــة

إذا مـا قـضـى ربـي بـكفري بزعمكم *** ولـم يـرضـه مـنـي فـما وجـه حـيلتي

دعـاني وسـد الباب عني فهل إلى *** دخـولـي سـبيل بـينوا لـي قـضيتي

قـضى بـضلالي ثم قال: ارض بالقضا *** فـمـا أنـا راض بـالذي فيه شـقوتي

فـإن كـنت بـالمقضي يـا قـوم راضـيا *** فــربــي لا يــرضــى بـشـؤم بـلـيتي

فـهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي *** قد حرت دلوني على كشف حيرتي

إذا شـــاء ربـي الـكفر مـني مـشيئة *** فـهل أنـا عـاص فـي اتباع المشيئة

وهـل لـي اخـتيار أن أخـالف حـكمه *** فـــبالله فـاشـفوا بـالـبراهين غـلـتي

وواضح من لحن قوله أنه يسأل تعنتا لا استرشادا فإنه معترض علي ربه كما هو ظاهر ، وقد فهم ذلك منه ابن تيمية بعلمه وفراسته

فرد بقصيدة علي نفس القافية فقال

سـؤالـك يـــا هــذا ســؤال مـعـانـد *** مـخـاصـم رب الـعـرش بـــاري الـبـريـة

فـهـذا ســؤال خــاصـم الـمـلأ الـعـلا *** قـديـمًـا بـــه إبـلـيـس أصـــل الـبـلـية

ومــن يــك خـصـمًا لـلـمهيمن يـرجـعن *** عــلــى أم رأس هــاويًـا فــي الـحـفيرة

ويــدعـى خــصـوم الله يـــوم مـعـادهم *** إلـــى الــنــار طــرًا مـعـشـر الـقـدريـة

9) ويلزم هؤلاء الجبرية المحتجين بالقدر علي معاصيهم أن لا يلوموا من اعتدي عليهم بالسب والقدح وانتهاك العرض والحرمة والدم ، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول .

قال ابن تيمية (8/ 114) :

(إن القدر ليس حجة لأحد، لا على الله ولا على خلقه، ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم، ولم يقاتل مشرك، ولم يقم حد، ولم يكف أحد عن ظلم أحد. وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المعقول. المطابق لما جاء به الرسول.

فالقدر يؤمن به ولا يحتج به، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس، ومن احتج به ضارع المشركين، ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيهًا بإبليس، فإن الله ذكر عنه: أنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه، وأنه قال: {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}) انتهي كلامه.

وما أقوي ما قاله ابن تيمية في تائية القدر في ذلك حيث قال

ويـكـفيك نـقـضـا أن مـــا قـــد سـألـته *** مــن الـعـذر مــردود لــدى كــل فـطـرة

فــأنــت تـعـيـب الـطـاعـنين جـمـيـعهم *** عــلـيـك وتــرمـيـهم بـــكــل مـــذمـــة

وتـــنـــحـل مـــــن والاك صــفــو مـــــودة *** وتـبـغـض مــن نـــاواك مــن كــل فـرقـة

وحـــالـهـم فـــي كـــل قـــول و فـعـلـة *** كــحــالـك يــــا هـــذا بـــأرجــح حــجـة

وهبك كففت اللـوم عــن كل كـافر *** وكـــل غـــوي خـــارج عـــن مـحـجـة

فيلزمك الإعراض عن كل ظالم *** على الناس في نفس مال وحرمة

ولا تغضبن يوما على سافك دما *** ولا سارق مالا لصاحب فاقة

ولا شاتم عرضًا مصونًا وإن علا *** ولا ناكح فرجا على وجه غية

ولا قاطع للناس نهج سبيلهم *** ولا مفسد في الأرض في كل وجهة

ولا شاهد بالزور إفكًا وفرية *** ولا قاذف للمحصنات بزنية

ولا مهلك للحرث و النسل عامدًا *** ولا حاكم للعالمين برشوة

وكف لسان اللوم عن كل مفسد *** ولا تأخذن ذا جرمة بعقوبة

وسهل سبيل الكاذبين تعمدا *** على ربهم من كل جاء بفرية

وإن قصدوا إضلالك من يستجيبهم *** بروم فساد النوع ثم الرياسة

وجادل عن الملعون فرعون إذ طغى *** فأغرق في اليم انتقاما بغضبة

وكل كفور مشرك بإلهه *** وآخر طاغ كافر بنبوة

كعاد ونمروذ وقوم لصالح *** وقوم لنوح ثم أصحاب الأيكة

وخاصم لموسى ثم سائر من أتى *** من الأنبياء محييا للشريعة

على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا *** ونالوا من المعاصي بليغ العقوبة

وإلا فكل الخلق في كل لفظة *** ولحظة عين أو تحرك شعرة

وبطشة كف أو تخطى قديمة *** وكل حراك بل وكل سكينة

همو تحت أقدار الإله وحكمه *** فما أنت فيما قد أتيت بحجة

وهبك رفعت اللوم عن كل فاعل *** فعال ردى طردا لهذي المقيسة

فهل يمكن رفع الملام جميعه *** عن الناس طرا عند كل قبيحة

وترك عقوبات الذين قد اعتدوا *** وترك الورى الإنصاف بين الرعية

فلا تضمنن نفس ومال بمثله *** ولا يعقبن عاد بمثل الجريمة

وهل في عقولِ الناسِ أو في طباعهم *** قبول لقول النذلِ ما وجه حيلتي

قال ابن سعدي في شرحه لهذه الأبيات :

(هذه الإلزامات التي ذكرها الشيخ _ يعني شيخ الإسلام _ في غاية الوضوح، يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذرين بالأقدار.

ومثَّل بأمثلة كثيرة يعرفها كلُّ أحد؛ لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني، وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة، ولأنه لو فرض أنه تأول من أُلزِم بها بعض هذه الأمثلة باحتمالات ضعيفة ـ لم يكن له سبيل إلى بقيتها.

فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم؛ فلا تغضبوا على من سفك الدماء، وأخذ الأموال بالغصب والسرقة، ولا من شتم الأعراض، ولا على الزناة وقطاع الطريق والمفسدين في الأرض، ولا قاذفٍ أو شاهدٍ بالزور، ولا مَنْ سعى في الأرض؛ ليهلك الحرث والنسل، ولا على من حكم بالرشوة، وجار في حكمه.

بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق، بل عليك أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم، وتعتذر عنهم وإن سعوا في إضلال الناس.

بل وجادل عن أئمة الكفر كفرعون، وقارون، وهامان، وكل مشرك وكافر كعاد، وثمود، ونمرود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة وما أشبههم من الكفار المعاندين.

بل على قول هؤلاء ـ يعني المحتجين بالقدر ـ عليك أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء؛ حيث جاهدوا الناس على الإيمان، وعاقبوا أهل الجرائم؛ لأن الخلق كلهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ولفظاتهم ولحظاتهم تحت أقدار الله.

وهذا القول الفظيع الذي يفضي إلى هذه المكابرات، والمجاهرة بتكذيب الله ورسله وكتبه ـ حسبُ الناظرِ لهذا القول أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله، وفيها فساد الدين، والدنيا، والآخرة) انتهي .

قال ابن تيمية : ابْن تَيْمِية إِن الْقدر نؤمن بِهِ وَلَا نحتج بِهِ فَمن احْتج بِالْقدرِ فحجته داحضة وَمن اعتذر بِالْقدرِ فعذره غير مَقْبُول وَلَو كَانَ الِاحْتِجَاج بِالْقدرِ مَقْبُولًا لقبل من إِبْلِيس وَغَيره من العصاة وَلَو كَانَ الْقدر حجَّة لم يقطع سَارِق وَلَا قتل قَاتل وَلَا أقيم حد على ذِي جريمة وَلَا جوهد فِي سَبِيل الله وَلَا أَمر بِمَعْرُوف وَلَا نهي عَن مُنكر وَقد سُئِلَ رَسُول الله عَن هَذَا فَقيل يَا رَسُول الله أَفلا نَدع الْعَمَل ونتكل على الْكتاب فَقَالَ اعْمَلُوا فَكل ميسر لما خلق لَهُ وَسلف الْأمة وأئمتهم متفقون على أَن الْعباد مأمورون بِمَا أَمرهم الله بِهِ منهيون عَمَّا نَهَاهُم عَنهُ ومتفقون على الْإِيمَان بوعده ووعيده الَّذِي نطق بِهِ الْكتاب وَالسّنة ومتفقون أَنه لَا حجَّة لأحد على الله فِي وَاجِب تَركه ومحرم فعله بل لله الْحجَّة الْبَالِغَة على عباده وَمن احْتج بِالْقدرِ على ترك مَأْمُور أَو فعل مَحْظُور أَو دفع مَا جَاءَت بِهِ النُّصُوص فِي الْوَعْد والوعيد فَهُوَ أعظم ضلالا وافتراء على الله وَمُخَالفَة لدين الله من أُولَئِكَ الْقَدَرِيَّة)

10) ولو كان الاحتجاج بالقدر حجة لاحتج به أهل النار ، ولكنهم لم يفعلوا بل كان قولهم كما قال تعالي عنهم (لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) ، (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين) ، إلي غير ذلك من الآيات ، وإلا لم يكن هناك داع للتوبة والإنابة والاستغفار إذ العباد مجبرون لا حيلة لهم علي قولهم الباطل ! ، كذلك الفساق ناقصوا الإيمان ينالون حظهم من الحدود المقدرة شرعا في الدنيا ، فكذلك في الآخرة بلا إشكال ، ولو كانوا مجبرين ما شرع الله عليهم حدا ولا أمر رسوله بغزو المشركين أفظلم هو تشريعه لعباده !!

كما قال ابن تيمية :

إذا كان في هذا له حكمة *** فما يظن بخلق الفعل ثم العقوبة

وكيف ومن هذا عذاب مولد *** عن الفعل فعل العبد عند الطبيعة

كآكل سم أوجب الموت أكله *** وكل بتقدير لرب البرية

فكفرك يا هذا كسم أكلته *** وتعذيب نار مثل جرعة غصة

ألست ترى في هذا الدار من جنى *** يعاقب إما بالقضا أو بشرعة

ولا عذر للجاني بتقدير خالق *** كذلك في الأخرى بلا مثنوية

وأهل الكبائر من عصاة المسلمين هم من أهل الوعيد ومعرضون للعذاب الشديد إن لم تتداركهم هذه الأمور العشرة التي بها يكفر الله الخطايا ويرفع بها أثر السيئة .

وقد جمعها ابن تيمية في المجموع (10 م45) فقال :

(والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

1. أن يتوب فيتوب الله عليه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.
2. أو يستغفر فيغفر له.
3. أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات.
4. أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيا وميتا.
5. أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.
6. أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
7. أو يبتليه الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه.

8. أو يبتليه في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه.

9. أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

10. أو يرحمه أرحم الراحمين

فمَن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه") .

وقد ذكر ابن تيمية بعضها في تائيته فذكر التوبة ،والدعاء ، والأعمال الصالحة المكفرة ، والشفاعة من المؤمن أو من الرسول – صلي الله عليه وسلم - يوم القيامة ، أو من الأفراط ، فقال :

وتقدير رب الخلق للذنب موجب *** لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبة

وما كان من جنس المتاب لرفعه *** عواقب أفعال العباد الخبيثة

كخير به تمحى الذنوب ودعوة *** تجاب من الجاني ورب شفاعة

ثم قال :

وقول حليف الشر إني مقدر علي *** كقول الذئب هذي طبيعتي

وتقديره للفعل يجلب نقمة *** كتقديره الأشياء طرا بعلة

فهل ينفعن عذر الملوم بأنه *** كذا طبعه أم هل يقال لعثرة

أم الذم والتعذيب أوكد للذي *** طبيعته فعل الشرور الشنيعة

وهذه من جنس الحجج السابقة محاجته للمحتج بالقدر هل يرضي من الذئب أذاه من قتل وتدمير وتخريب للممتلكات بحجة أنها طبيعته أم لا يقابل ذلك إلا بقتله ، فكذلك العصاة يعذبون بأفعالهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، ثم ذكر أن المعاصي إنما هي بمشيئة الله وإرادته الكونية لا يخرج شيء من ذلك عن حكمه وقدرته وإرادته وعلمه وخلقه لفعل العاصي ، ولذلك حكم بالغة منها توبة العبد لربه والله يفرح بتوبة عبده ، غير أن هذه

المعاصي قد تكون سببا لرفعة مقام التائب عند الله بعدها ، فلرب ذنب تاب منه العبد صار العبد بعد التوبة منه أحسن مما كان قبله ،وأرفع مقاما عند الله ، وتمييز المخبت المنيب من المصر العنيد ، ومن هذه الحكم ايضا رؤية الله تحقيق العبد للإخلاص وصدقه في التوبة ، وليعرف العبد حقيقة نفسه العاصية المذنبة فيورثه ذلك التواضع لله وللخلق وخلع ثياب الكبر والغرور ، ودوام افتقاره لربه وأنه لا غني له عنه ابدا ، ومن هذه الحكم ايضا الاستدراج وإقامة الحجة علي العبد ، إلي غير ذلك من الحكم الكثيرة التي يراها العبد الصادق المراقب نفسه المتقي .

ثم قال بعدها مسديا النصح لهؤلاء الجبرية المحتجّين علي الله فقال :

فـإن كـنت تـرجوا أن تـجاب بما عسى *** يـنـجيك مــن نـــار الإلـــه الـعظـيمة

فـدونـك رب الـخلـق فـاقصده ضـارعًـا *** مـريـدًا لأن يــهـديك نــحـو الـحـقيقة

وذلـل قـيـاد الـنفس لـلحق واسـمعن *** ولا تـعـرضـن عــن فـكـرة مـسـتقيمة

ومـــا بـــان مـــن حـــق فـــلا تـتـركنه *** ولا تـعـص مـن يـدعـو لأقـوم شـرعـة

ودع ديـــن ذا الــعـادات لا تـتـبعنـه *** وعــج عــن سـبـيل الأمــة الـغـضبية

ومـــن ضــل عــن حــق فــلا تـقـفونه *** وزن مـــا عـلـيـه الــنـاس بـالـمعدلية

هـنـالك تـبـدو طـالـعات مـن الـهدى *** تــبـشر مـــن قـــد جـــاء بـالـحنيفية

بــمــلــة إبـــراهــيـم ذاك إمـــامــنــا *** وديـــــن رســـــول الله خــيــر الــبـريـة

فــلا يـقبل الـرحمن ديـنًا سـوى الـذي *** بـــه جــاءت الـرسـل الـكـرام الـسـجية

وقــد جــاء هـذا الـحاشر الـخاتم الـذي *** حــوى كــل خـير فـي عـموم الـرسالة

وأخبر عن رب العباد بأن من غدا *** عنه في الأخرى بأقبح خيبة

فهذي دلالات العباد لحائر *** وأما هداه فهو فعل الربوبة

وفقد الهدى عند الورى لا يفيد من غدا *** عنه بل يجزى بلا وجه حجة

وحجة محتج بتقدير ربه *** تزيد عذابا كاحتجاج مريضة

ومعني البيت الاخير أن احتجاج المحتج بالقدر علي معصيته لا ينفعه بل عليه جزاؤه من الذل والعذاب المهين في الدنيا قبل الآخرة لأن هذا الاحتجاج يورثه التمادي في الذنب والكذب علي الله، إنما هو كمن أكل سما فهو يحتج بالقدر علي أكله السم ولا ينفعه احتجاجه بل نفسه تزداد مرضا و عذابا بما أكلته ، أفلا كان الأجدر به أن يترك ما فيه ضرره بدلا من أن يحتج بالقدر علي ما أضر به نفسه ! ، فإن هؤلاء الجبرية المحتجين بالقدر علي معاصيهم قد سووا بين المصائب والمعائب في الاحتجاج بالقدر ، وقد سبق أن القدر إنما يحتج به علي المصائب لا المعائب .

11) ومن شبهات الجبرية في احتجاجهم بالقدر تسويتهم بين المصائب والمعائب في لزوم الرضا والصبر ! ؛ تبريرا لما هم مقيمون عليه من المعاصي واحتجاجا بالقدر عليها ، وهذا من تلبيس إبليس ، فإنه قد سبق أن الرضا إنما هو في المصائب لا المعائب والذنوب بل يجب العبد أن يكرهها ويسارع في الانسلاخ منها بالتوبة ، غير أن الله يكره معصية العبد ونهاه عنها ورتب عليها العذاب الأليم إن لم يتب صاحبها ، والواجب علي العبد أن يكره ما يكرهه الله ويحب ما يحبه ، وقد سبق ايضا التفرقة بين القضاء والمقضي والفعل والمفعول والقدر والمقدور ، وأن الواجب رضا الإنسان بفعل الله لا بفعله هو إن كان فعله معصية وقلنا أنه لا تعارض في ذلك فارجع لباب هل الرضا بقضاء الله أم بمقضيه

قال في ذلك ابن تيمية :

وأما رضانا بالقضاء فإنما *** أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة

كسقم وفقر ثم ذل وغربة *** وما كان من مؤذ بدون جريمة

فأما الأفاعيل التي كرهت لنا *** فلا ترتضى مسخوطة لمشيئة

وقد قال قوم من أولى العلم لا رضا *** بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة

وقال فريق نرتضي بقضائه *** ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة

وقال فريق نرتضي بإضافة *** إليه وما فينا فنلقى بسخطة

كما أنها للرب خلق و أنها *** لمخلوقة ليست كفعل الغريزة

فنرضى من الوجه الذي هو خلقه *** ونسخط من وجه اكتساب الخطيئة

قال ابن سعدي في شرحه لهذه الأبيات :

يعني إذا أورد المورد علينا: أنه يجب الرضا بقضاء الله، ـ يعني والمعاصي من قضاء الله ـ فقد أجاب الشيخ ـ يعني شيخ الإسلام ـ بأربعة أجوبة، كل واحد منها كافٍ شافٍ، فكيف إذا اجتمعت؟

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به: المصائب دون المعائب، فإذا أُصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر، واختلف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت ورود الأمر به على وجه الوجوب؛ لتعذره على أكثر النفوس، لأن الصبر حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط؛ من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثو التراب على الرؤوس، ونحوها، وذلك واجب مقدور.

أما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينةُ القلب عند المصيبة، وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت ـ فهذا صعب جدَّاً على أكثر الخلق؛ فلهذا لم يوجبه الله، ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمرَ استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأتِ نصٌّ صحيحٌ، أو ضعيفٌ في الأمر بها، فأين هذا من ذاك؟

الجواب الثاني: ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نَكْفُرَ، ونعصي؛ فعلينا أن نوافقَ ربَّنا في رضاه، وسخطه، قال – تعالى - :[قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] .

فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر، والفسوق، والعصيان، مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان، والطاعة لنا مع فعلها.

الجواب الثالث: أن القضاء غير المقضي، فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله _تعالى_ وأما المقضي، الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة: الإيمان، والطاعة علينا الرضا بها، والكفُر والمعصيةُ لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها من التوبة، والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحاتُ مستويةُ الطرفين.

الجواب الرابع: أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها، فهي من الله خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً، فحيث أضيفت إلى الله _قضاء وقدراً_ نرضي بها من هذا الوجه، وحيث أُضيفت إلى العبد نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض) **انتهي .**

8) وأما الرد علي الأشاعرة متوسطة الجبرية وغلاتهم الذين ينفون الأسباب والعلل والحكمة عن الله من أفعاله سبحانه وتعالي فنقول :

معتقد الجماعة أن افعال الله - سبحانه وتعالي – معللة وكذلك شرعه وأحكامه من الحلال والحرام ، فلا يفعل شيئا إلا لحكمة ، بل له في كل ما خلق حكمة ورحمة ، كما قال تعالي (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالي الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ، والحكمة هي الغاية المقصودة من الفعل ، قال تعالي (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالحكمة من خلق الجن والإنس هي توحيد الله سبحانه لأن كل أمر بالعبادة في القران أمر بالتوحيد والعبادة لا تسمي عبادة إلا بالتوحيد كما أن الصلاة لا تسمي صلاة إلا بالطهارة وهذه الحكمة حكمة غائية لا حكمة موجبة فقد يوجد ذلك من العباد وقد لا يوجد في بعضهم خلافا للكرامية القائلين بأنها حكمة موجبة كما سيأتي ، وهو غني عن العالمين سبحانه ولكن عباده هم المحتاجون إليه .

قال ابن تيمية في المجموع (8/36-35):

(كل ما خلقه الله تعالى فله فيه حكمة، والحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه تعالى، يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة عليهم، يفرحون بها، ويلتذون بها، وهذا يكون في المأمورات وفي المخلوقات) انتهي .

وقال ابن القيم في شفاء العليل :

فهو (سبحانه حكيم، لا يفعل شيئا عبثا ولا بغير معنى ومصلحة وحكمة، **هي الغاية المقصودة بالفعل**، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصى) انتهي .

والأدلة علي ذلك من كتاب الله كثيرة ، منها :

- قوله تعالي (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم)

قال أبو جعفر : يعني - تعالى ذكره - بقوله : " ذلك " تصييره الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد . يقول - تعالى ذكره - : صيرت لكم ، أيها الناس ، ذلك قياما ، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث ، مما به قوامكم ، علما منه بمنافعكم ومضاركم ، أنه كذلك يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم ، ولتعلموا أنه بكل شيء " عليم " لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم ، وهو محصيها عليكم ، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته .

- قوله تعالي (مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) فصرح بكي التعليلية .

- وقوله تعالي (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

- والمتقرر في معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الله بأسمائه وصفاته أن كل كمال في الإنسان فالله أولي به ما لم يكن نقصا في حق الله تعالي ، والحكمة من الفعل كمال في العبد فلو لم يتصف بها الرب لكان نقصا ظاهرا في حقه سبحانه وتعالي ، ولكان العبد أكمل ، فالله عليم حكيم ، وبه تعلم أن من نفي الحكمة عن الله سبحانه قد تنقص منه أشد التنقيص وطعن اشد الطعن ، واسم الله الحكيم يتضمن كونه حكيما وحكما ومحكما متقنا كما قال تعالي (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ولا معني للإتقان والإحكام إذا لم يكن له غاية مقصودة فلو لم يكن له غاية التي هي الحكمة من الفعل لانتفي عنه الإحكام وإذا انتفي انتفي العلم من أصله .

وقد أجمع المسلمون علي اتصاف الله عز وجل بالحكمة وأنه حكيم إلا أن الفِرَق اختلفت في تفسير الحكمة :

أما الجبرية نفاة الحكمة والتعليل فقد حرفوا صفة الحكمة لله عز وجل فجعلوا معناها العلم كما حرفوا صفتي السمع والبصر تحريفا معنويا أيضا بجعلهما بمعني العلم .

وهذا هو سبب نفيهم للحكمة والتعليل من أفعال الله سبحانه ، فإنهم بهذا المعتقد الفاسد في صفات الله وتحريفهم لصفاته الفعلية المتجددة وغيرها وجعلها صفات ذاتية غير متجددة بتفسيرهم لها بمعني العلم جعلوا ما يحدثه العبد من خير أو شر حادثا مع السبب لا به فاستبدلوا باء السببية ب (عند) فلم يصر لسبب تأثير في مسبب فتلك هي حكمة الله عندهم أنه علم أن العبد سيحدث خيرا أو شرا عند وجود السبب بالمقارنة لا بالسبب .

إذ عندهم لو اعتقدوا تجدد الصفة - وما تتجدد إلا لحكمة - لأثبتوا الاحتياج وأنه مستكمل بغيره وهو ناقص قبل ذلك .

قال ابن تيمية (قولهم مستكمل بغيره باطل ؛ لأن ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته – يعني لا بقدرة غيره ومشيئة غيره ، فلم يكن بذلك محتاجا إلي غيره) .

وسأتوسع في نقض هذه الشبهة بعد قليل .

فلما كان اعتقادهم نفي الاحتياج المزعوم حرفوا صفات الله الفعلية التي أثبت تجددها سبحانه ، ونفوا الحكمة والتعليل في أفعاله .

فاهل السنة يثبتون الغايات المقصودة من الفعل ويرجعونها إلي العلم ، أما الجبرية فلا يثبتون غاية الفعل والحكمة منه وإنما يثبتون مجرد العلم .

وأما المعتزلة القدرية فصفة الحكمة عندهم مخلوقة كسائر الصفات فالسميع عندهم هو الذي خلق من يسمع وليس له من صفة السمع نصيب أو أنها صفات مستعارة - كما ذكر الدارمي ذلك عنهم في كتابه الفريد (نقض عثمان بن سعيد علي المريسي الجهمي العنيد فيما افتري علي الله في التوحيد)- وصفه بها خلقه وليس له منها

نصيب ؛ فهم ينفون جميع صفات الله تعالي بناء علي ما قرروه في نظريتهم في الأعراض والأجسام وقد توسعت في نقضها في كتابي (توحيد الله بأسمائه وصفاته) يسر الله الانتهاء منه .

والحكيم عندهم هو الذي خلق من يتصف بالحكمة من غير أن يعود عليه من الصفة شيء فعندهم يخلق ويأمر لحكمة تعود علي العباد وهو نفعهم والإحسان إليهم فلم يخلق ولم يأمر إلا لذلك ! ، وسبق أن الحكمة تعود عليه وعلي العباد ، فمعتقدهم في نظرية العرض والجسم أداهم لنفي صفات الله سبحانه وكان له أثر في اعتقادهم في القدر أن الإنسان خالق فعل نفسه ونفي الحكمة عن الله تعالي إنما هو خلق من له الحكمة وعلة أمره ونهيه إنما هي عائدة علي العبد لا عليه، وهم متناقضون فإنهم يقولون والظالم من جعل غيره ظالما ومن كان كذلك كان هو الظالم بناء علي معتقدهم في نظرية الظلم والعدل وأن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح لعباده، لأن في عباد الله من هو ظالم ، ثم في صفة الحكمة يقولون هو من خلق حكيما وليس هو بمتصف بالحكمة التي خلقها في عباده **!!**

والقول الثالث قول الكرامية الذين أثبتوا حكمة تعود علي الرب لكن بحسب علمه في العباد فمن تحققت فيه الحكمة من الخلق مثلا وهي توحيد الله كان مخلوقا لذلك ، ومن لم تتحقق فيه هذه الحكمة لم يكن مخلوقا لذلك ، **فالحكمة عندهم موجبة لا غائية .**

وقول الكرامية منقوض لأمور ، منها :

1. أن الآية لفظها عام ، ولو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة إذ الطاعة واقعة منهم علي ما أُمروا به وقد أدَّوا ما خلقوا له ومع ذلك لم يُذكروا في الآية .
2. أن سياق الآية سباقا ولحاقا وعيد للعاصين الذين لم يفعلوا ما خلقوا لأجله من التوحيد ، والكرامية تقول لم يخلقوا لذلك **!** .
3. أن القران كله يتضمن أمر الإنس والجن بتوحيده والقيام بما أمر به علي ألسنة رسله ، وأن من لم يفعل فقد استحق العقاب في الدنيا والآخرة .

الرد علي الأشاعرة الجبرية نفاة الاسباب والتعليل والحكمة من أفعال الله :

سبب إنكارهم ذلك ونفي الحكمة عن الله تنزيهه - زعموا - عن الاحتياج لأنهم يعتقدون أنهم إذا أثبتوا لله من فعله حكمة فقد اتهموه بأنه محتاج للأغراض ليعود عليه من هذه الأغراض نفع فنزهوه – زعموا - بنفي الحكمة من أفعاله – وسيأتي الان أن هذا النفع وهذه المصلحة إنما تعود علي خلقه لا عليه هو سبحانه فهو الغني - واعتقدوا أنه لا يفعل إلا لمجرد المشيئة ولا حكمة من فعله فقد يدخل إبليس الجنة **!!**، حتي شاع علي ألسنتهم قولهم (سبحان من تنزه عن الأغراض) ، وقالوا إذا لم نعتقد ذلك وقعنا في قول القدرية في نظرية الظلم والعدل والصالح والاصلح وأن الله يجب عليه أن يفعل الاصلح لعباده لأن الحكم يدور مع علته والحكمة منه وجودا وعدما .

والرد عليهم يسير يعلمه كل ذي فطرة سليمة ، فنقول :

1. القران مملوء بذلك في الخلق والأمر ومملوء بأنه يخلق الاشياء بالأسباب ، لا كما يقوله أتباع جهم ، أنه يفعل عندها لا بها ، كقوله تعالي (أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) ، وقوله (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك النشور) ، وقوله (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) ، وقوله (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) .

إنَّ الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأنَّ قدرةَ العبدِ مع فعله لها تأثيرٌ كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلقَ الأسباب والمسبّبات، والأسبابُ ليست مستقلّةً بالمسببات، بل لا بدَّ لها من أسبابٍ أُخر تعاونها، ولها مع ذلك أضدادٌ تمانعها، والمسبَّبُ لا يكونُ حتّى يخلقَ الله جميعَ أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته، كما يخلق سائرَ المخلوقات، فقدرةُ العبدِ سببٌ من الأسباب، وفعلُ العبدِ لا يكونُ بها وحدَها، بل لا بدَّ من الإرادة الجازمة مع القدرة.

وإذا أريد بالقدرة القوة القائمة بالإنسان ، فلا بد من إزال الموانع كإزالة القيد والحبس ونحو ذلك ، والصاد عن السبيل كالعدو ونحوه) ذكره ابن تيمية في المجموع جزء القدر .

والأشاعرة يردون ما استدللنا به من الآيات التي تقدمت في إثبات التعليل والحكمة من أفعال الله بلام التعليل و(كي) ، و يقولون هي لام العاقبة ، والرد عليهم :

- أن الله سبحانه وعد المؤمنين بالثواب العظيم وحذر العصاة والمخالفين من العذاب المهين وهذا صريح في إرادته سبحانه إرادة شرعية من خلقه أن يفعلوا ما أمروا به في كتبه وعلي ألسنة رسله ، وأن اللام وكي المذكورة في الآيات للتعليل لا للعاقبة أبدا .
- أن لام العاقبة تكون من جاهل أو عاجز كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) ولم يعلم فرعون بهذه العاقبة ، ومن العاجز كقول القائل (ابنوا للخراب) لأن كل من عليها فان ، وقائل ذلك عاجز عن دفع ذلك فقال ما قال ، والله عز وجل عليم قدير ، فتفسيرهم الآيات بلام العاقبة مردود .
- أنهم متفقون علي أن هذه الغاية وهي توحيد الله مرادة لله تعالي ، وإذا كانت اللام للعاقبة لم يكن الفاعل أراد العاقبة ، فليهم للنصوص وتحريفهم وتلبيسهم ظاهر .

2. إن الله سبحانه وتعالي لا يعود عليه من أفعاله نفع حتي نقول إنه محتاج سبحانه ، إنما النفع والمصلحة لخلقه وهو غني عنهم ، فلا يفعل ولا يشرع إلا ما كان فيه مصلحة خالصة أو راجحة لخلقه لا لنفسه أو ليدفع عنهم هم مفسدة خالصة أو راجحة لا ليدفع عن نفسه ، ولهذا قال تعالي (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ، وقال تعالي (إنهم لن يضروا الله شيئا) ، وقال تعالي (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضي لعباده الكفر) ، وقال تعالي (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) ، وقال تعالي (وقال موسي إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) ، وقال سبحانه في الحديث القدسي علي لسان رسول الله صلي الله عليه وسلم (يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني) .

قال ابن تيمية (قولهم مستكمل بغيره باطل ؛ لأن ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لا بقدرة غيره ومشيئة غيره ،فلم يكن بذلك محتاجا إلي غيره) .

3- أن قولهم منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات القديمة غير المتجددة عندهم ، فما كان جوابًا في المفعولات كان جوابًا عن هذا، ونحن لا نعقل في الشاهد فاعلًا إلا مستكملًا بفعله ، ففعله علامة كماله اي أن يكون فعالا لما يريد كيفما أراد ووقتما أراد .

4- وإذا قيل كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه إلي غيره كان كما لو قيل كمل بصفاته أو كمل بذاته ، فما كان جوابا منكم عن ذاته سبحانه فليكن هو جوابكم عن هذا .

5 – وقولهم (يقتضي قبل حصوله ناقصا) باطل فإن عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه من الكمال، كما أن وجوده في وقت اقتضاء الحكمة وجوده فيه كمال، فليس عدم كل شيء نقصًا، بل عدم ما يصلح وجوده هو النقص .

6- أن إيجاب ما يصلح للعباد إذا تحققت الحكمة منه فالله هو الذي أوجبه علي نفسه ولم يوجبه عليه خلقه والله يوجب علي نفسه ما يشاء فالخلق لا يوجبون علي الله شيئا أو يحرمون عليه شيئا بل هم أعجز من ذلك وأقل من ذلك وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، ولهذا قال تعالي (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ، وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (حق العباد علي الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا) .

7- و قولهم أن ذلك يستلزم التسلسل في المستقبل إذا خلق شيئا لحكمة توجد بعد وجود تلك الحكمة وهكذا لزم التسلسل في المستقبل فهذا جائز عند المسلمين وغيرهم ممن يقول بدوام نعيم أهل الجنة وعذاب اهل النار ، كما سبق بيانه في مسألة التسلسل ، فارجع إليها إن شئت .

8- أن الصالح عند المعتزلة القدرية هو أن لا يخلق فعل العاصي وألا يشاؤه بل يهديه ، وسبق نقض هذا المعتقد الظالم أول الكتاب في المعتقد المجمل ،وسيأتي مزيد بيان ، وقلنا أن الله يخذل العاصي ويذره وما اختار لنفسه وهو سبحانه مع ذلك لم يجعله كالبهيمة وإنما وهب له سمعا وعقلا وأرسل إليه رسلا وأنزل

كتبا لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل فكيف يسوي بين هذا العاصي والآخر المطيع هذا هو الظلم ، و أما أن يقول لك لا تفعل ثم تفعل فيعاقبك فهذا ليس ظلما أبدا إنما الظلم أن يقول لك افعل ثم يعاقبك علي ما أمرك به ، ولكن القدرية لا يعقلون ، نعوذ بالله من الخذلان .

ولهذا قال ابن تيمية في تائيته

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة : هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهمو لم يفهموا حكمة لها : فصاروا لي نوع من الجاهلية

غير أن مقياس الصالح والأصلح ليس راجعا إلي عقول البشر بل راجع لما تقتضيه حكمة الله .

وفي إثبات الحكمة في أفعال الله يقول ابن تيمية في تائية القدر

(وإبداعه ما شاء من مبدعاته : بها حكمة فيه وأنواع رحمة) ، وقال أيضا (فإن له في الخلق من نعم سرت : ومن حكم فوق العقول الحكيمة ، أمورا يحار العقل فيها إذا رأي : من الحكم العليا وكل عجيبة ، ولا ريب في تعليق كل مسبَّب : بما قبله من علة موجبية ، بل الشأن في الأسباب أسباب ما تري : وإصدارها عن حكم محض المشيئة) ، قال تعالي (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالي الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

واعلم – رحمك الله – أنه يكفي العبد أن يُسلّم لقضاء الله وقدره كم قال تعالي (ما اصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤون بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم) قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضي ويسلم ، وأن يعلم أن الله سبحانه لا يفعل شيئا إلا لحكمة بالغة علمها العبد أو لم يعلمها ، فإن علمها كان ذلك من فضل الله ورحمته بعباده يؤتيه من يشاء منهم مما به يزيد إيمانه ويقوي يقينه ، وإلا فالبحث عن ذلك قد يكون مضرة علي بعض العباد كما قال تعالي (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ، ولهذا قال تعالي (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) ، وقالت الملائكة سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

قال ابن تيمية في منهاج السنة (3/-37-39) :

(وحكمته وترتيب آثار الاختيار عليه من تمام حكمته وقدرته لكن يبقى الكلام في نفس الحكمة الكلية في هذه الحوادث فهذه ليس على الناس معرفتها ويكفيهم التسليم لما قد علموا أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

ومن العلوم ما لوعلمه كثير من الناس لضرهم علمه ، ونعوذ بالله من علم بلا ينفع ، وليس اطلاع كثير من الناس - بل أكثرهم – علي حكم الله في كل شيء نافعا لهم ، بل قد يكون ضارا ، قال تعالي (يا أيها الذين ءامنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم) ، وهذه المسألة مسألة غايات أفعال الله ، ونهاية حكمه مسألة عظيمة لعلها أجل المسائل الإلهية) .

وقال أيضا (وخلقه وتقديره يتعلق به وبجملة المخلوقات، فهو يفعل لما فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه، كالمطر، وإن كان في ضمن ذلك تضرر بعض الناس بسقوط منزله، وانقطاعه عن سفره، وتعطيل معيشته، وكذلك رسالة محمد ﷺ، لما في إرساله من الرحمة العامة، وإن كان في ضمن ذلك سقوط رئاسة قوم، وتألمهم بذلك) .

وقال (93/8) :

(يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك، والأمور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة، كإرسال محمد ﷺ، فإنه كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} ، فإن إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق، وفيه أعظم حكمة للخالق ورحمة منه لعباده كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} ، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} ، وقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ} ، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرًا} قالوا: هو محمد ﷺ.

فإذا قال قائل: فقد تضرر برسالته طائفة من الناس، كالذين كذبوه من المشركين وأهل الكتاب، كان عن هذا جوابان:

أحدهما: أنه نفعهم بحسب الإمكان، فإنه أضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة بإظهار الحجج والآيات التي زلزلت ما في قلوبهم، وبالجهاد والجزية التي أخافتهم وأذلتهم حتى قل شرهم، ومن قتله منهم مات قبل أن يطول عمره في الكفر فيعظم كفره، فكان ذلك تقليلا لشره، والرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

والثاني: أن ما حصل من الضرر أمر مغمور في جنب ما حصل من النفع، كالمطر الذي عم نفعه إذا خرب به بعض البيوت، أو احتبس به بعض المسافرين والمكتسبين كالقَصَّارين ونحوهم، وما كان نفعه ومصلحته عامة، كان خيرًا مقصودًا ورحمة محبوبة وإن تضرر به بعض الناس، وهذا الجواب أجاب به طوائف من المسلمين وأهل الكلام والفقه وغيرهم من الحنفية والحنبلية وغيرهم ومن الكرامية والصوفية، وهو جواب كثير من المتفلسفة.

وقال هؤلاء: جميع ما يحدثه في الوجود من الضرر، فلابد فيه من حكمة، قال الله تعالى: {صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} وقال: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} والضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرًا مطلقًا، وإن كان شرًا بالنسبة إلى من تضرر به؛ ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالي وكلام رسوله ﷺ إضافة الشر وحده إلى الله؛ بل لا يذكر الشر إلا علي أحد وجوه ثلاثة) انتهي كلامه ، و قد سبقت هذه الوجوه في بيان الفرق بين المقضي والقضاء والمقضي فارجع إليها .

وقال ابن القيم في شفاء العليل

(ولو ذهبنا نذكر ما يطَّلع عليه أمثالُنا مِن حكمة الله في خلقه وأمره؛ لزاد ذلك على عشرة آلاف موضعٍ، مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله، كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب، وإلا فالأمرُ فوق ذلك) .

ويحسن هنا أن أنبه إلي أنه لا تعارض بين إثبات الأسباب والسعي في تحصيلها وبين تحقيق التوحيد باعتقاد أن نفوذها وعدم نفوذها إنما هو بإرادة الله ومشيئته الكونية وإذنه ، فلا يتعلق بها قلب الموحد ، وهذا المعتقد المستقيم لطالما أساء فهمه وتحقيقه كثير من الناس

قال ابن تيمية (70/8) :

(الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لابد من ريح مُرْبِيَة بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع).

وقال (8/ 169 وما بعدها) :

(ومما ينبغي أن يعلم: ما قاله طائفة من العلماء، قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب: أن تكون أسبابًا، نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس مستقلا، ولابد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله، فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهذا مما يبين أن الله رب كل شيء ومليكه، وأن السموات والأرض وما بينهما والأفلاك وماحوته لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلا بإحداث شيء من الحوادث، بل لابد من مشارك ومعاون وهو مع ذلك له معارضات وممانعات .

وأما قولهم: محو الأسباب أن تكون أسبابًا: نقص في العقل، فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا، فإن كثيرًا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها، كما أن أولئك الطبعيين جعلوها عللا مقتضية، وكما أن المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها، والأقوال الثلاثة باطلة؛ فإن الله يقول: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} ، وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلَ الله مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} ، وقال تعالى: {يَهْدِي بِهِ الله مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} ، وقال تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} ، وأمثال ذلك، فمن قال: يفعل عندها لا بها، فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر، وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر.

وأما قولهم: الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، بل هو أيضا قدح في العقل، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها، فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار، فهو من أعظم الناس جهلا وأشدهم كفرًا، بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب، فيما نيط بها من العبادات، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات.

ومع هذا، فقد قال خير الخلق: «إنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، ولما قال لهم: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة».

وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببًا له، فمن قال: ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت أو لم أدع، وتوكلت أو لم أتوكل، فهو بمنزلة من يقول: ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي آمنت أو لم أؤمن، وأطعت أم عصيت، ومعلوم أن هذا ضلال وكفر، وإن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال؛ إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان، لكن لا ريب أن ما جعل الله الدعاء سببًا له، فهو بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببًا له، وهو قادر على أن يفعله سبحانه بدون هذا السبب، وقد يفعله بسبب آخر.

وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أو استحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قادح في الشرع خارج عن العقل، ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها، وظنوا أن هذا من تمام التوكل، والتوكل مقرون بالعبادة في قوله: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} ، والعبادة فعل المأمور، فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل، لم يكن أحسن حالا ممن عبده ولم يتوكل عليه، بل كلاهما عاص لله تاركًا لبعض ما أمر به.

والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر، والتوكل عليه ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه، فالاستعانة تكون على الأعمال، وأما التوكل فأعم من ذلك ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ الله وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى الله رَاغِبُونَ} ، وقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} فمن لم يفعل ما أمر به، لم يكن مستعينًا بالله على ذلك، فيكون قد ترك العبادة والاستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضع أيضا، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور وهذا هو العجز المذموم، كما في سنن أبي داود: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فحكم على أحدهما فقال المقضي عليه: حسبى الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإن غلبك أمر فقل: حسبى الله ونعم الوكيل»، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»).

وقال ابن تيمية أيضا ـ رحمه الله - :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ يُغْنِي عَنْ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا، فَهُوَ ضَالٌّ، وَهَذَا كَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْهِ مِن السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ بِدُونِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا سُئِلَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ فَقَالَ: لَا؛ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ـ وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ: أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَكْدَحُونَ أَفِيمَا جَفَّتْ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتْ الصُّحُفُ؟ وَلَمَّا قِيلَ لَهُ: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ قَالَ: لَا؛ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ. **انتهى كلامه .**

وقال ابن القيم في المدارج:

الِالْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: شِرْكٌ، وَالْآخَرُ: عُبُودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ، فَالشِّرْكُ: أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا وَيَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا، وَيَعْتَقِدَ أَنَّهَا بِذَاتِهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْمَقْصُودِ، فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ السَّبَبِ لَهَا، وَيَجْعَلُ نَظَرَهُ وَالْتِفَاتَهُ مَقْصُورًا عَلَيْهَا، وَأَمَّا إِنِ الْتَفَتَ إِلَيْهَا الْتِفَاتَ امْتِثَالٍ وَقِيَامٍ بِهَا وَأَدَاءٍ لِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ فِيهَا، وَإِنْزَالِهَا مَنَازِلَهَا: فَهَذَا الِالْتِفَاتُ عُبُودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ، إِذْ لَمْ يَشْغَلْهُ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْمُسَبِّبِ، وَأَمَّا مَحْوُهَا أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا: فَقَدْحٌ فِي الْعَقْلِ وَالْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ، فَإِنْ أَعْرَضَ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ: كَانَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي الشَّرْعِ، وَإِبْطَالًا لَهُ. **انتهى.**

وقال في مفتاح دار السعادة :

(فالمقامات ثلاثة:

- أحدها تجريد التوحيد وإثبات الأسباب، وهذا هو الذي جاءت به الشرائع، وهو مطابق للواقع في نفس الأمر.

- والثاني: الشرك في الأسباب بالمعبود، كما هو حال المشركين على اختلاف أصنافهم.

- والثالث: إنكار الأسباب بالكلية؛ محافظة من منكرها على التوحيد.

فالمنحرفون طرفان مذمومان: إما قادح في التوحيد بالأسباب، وإما منكر للأسباب بالتوحيد. والحق غير ذلك، وهو: إثبات التوحيد والأسباب، وربط أحدهما بالآخر)

وقلت في كتابي (اللآلئ الدرية شرح المنظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث) موضحا مذاهب العلماء من المحدثين والفقهاء في أوجه الجمع بين أحاديث أثبت فيها رسول الله صلي الاله عليه وسلم العدوي ونفاها ، ولا تعارض فيها بحمد الله ، فقلت :

(والمنكر للأسباب ادعاء التوحيد جبري مبتدع حيث أبطل سنن الله الكونية وانظر في ذلك معتقد أهل السنة والجماعة في التسلسل والأثر والمؤثر والسبب والمسبب والعلة والمعلول من كتابي (كتاب القضاء والقدر بيان معتقد الحماعة والرد علي القدرية والجبرية .

والقادح في التوحيد بالأسباب مشرك شركا أكبر أو أصغر بحسب حاله ومقصده ، حيث تعلق بالسبب عن الله - سبحانه - تعلقا غالبا علي قلبه بحيث ينسي نعمة الله عليه ولا يولي الفضل أهله فهذا من الشرك الأصغر ، أو اعتقد أنها أسباب تؤثر بذاتها من دون الله فهذا مشرك شركا أكبر كحال الطبيعيين الملحدين في كل زمان ومكان وأما معتقد الموحدين أهل السنة وهم الطائفة الوسط المنصورة والفرقة الناجية فهو إثبات الأسباب والعدوي وإثبات التوحيد وذلك باعتقاد أن العدوي مجرد سبب قد يتخلف وقد ينفذ وكله بإذن الله سبحانه وتعالي) .

ومسألة الحكمة متعلقة بمسألة التحسين والتقبيح العقليين :

أما الأشاعرة الجبرية فإنهم لما نفوا الحكمة عن الله سبحانه وأنه لا تعلق لسبب بمسبب ولا لعلة بمعلول كما سبق بناء علي نفي افعال الله الاختيارية وصفاته الفعلية والذاتية لنفي الاحتياج بزعمهم ، صار الحسن والقبح لا يعلم إلا من الله وإن كان ظاهره للإنسان حسنا أوقبيحا، فالتوحيد لم يعلم حسنه إلا بعد إرسال الرسل ، والشرك لم يعلم قبحه إلا بعد إرسال الرسل ، فأرسل الله الرسل ليعلموا الناس حسن التوحيد وقبح الشرك **!** وقبح الزنا وقبح السرقة ونحوه ذلك وإلا فهي قبل إرسال الرسل غير معلوم قبحها **!**

ولأن القبيح عندهم هو الممتنع لذاته كما سيأتي في نقض معتقدهم في التكليف بما لا يطاق وتعريفهم لمعني الظلم، وفي ذلك يقول أبو الحسن الاشعري في رسائل أهل الثغر :

(وأجمعوا علي أن القبيح من أفعاله خلقه ما نهاهم عنه ، وزجرهم عن فعله ، وأن الحسن ما امرهم به أو ندبهم إلي فعله أو أباحه لهم)، وقال الجويني في الإرشاد (العقل لا يدل علي حسن شيء ولا قبحه في حكم التكليف ، وإنما يتلقي التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع) .

فأرجعوا العلم بما هو حسن وما هو قبيح إلي مجرد المشيئة الخالية من الحكمة ، فعندهم قد يدخل المؤمنين النار وأبا لهب الجنة **!!!!** كما صرح بذلك أشاعرة مصر كعلي جمعة .

واما القدرية فلما أعادوا الحكمة إلي المخلوق ولم يعد عندهم منها شيء لله تعالي صار العلم بما هو قبيح كالشرك ، وبما هو حسن كالتوحيد معلوم بالعقل إلا أنهم ضلوا لما رتبوا علي مجرد ذلك الثواب والعقاب ولو لم يبعث رسول .

والصحيح الذي لا مرية فيه بحمد الله أن الحسن والقبح قد يعلم بالعقل وبالفطرة أو منه ما يعلم بالعقل وبالفطرة لكن لا يترتب علي مجرد ذلك العقاب إلا بعد إرسال الرسول .

وفي ذلك قلت في شرح حديث إسلام عمرو بن عبسة – رضي الله عنه – يسر الله إخراجه :

(وقوله (أظن أن الناس علي ضلالة وهم يعبدون الأوثان)

فيه إثبات معرفة قبح الشرك بالعقل والفطرة ، وحسن التوحيد كذلك بالعقل والفطرة ، وأما العذاب فلا ينزل إلا بعد بلوغ الحجة الرسالية التي ينقطع معها العذر وتثبت الحجة

قال ابن القيم رحمه الله:

(وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابيةكليهما، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعهما بين هذين الأمرين، فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي، وأحسنوا في رد ذلك عليهم، واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الأفعال في أنفسها، وأحسنوا في رد هذا عليهم، فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب، وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله، ولا الظفر عليه أصلا فانه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالف في باطلها منكر له) .

وقال كذلك:

(والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل أنه لا تلازم بينهما [أي بين الحسن والقبح الذاتي المدرك بالعقل، وترتب الثواب والعقاب عليهما] وأن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة كما أنها نافعة وضاره، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات ،ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحا موجبا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل، فالسجود للشيطان والأوثان والكذب والزنا والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها والعقاب عليها مشروط بالشرع) **انتهي كلامه** .

وخالف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة :

أما الأشاعرة فقالوا بأن الشرك ليس معلوما قبحه بالفطرة ولكن الله أرسل الرسل لبيان قبحه ولبيان حسن التوحيد ، وقولهم باطل مناقض للايات والأحاديث .

منها قوله تعالي

(وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقوله

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

إلي غير ذلك من الايات التي اقام الله الحجج العقلية عليهم بها

وقوله صلي الله عليه وسلم (إن الله نظر إلي أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب) وقد تقدم الحديث

فبين سبحانه أنهم مستحقون للعذاب بشركهم ،ولكن لن ينزل عليهم إلا بعد إقامة الحجة بالرسول ، حتي تنقطع المعذرة .

وعلي النقيض اعتقدت المعتزلة أن أن الفطرة كافية وأن العقل كاف لإنزال العذاب فجوزوا التعذيب بموجب الفطرة وإن لم يرسل رسول ، وناقضوا قول الله عز وجل (وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا) ، وكذلك الأحاديث التي فيها امتحان أهل الفترة) **انتهي .**

9) ويحسن هنا أن أذكر معتقدهم في التكليف بما لا يطاق ورده ، لأنه من جملة شبهاتهم المرذولة المردودة

فمذهب الجماعة أن الله لا يكلف العباد إلا ما يطيقون ويستطيعون ، قال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا} {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} .

وهل يطيق العبد أكثر من ذلك ؟

ما كان لنا أن نتكلم في مثل هذه المسألة لولا خوض أهل البدع فيها بالباطل لا سيما الجبرية ؛ فقولهم فيها ترتب عليه مفاسد كثيرة قد سبق التنويه عليها ، فكان لا بد من البيان والرد .

قال ابن تيمية في المجموع (293-298)

(قد كتبنا فى غير هذا المو ضع ما قاله الأوزاعي و سفيان الثوري و عبد الرحمن بن مهدي و أحمد بن حنبل و غيرهم من الأئمة من كراهة إطلاق الجبر و من منع إطلاق نفيه أيضا ، و كذلك أيضا القول بتكليف ما لا يطاق لم تطلق الأئمة فيه واحدا من الطرفين قال أبو بكر عبد العزيز صاحب الخلال فى كتاب القدر الذي فى مقدمة كتاب المقنع له لم يبلغنا عن أبي عبد الله فى هذه المسألة قول فنتبعه و الناس فيه قد إختلفوا فقال قائلون بتكليف مالا يطاق و نفاه) .

وقال ايضا (8/ 293)

(وسلف الأمة وأئمتها ينكرون هذه الإطلاقات كلها، لا سيما كل واحد من طرفي النفي والإثبات على باطل، وإن كان فيه حق أيضًا، بل الواجب إطلاق العبارات الحسنة وهي المأثورة التي جاءت بها النصوص، والتفصيل في العبارات المجملة المشتبهة)

وقال (461/8)

(حتى في لفظ الجبر أنكروا على مَن قال: جبر، وعلى مَن قال: لم يجبر. والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وغيرهم من سلف الأمة وأئمتها) .

وقال (16/ 237)

(ولهذا نص الأئمة كالإمام أحمد ومَنْ قَبْلَهُ من الأئمة كالأوزاعي وغيره على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيًا وإثباتًا، فلا يقال: إن الله أجْبَرَ العباد. ولا يقال: لم يُجْبِرْهُم. فإن لفظ الجبر فيه اشتراك وإجمال، فإذا قيل: أجْبَرَهُم، أشعر بأن الله يُجْبِرُهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم. وإذا قيل: لم يُجْبِرْهم، أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير اختياره، وكلاهما خطأ) .

وقال (664/7)

(وكذلك لفظ الجبر، إذا قال: هل العبد مجبور أو غير مجبور؟ قيل: إن أراد بالجبر أنه ليس له مشيئة، أو ليس له قدرة، أو ليس له فعل، فهذا باطل؛ فإن العبد فاعل لأفعاله الاختيارية، وهو يفعلها بقدرته ومشيئته، وإن أراد بالجبر أنه خالق مشيئته وقدرته وفعله فإن الله تعالى خالق ذلك كله) .

قال الشيخ عبد العزيز الراجحي معلقا علي شرح ابن أبي العز للطحاوية :

(ولم يكلفهم الله -سبحانه وتعالى- إلا ما يطيقون، هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، أن الله - تعالى- لا يكلف العبد إلا ما يطيق، إلا ما يستطيع قال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا} {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} وهل يكلف الله العبد بشيء لا يطيقه؟ أو هي يطيق أقصي مما كلفه الله به ؟

اختلف الناس في هذا، في التكليف فيما لا يطاق على مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الأشعرية وبعض المعتزلة ببغداد، والبكرية أتباع بكر بن زياد الباهي، فقالوا: إن تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، وذلك كالجمع بين الضدين، وقلب الأجناس كجعل الشجر فرسا، أو الفرس إنسانا، أو

الحيوان نباتا، وإيجاد القديم وإعدامه، قالوا: تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، لكن هل ورد به الشرع، تردد أصحاب أبي الحسن الأشعري هل ورد به الشرع فوقع أم لا ؟ على قولين .

استدل من قال: إنه وقع بقصة أبي لهب قالوا: فإن الله أمر أبا لهب بالإيمان مع أن الله أخبر بأنه لا يؤمن وأنه سيصلى نارا ذات لهب، فأبو لهب مكلف بأن يؤمن بالقرآن، وفى ضمن القرآن أن يؤمن بأنه لا يؤمن، فكان أبو لهب مأمورا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال لا يطاق هذا جوابه.

والجواب عن هذا بالمنع، لا نسلم بأن أبا لهب مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، بل هو مأمور بالإيمان والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان التي هي بمعنى توفر الأسباب، والآلات كانت حاصلة له فهو غير عاجز على تحصيل الإيمان فما كلف إلا ما يطيقه.

واستدلوا بقول الله تعالى عن الملائكة: {أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ} وقول الله تعالى للمصورين في الحديث القدسي: (أحيوا ما خلقتم) قالوا: هذا تكليف ما لا يطاق

و أجيب بأن الأمر في الآية والحديث ليس بتكليف بطلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه بل هو خطاب تعجيز، واستدلوا بدعاء المؤمنين في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} وأجيب بأنه لا يلزم من ذلك أن يكلف الإنسان ما لا يستطيعه، والمعنى لا تصبنا بشيء يهلكنا أي تصبنا بما نعجز عن طاقته فنهلك.

قلت ومثله : قوله تعالي (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلي السجود فلا يستطيعون) فهذا ليس أمر تكليف حتي يقولوا بجواز تكليف ما لا يطاق ، بل هو أمر تعجيز علي وجه العقوبة لتركهم السجود وهم سالمون أصحاء فعاقبهم علي ترك العبادة حال قدرتهم .

المذهب الثاني قالوا: يجوز التكليف بالمستحيل العادي دون المستحيل العقلي أي يجوز تكليف الممتنع عادة، وهو ما يتصور العقل وجوده مع خارق للعادة على يد نبي أو ولي دون الممتنع لذاته أي عقلا، وهو ما لا يتصور العقل وجوده أصلا كالجمع بين الضدين؛ لأنه ممتنع لذاته لا يتصور وجوده فلا يعقل الأمر به بخلاف الممتنع عادة فيتصور العقل وجوده فيعقل الأمر به.

المذهب الثالث: قالوا ما لا يطاق للعجز عنه، وهو المستحيل العادي والعقلي لا يجوز التكليف به، وما لا يطاق للاشتغال بضده كاشتغاله بلعب القمار أو الكرة عن الصلاة، فإنه يجوز التكليف به.

هؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى لكن تسميتهم ما يتركه العبد ما لا يطاق؛ لكونه مشتغلا بضده بدعة في الشرع واللغة، فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه، وهم قد التزموا هذا لقولهم: إن الطاقة والاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فقالوا: كل من لم يفعل فعلا فإنه لا يطيقه.

وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف وخلاف ما عليه عامة العقلاء؛ لأن ما يقدر الإنسان على فعله وتركه هو مناط التكليف، بخلاف ما لا يكون إلا مقارنا للفعل فذلك ليس شرطا في التكليف، والتعبير السليم أن يقال ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز التكليف به ، وما عداه فيجوز التكليف به.

ومن أدلة هذا القول قول الله -تعالى-: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} وقوله -عليه الصلاة والسلام-: (بعثت بالحنفية السمحة ليلها كنهارها) وقوله صلى الله عليه وسلم (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) نعم.

ولم يكلفهم الله -تعالى- إلا ما يطيقون .

هذا معتقد أهل السنة والجماعة أن الله -تعالى- ما كلف العباد إلا ما يطيقون، رحمة منه وإحسانا كما قال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا} نعم .

قال الطحاوي (ولا يطيقون إلا ما كلفهم)

وهذا باطل، قوله: لا يطيقون إلا ما كلفهم هذا ليس بصحيح بل العباد يطيقون أكثر مما كلفهم.

معنى هذا الكلام أن الإنسان لا يستطيع أكثر مما كلف به، يعني لا يستطيع الإنسان الزيادة على الصلوات الخمس ، كلفنا الله بالزيادة، كلفنا الله بالصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة، وكلفنا الله بصيام رمضان، وكلفنا الله بالحج في العمر مرة.فمعنى قول الطحاوي: "ولا يطيقون إلا ما كلفهم" يعني: العباد لا يستطيعون أن يأتوا

بأكثر من خمس صلوات، ولا يستطيعون أن يصوموا أكثر من شهر، ولا يستطيعون أن يحجوا إلا مرة واحدة في العمر، هل هذا صحيح ؟ ليس بصحيح نستطيع أكثر من صلاة.

لو كلف الله بست صلوات أو سبع عشر استطعنا لو كلفنا الله بأكثر من صيام ثلاثين يوم استطعنا، لو كلفنا الله بأكثر من حج بأكثر من مرة في الحج استطعنا، لكن الله لطف بنا ويسر وسهل.

قال سبحانه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} وقال سبحانه: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (إن هذا الدين يسر) فقول الطحاوي: "لا يطيقون إلا ما كلفهم"، هذا غلط يتمشى مع مذهب الجبرية الذين يقولون: إن الطاقة والوسع لا تكون إلا مع الفعل فهذا من أخطائه عفى الله عنا وعنه ، والجواب أن نقول: إن العباد يطيقون أكثر مما كلفهم ولكن الله يسّر وسهّل ، نعم.

قال الطحاوي :وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله

قال عبد العزيز : نعم لا حول ولا قوة إلا بالله يعني لا تحول من حال إلى حال، ولا قوة للإنسان على فعل ذلك إلا بالله، هذه كلمة عظيمة، كنز من كنوز الجنة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال لأبي موسى: (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)

(لا حول ولا قوة إلا بالله) هذه كنز من كنوز الجنة، ولها تأثير عظيم في تخفيف الحزن والألم والمصائب عن العبد، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما معنى لا حول ؟ يعني لا تحول من حال إلى حال ولا قوة للإنسان على فعل شيء إلا بالله ، فلا تستطيع أن تتحول من حال، لا تتحول من الشر إلى الخير، ولا تتحول من المعصية إلى الطاعة ولا تتحول من الذنب إلى التوبة، ولا قوة لك على ذلك إلا بالله عز وجل .

فإذا وفقك الله وأعانك تحولت من حال إلى حال، تحولت من المعصية إلى الطاعة، تحولت من الذنب إلى التوبة وقدرت على ذلك، وقواك الله على ذلك بأن وفقك وهداك وقذف في قلبك النور والهداية، وجعلك تقبل الحق وترضاه وتختاره وتريده، وقذف في قلبك الإرادة والقوة على ذلك، وأعانك فإنك تستطيع لا حول ولا قوة إلا بالله . نعم .

قال الطحاوي :نقول لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله

قال عبد العزيز :كما سبق لا تحول من المعصية إلى الطاعة إلا بمعونة الله وتوفيقه. نعم.

إقامة طاعة الله والثبات عليها بتوفيق الله

ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله .

لا قدرة للإنسان على إقامة الطاعة والثبات عليها والاستقامة عليها إلا بالله ، فالله تعالى هو الموفق للخير والطاعة، وهو المثبت لعبده المؤمن ، نسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه حتى الممات ، نعم) **انتهي كلامه .**

قال ابن تيمية (8/ 298وما بعدها) :

(وفصل الخطاب في هذه المسألة: أن النزاع فيها في أصلين:

أحدهما: التكليف الواقع الذي اتفق المسلمون علي وقوعه في الشريعة وهو أمر العباد كلهم بما أمرهم الله به ورسوله من الإيمان به وتقواه هل يسمى هذا أو شيء منه تكليف ما لا يطاق؟ فمن قال: بأن القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول: إن العاصي كلف مالا يطيقه، ويقول: إن كل أحد كلف حين كان غير مطيق، وكذلك من زعم أن تقدم العلم والكتاب بالشيء يمنع أن يقدر على خلافه، وقال: إن كلف خلاف المعلوم فقد كلف ما لا يطيقه، وكذلك من يقول: إن العرض لا يبقى زمانين، يقول: إن الاستطاعة المتقدمة لا تبقى إلى حين الفعل.

وهذا في الحقيقة ليس نزاعًا في الأفعال التي أمر الله بها ونهى عنها، هل يتناولها التكليف؟ وإنما هو نزاع في كونها غير مقدورة للعبد التارك لها وغير مقدورة قبل فعلها، وقد قدمنا أن القدرة نوعان، وأن من أطلق القول بأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، فإطلاقه مخالف لما ورد في الكتاب والسنة وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها كإطلاق القول بالجبر وإن كان قد أطلق ذلك طوائف من المنتسبين إلى السنة في ردهم على القدرية من المنتسبين إلى الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة كأبي الحسن، وأبي بكر عبد العزيز، وأبي عبد

الله بن حامد، والقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي، وأبي الحسن بن الزاغوني وغيرهم، فقد منع من هذا الإطلاق جمهور أهل العلم كأبي العباس ابن سريج، وأبي العباس القلانسي، وغيرهما، ونقل ذلك عن أبي حنيفة نفسه، وهو مقتضى قول جميع الأمة.

ولهذا امتنع أبو إسحاق بن شاقلا من إطلاق ذلك، وحكى فيه القولين: فقال: - فيما ذكره عنه القاضي أبو يعلى: الاستطاعة مع الفعل أو قبله، حجة من قال: إن الصلاة والحج والجهاد، لا يجوز أن يأمر به غير مستطيع، وحجة من قال: إن الفعل خلق من خلق الله عز وجل، فإذا خلق فيه فعلا فعله.

وهذا كما أن من قال: إنه ليس للعبد إلا قدرة واحدة يقدر بها على الفعل والترك، وأنه مستغن في حال الفعل عن معونة من الله تعالى يفعل بها، وسوى بين نعمته على المؤمن والكافر والبر والفاجر، فهو مبطل وهم من القدرية الذين حاد منهم في الأيام المشهورة حيث كان قولهم: إن العبد لا يفتقر إلى الله تعالى حال الفعل بالبر عما وجد قبل الفعل وأنه ليس لله تعالى نعمة أنعم بها على من آمن به وأطاعه أكبر من نعمته علي من كفر به وعصاه، فهذا القول خطأ قطعًا؛ ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على تضليل صاحب هذا القول.

ثم النزاع بينهم بعد ذلك في هذه الأمور كثير: منه لفظي، ومنه ما هو اعتباري، كتنازعهم في أن العرض هل يبقى أم لا يبقى، وبنوا على ذلك بقاء الاستطاعة، ولكن أحسن الألفاظ والاعتبارات ما يطابق الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة وأئمتها والواجب أن يجعل نصوص الكتاب والسنة هي الأصل المعتمد الذي يجب اتباعه ويسوغ إطلاقه، ويجعل الألفاظ حتى تنازع فيها الناس نفيًا أو إثباتًا موقوفة على الاستفسار والتفصيل، ويمنع من إطلاق نفي ما أثبته الله ورسوله، وإطلاق إثبات ما نفى الله ورسوله.

والأصل الثاني: فيما اتفق الناس على أنه غير مقدور للعبد، وتنازعوا في جواز تكليفه، وهو نوعان: ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران ونحو ذلك، وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، فهذا في جوازه عقلا ثلاثة أقوال كما تقدم ـ قلت وقد تقدمت في شرح الطحاوية السابق ـ ، وأما وقوعه في الشريعة وجوازه شرعًا فقد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع في الشريعة، وقد حكى انعقاد الإجماع على ذلك غير واحد) انتهي .

10) وقد نقض الجهمية والجبرية بمعتقدهم ذلك كثيرا من العبادات كالحمد والشكر والاستعانة وغيرها

قال ابن تيمية (8/ 211) :

(ليس عند الجهمية إلا قدرة، والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد، وحقيقة مذهبهم: أنه لا يستحق الحمد؛ فله ملك بلا حمد، كما أن عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك، وعند السلف له الملك والحمد تامّين.

قال تعالى: {شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ، فله الوحدانية في إلهيته، وله العدل وله العزة والحكمة، وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نقص الرب بعض حقه.

والجهمي الجبري لا يثبت عدلا ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته، والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلا ولا عزة ولا حكمة، وإن قال: إنه يثبت حكمة ما، معناها يعود إلى غيره، فتلك لا تكون حكمة، فمن فعل لا لأمر يرجع إليه بل لغيره، فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم، وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة، فقد ثبت أنه رأس الشكر، فهو أول الشكر والحمد، وإن كان على نعمة وعلى حكمة، فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلا في الشكر) **انتهي كلامه .**

معتقد القدرية والرد عليهم

بدعة القدر أصلها نصراني ، ابتدأها سوسن بالعراق ، أسلم ثم تنصر ، ثم أخذها عنه معبد الجهني الذي أخذها عنه غيلان القدري ، قتله هشام بن عبد الملك بعدما أظهر التوبة تقية في عهد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالي - ودعا عليه عمر فقال اللهم إن كان كاذبا فاصلبه ، فصلبه هشام في عهده بعد موت عمر .

وينكر غلاة القدرية أول مرتبتين من مراتب القدر ، وهما العلم والكتابة ،ويقولون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وأنها لم تكتب، و يقولون إن الأمر أنف أي مستأنف ، والمتأخرون منهم أقروا بالعلم والكتابة ولكن أنكروا المرتبتين الثالثة والرابعة وهما مرتبتا المشيئة والخلق ،هذا بالنسبة لأفعال المخلوقين أما بالنسبة لأفعال الله فلا أحد ينكر أن الله عالم بها قبل وقوعها ،وهؤلاء الغلاة الذين ينكرون علم الله بأفعال العبد حكمهم في الشرع أنهم كفار ؛لأنهم كذبوا قول الله تعالي (والله بكل شيء عليم) وغيرها من الآيات فأنكروا المعلوم بالضرورة من الدين ، وهؤلاء من المعتزلة والشيعة القدرية متناقضون فإنهم نفوا صفات الله بحجة تنزيهه عن التشبيه – زعموا ، وهم المشبهة – ثم إذا بهم يشبهونه بالمخلوق ويقيسون فعل المخلوق علي الخالق سبحانه ، فهم مشبهة في الأفعال .

وقد خرج أولئك الغلاة في زمن ابن عمر رضي الله عنهما ،منهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم رحمه الله عن يحيي بن يعمر قال كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ : مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ ، حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، فَقُلْنَا : لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا ، وَصَاحِبِي ، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَن ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ ، وَذَكَرَ

مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ ، قَالَ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ ، مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ .

ثم ساق حديث جبريل في أن الإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان .

والقدري يقول لم لم يهدي العاصي للصلاح والايمان ولم يجعل تارك الصلاة مصليا فينفون المشيئة وهو قول المتوسطة منهم ، وينفون العلم وهو قول الغلاة ، ويقولون هو ظلمٌ أن يشاء فعل العاصي ويخلقه ؛ لأن العدل عندهم أن يصرفه عن معصيته فلما لم يصرفه عنها نفوا المشيئة والخلق لأنه لا يشاء المعصية ولا يخلق فعل العصاة وجهلوا الفرق بين الارادة الشرعية والقدرية الكونية فإنه أرادها كونا لا شرعا ، ولكنهم يقولون أمره بالخير ففعل الشر فكان ما لم يرد الله ولم يفرقوا بين نوعي الإرادة وقالوا كيف يخلق فعل الزاني مثلا من العصاة ويشاؤه فنفوا مرتبة الخلق والمشيئة والغلاة يقولون لو علم قديما لأصلح الفاسد العاصي وهداه ولكن لما لم يصلحه فهو لم يعلم فنفوا علمه ونفوا المشيئة والخلق إذ لم يقدر علي فعل العبد فلم يحل بينه وبين معصيته .!! سبحلن الله وتعالي عما يشركون .

ولهذا سبق أول الكتاب أن سبيل أهل السنة في باب القدر السكوت وعدم الخوض فيه بالباطل .

الرد علي القدرية :

1) مردود عليهم بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة في أن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله عز وجل:

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} ، {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

ومردود عليهم بالآيات الكثيرة التي فيها إثبات علم الله وكتابته لكل شيء شاءٍ له كونا ، خالق للعبد ولفعله ، وأدلة كل مرتبة من هذه المراتب الاربعة قد سبقت فارجع إليها ، فإنك إذا فهمت هذه المراتب بأدلتها وعلمت الفرق بين نوعي الإرادة خرجت إن شاء الله تعالي من بدعة القدر والجبر .

2- ونرد عليهم بالفرق الواضح بين نوعي الإرادة – كما سبق في بيان مرتبة المشيئة وأدلتها فقد بينت هناك الفرق بين نوعي الإرادة تفصيليا - فإن الله قد شاء المعصية وأرادها كونا لا شرعا وهم لما جهلوا ذلك ظنوا أن نفي مشيئته للمعصية تنزيه له لأنه أمر بها شرعا ، فأرادوا تنزيها فأساؤوا إلي ربهم وانتقصوا منه غاية الانتقاص أن يقع في ملكه ما لا يقدر عليه وبغير إذنه بل غلاتهم يقول بغير علمه ، سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وارجع للمعتقد المجمل أول الكتاب في أن هذا ليس ظلما بل هذا هو العدل فإنه قد أرسل إليهم رسلا وأنزل كتبا وهو إنما يعذب من عصاه بعد ذلك كما قال (وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا) ، ويعذبهم علي ارتكابهم ما نهي عنه لا علي ما أمر به ، إنما الظلم أن يعذب علي ما أمر به ، وفي المعتقد المجمل أول الكتاب زيادة بيان .

3- والذين يقولون بهذا القول هم في الحقيقة مبطلون لجانب من جوانب الربوبية ، مدعون بأن في ملك الله تعالى ما لا يشاؤه ولا يخلقه ، والله تبارك وتعالى شاءٍ لكل شي خالق لكل شي مقدر لكل شيء .

وروى اللالكائي ، من حديث بقية عن الأوزاعي ، حدثنا العلاء بن الحجاج ، عن محمد بن عبيد المكي ، عن ابن عباس قال : قيل لابن عباس : إن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلوني عليه ، وهو يومئذ أعمى ، فقالوا له : ما تصنع به ؟ فقال : والذي نفسي بيده ، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كأني بنساء بني فهم يطفن بالخزرج ، تصطك ألياتهن مشركات ، وهذا أول شرك في الإسلام ، والذي نفسي بيده لا ينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير ، كما أخرجوه من أن يقدر الشر . قوله : وهذا أول شرك في الإسلام . إلى آخره ، من كلام ابن عباس . وهذا يوافق قوله : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

ولهذا حذر منهم النبي صلي الله عليه وسلم كما في الحديث الذي حسنه بعض أهل العلم

(القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم) رواه ابو داوود وغيره .

قال ابن القيم رحمه الله كما في "تهذيب سنن أبي داود" (2 /347) :

(هَذَا الْمَعْنَى قَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيث اِبْن عُمَر , وَحُذَيْفَة , وَابْن عَبَّاس , وَجَابِر بْن عَبْد اللَّه , وَأَبِي هُرَيْرَة , وَعَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاصِ , وَرَافِع بْن خَدِيج) انتهى .

وهم شر من المجوس إذ المجوس جعلوا للكون خالقين النور والظلمة ، والقدرية جعلوا كل مخلوق خالقا مع الله سبحانه لأن كل مخلوق عندهم خالق فعل نفسه لا يقدر عليه ربه **!** سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

قال ابن تيمية في منهاج السنة (276/3) :

(وقول القدرية - يعني النفاة - يتضمن الإشراك والتعطيل - يعني جمع بين أمرين الإشراك والتعطيل - فإنه يتضمن إخراج بعض الحوادث عن أن يكون لها فاعل ، ويتضمن إثبات فاعل مستقلٍ غير الله وهاتان شعبتان من شعب الكفر ؛فإن أصل كل كفر التعطيل أو الشرك) **انتهي .**

فقوله أن قولهم يتضمن الإشراك والتعطيل يعني به أنهم عطلوا مشيئة الله وخلقه من مراتب القدر ، وأنه يكون في كونه ما لا يريده وبدون إذنه ، سبحانه **!** ، وأما الشرك ففي كونهم أشركوا معه خلقه في خلق أفعال أنفسهم .

قال الآجري في الشريعة :

(ثم اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أن القدري لا يقول : اللهم وفقني ، ولا يقول اللهم اعصمني ، ولا يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ لأن عنده أن المشيئة إليه إن شاء أطاع وإن شاء عصي ، فاحذروا مذاهبهم لا يفتنوكم عن دينكم) .

4 - وقد ذكر حرب الكرماني في رسالته النفيسة في السنة حجة قوية فقال

(ومن زعم أن أحدا من الخلق صائر إلى غير ما خلق له ؛ فقد أنفى قدرة الله عن خلقه ، وهذا إفك على الله ، وكذبٌ عليه ، ومن زعم أن الزنا ليس بقدر ؛ قيل له :

أرأيت هذه المرأة التي حملت من الزنا ، وجاءت بولد ؛ هل شاء الله عزوجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا في سابق علمه؟

فإن قال : لا.

فقد زعم أن مع الله خالقا ؛ وهذا قولٌ يضارع الشرك ؛ بل هو الشرك الصُّراح **) انتهي كلام حرب .**

يعني رحمه الله أنهم إن كانوا خالقي فعل أنفسهم وأن الله لا يخلق الشر – زعموا – فمن الذي خلق ولد الزنا هذا **؟!** إن قالوا الله خلقه فقد أثبتوا إذن أن الزنا بمشيئة وقدر ، وإن قالوا لا ، فقد زعموا أن معه إلها آخر ، وهذه حجة من اقوي ما يكون في دحض الخصم ، وليس لهم من أحد الجوابين مفر .

5- وقد قال تعالي (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) ، وقال (لو يشاء الله لهدي الناس جميعا) ، وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، وقال (ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) فكل هذه الآيات وغيرها تدل علي أن الواقع من المعاصي بمشيئته وأنه لو شاء ما فعلوه .

6) ومما يظنون أنه ينصر معتقدهم الفاسد حديث رسول الله صلي اله عليه وسلم المروي عند البخاري في صحيحه (ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) علي أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه من التمجيس والتهويد والتنصير .

وقولهم مردود ونقول فيه ما كررناه مرارا أن الله من نعمته علي العباد كما سبق أنه خلقهم علي الفطرة وهي الإسلام والتوحيد وارسل إليهم رسلا وأنزل عليهم كتبا ، فإذا اختاروا غير ذلك خذلهم وشاء كونا أن يفعلوا ما اختاروه لأنفسهم ، ولله الحجة البالغة علي خلقه ، **فالضلال اختيارهم والإضلال فعل الله بهم جزاء وفاقا .**

قال ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (8/ 362 وما بعدها) :

(لا حجة فيه للقدرية فإنهم لا يقولون أن نفس الأبوين خلقا تهويده وتنصيره بل هو تهود وتنصر باختياره ولكن كانا سببا في حصول ذلك بالتعليم والتلقين فإذا أضيف إليهما هذا الاعتبار فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى لأنه سبحانه وإن كان خلقه مولودا على الفطرة سليما فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغييره وعلم ذلك .....و أنتم لا تقولون بأول الحديث ولا بآخره أما أوله فإنه لم يولد أحد عندكم على الإسلام أصلا ولا جعل الله أحدا مسلما ولا كافرا عندكم وهذا أحدث لنفسه الكفر وهذا أحدث لنفسه الإسلام والله لم يخلق واحدا منهما ولكن دعاهما إلى الإسلام وأزاح عللهما – لأنهم يحصرون الهداية في هداية البيان والإرشاد دون هداية التوفيق كما سياتي - وأعطاهما قدرة مماثلة فهو يصلح للضدين ولم يخص المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان فإن ذلك عندكم غير مقدور له ولو كان مقدورا لكان منع الكافر منه ظلما ..... وأما كونكم لا تقولون بآخره وهو أنه ينسب فيه التهويد والتنصير إلى الأبوين وعندكم أن المولود هو الذي أحدث لنفسه التهويد والتنصير دون الأبوين والأبوان لا قدرة لهما على ذلك البتة ، وأيضا فقوله الله أعلم بما كانوا عاملين

دليل على أن الله يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين أو يغيرون فيصيرون كفارا فهو دليل على تقدم العلم الذي ينكره غلاة القدرية واتفق السلف على تكفيرهم بإنكاره فالذي استدللتم به من الحديث على قولكم الباطل وهو قوله فأبواه يهودانه وينصرانه لا حجة لكم بل هو حجة عليكم فغير الله لا يقدر على جعل الهدى أو الضلال في قلب أحد بل المراد بالحديث دعوة الأبوين إلى ذلك وتربيتهما له وتربيتهما على ذلك مما يفعله المعلم والمربي وخص الأبوين بالذكر على الغالب أنه جعل أبوان وإلا فقد يقع من أحدهما أو من غيرهما) بتصرف .

7) ومن شبهات القدرية في نفي خلق أفعال العباد قولهم عن قوله تعالي : {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} أنه من العام المراد به الخاص قالوا ولا سيما أنكم قلتم إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم .

فقال أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق فليس ههنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عداه مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه إذ ليس إلا الخالق والمخلوق والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وأنها أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالا لهم ومخلوقة مفعولة لله فإن الفعل غير المفعول وقد سبق نقض شبهة غلاة الجبرية في نفي الفعل عن العبد وأن غيره هو الفاعل **!** في ضمن الردود علي الجبرية ، ولا نقول أنها فعل لله والعبد مضطر مجبور عليها ولا نقول أنها فعل للعبد والله غير قادر عليها كما تقوله القدرية ولا جاعل للعبد فاعلا لها كما تقول الجبرية المتوسطة الأشعرية ولا نقول أنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير فهذه الأقوال كلها باطلة .

وقالت القدرية قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}أي مما لا يقدر عليه غيره وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال

فقال أهل السنة: إضافتها إليهم فعلا وكسبا لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقا ومشيئة فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه.

8) والقدرية ينفون خلق الله لافعال العباد بحجة التنزيه عن خلق أفعال العصاة مع أن القدرية أنفسهم سيأتي في باب الاستطاعة أنهم صرحوا بأن أي فعل للعبد ناتج عن قدرة تامة وإرادة جازمة ولكن نفوا التوفيق والخذلان ، ولكن إثباتهم للإرادة الجازمة والقدرة التامة تصريح منهم بمعتقد أهل السنة في خلق الله لفعل العبد من طاعة أو معصية لانهما مخلوقتان لله وإن لم ينطقوا بذلك ، وهذا دأب المبتدعة متناقضون نفوا خلق الله لأفعال العباد ثم إذا بهم يثبتون للعبد قدرة وإرادة وهما مخلوقتان لله سبحانه عندنا بلا شك

ولهذا تناقض القدرية في المتولدات التي لا فعل مباشر للإنسان فيها كالشبع والظمأ هل هما مخلوفان لله أم لا ؟ فعند أهل السنة مخلوقان كسائر أفعال العباد ولهذا يؤجر العبد عليها كما قال سبحانه (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم به عمل صالح)، وعند القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد ويقولون أن الإنسان خالق فعل نفسه بحجة تنزيه الله عن خلق أفعال العصاة قالوا لا خالق لها ، وهذه حجة باطلة فإن إرادة الله سبحانه لفعل العاصي إرادة كونية لا شرعية وسبق في المعتقد المجمل سابقا أن هذا هو العدل ، وأنه من ربوبية الله سبحانه ألا يحصل حركة ولا سكون في كونه إلا بخلقه وعلمه وإذنه ، وفعل العبد ناتج عن قدرة جازمة وإرادة تامة وهما مخلوقتان ، ولكن القدرية تناقضوا فقالوا العبد خالق فعل نفسه والمتولدات لا خالق لها !!!! لأنه لا عمل له فيها وربهم لا يخلق فعل عباده ، ومنهم من قال أن العبد ايضا هو خالقها ، وسيأتي في الرد عليهم أن شركهم فاق شرك المجوس الثنوية لأن المجوس اعتقدوا أن للكون خالقين النور والظلمة أو الخير والشر وحجتهم تنزيه الله عن خلق الشر ! ، وهؤلاء القدرية اعتقدوا خالقِين لا حصر لهم

مع ربهم فكل إنسان فهو خالق مع الله سبحانه ولهذا حذر النبي صلي الله عليه وسلم منهم فقال (القدرية مجوس أمتي فإن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم) وهم الشيعة الآن فهم معتزلة قدرية وكثير من جهال العوام .

وأما الجبرية فقالوا المتولدات فعل الله وليست فعلا للعبد اصلا بناء عندهم علي معتقدهم أن أفعال العباد هي أفعال الله حقيقة **!!!** سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا .

ومما يترتب علي قول القدرية أن الله لا يعلم ما تخفيه صدور عباده لانتفاء خلق الله لافعال عباده وإنما هم خالقوها ، وإذا انتفي الخلق انتفي العلم لقوله تعالي (ألا يعلم من خلق)

وفي هذا يقول ابن رجب في جامع العلوم :

(وقد قال كثير من أئمة السلف ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه فقد كفروا ، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن الله تعالى قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه **) .**

والمعني أنهم لو أقروا بالعلم فقد خصموا إذ يلزمهم اعتقاد خلق الله لأفعال العباد وإذا انتفي الخلق انتفي العلم لقوله تعالي (ألا يعلم من خلق) ، إذ لم يبق ما يدل علي علمه بما في الصدور إذ كان غير خالق لذلك ، ولأن منهجهم في الصالح والاصلح والظلم والعدل أنه لو علم لكان الاصلح أن يحول بين العاصي ومعصيته ، فلما وقعت المعصية قال الغلاة منهم إذاً لا يعلم **!** ، وهذا كفر بالله ، وقال بعضهم علم ولم يصلح عبده العاصي وهذا يناقض منهجهم في ذلك وسيأتي رده ، ولكنا نقول أنه علم به وتركه وما اختار لنفسه واذن أن يعصيه كونا لا شرعا وخذله ، وسيحاسبه ، وسبق في المعتقد المجمل أن هذا ليس من الظلم في شيء لأنه هداه النجدين وارسل رسلا وأنزل كتبا ولم يجعله كالبهيمة ، بل الظلم أن يقول لك افعل فتفعل فيعاقبك ، ولكنه قال لا تفعل وحذرك وأنذرك

في كتابه وعلي لسان رسله فإن فعلت عذبك فهذا هو عين العدل ، وسيأتي في الرد علي القدرية أن سبب ضلالهم الرئيسي في باب القدر عدم تفرقتهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية ، واستدلالهم بالمتشابه .

وأما الجبرية فمنهجهم في خلق أفعال العباد أن افعالهم هي أفعال الله حقيقة **!!!** وهذا كفر ظاهر ، والأشاعرة وهم الجبرية المتوسطة كما يقول العلماء قالوا هي فعل الله وكسب الإنسان **!!!** وهذا تناقض عظيم حتي صار الناس يسخرون منهم فقالوا (مما يقال ولا حقيقة تحته أحوال بني هاشم وكسب الأشعري وطفرة النظام) وهؤلاء أضحكوا عليهم العقلاء لأنه لا حقيقة لقولهم هذا .

9) وقول القدرية منقوض بآيات كثيرة في القران بل القران كله يرده كما سيأتي من كلام ابن القيم

وقيل أن القدرية فرقتان إحداهما تنكر خلقه للشر والمعصية حتي لا يكون ظلما عندهم وتقدم نقضه وسيأتي المزيد ، وفرقة ثانية تنكر خلقه للخير والطاعة كذلك ولهذا قالوا أن الإنسان خالق فعل نفسه ولا فضل من الله عليه ولا منة **!** ولهذا يجعلون الباء في مثله قوله تعالي ({ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) باء عوض وهذا من باطلهم فإن الباء التي تأتي في الإثبات غير الباء التي تأتي في النفي، فالباء التي تكون في الإثبات، هي باء السببية، والباء التي تكون في الجملة المنفية، هي باء العوض، فباء العوض في الجملة المنفية، كما في الحديث: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله) هذه باء العوض؛ لأنها في جملة منفية، والمعنى: لن يدخل أحدكم الجنة عوضا عن عمله، فيستحق الجنة، كما يستحق الأجير أجره، بل الدخول برحمة الله، وأما الباء التي تكون في الجملة المثبتة، فهي باء السبب، قوله سبحانه: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } يعني: بسبب ما كنتم تعملون، فيكون دخول الجنة برحمة الله، ولكن له سبب، وهو العمل، فمن جاء بالسبب نال الرحمة، ومن لم يأت بالسبب لم ينل الرحمة.

فالنصوص يضم بعضها إلى بعض فقوله: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } هذه دعوى السببية، هذه بسبب عملكم، لكن الدخول لا يكون بالسبب، الدخول لا يكون إلا بالرحمة، الدخول برحمة الله، دخول الجنة، لكن هذه الرحمة لها سبب، وهو العمل .

غير أن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وهو سبحانه كما قال: «ياعبادي، إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»، فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم، فيطالبون بجزاء ذلك، والله تعالى غني عن العالمين، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساؤوا فلها، لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}

فاين قول هؤلاء الجهال من القدرية أن الباء في الحديث للمقابلة **!!**

والجبرية - وهم شر من القدرية كما سبق - ليس عندهم توكل ولا حمد ولا شكر ولا استعانة .

قال ابن تيمية (8/ 211وما بعدها) :

(والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا، وكذلك القدرية الذين يقولون: لا تعود الحكمة إليه، بل ما ثم إلا نفع الخلق، فما عندهم إلا شكر، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة، والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد، وحقيقة مذهبهم: أنه لا يستحق الحمد؛ فله ملك بلا حمد، كما أن عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك، وعند السلف له الملك والحمد تامين.

قال تعالى: {شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ، فله الوحدانية في إلهيته، وله العدل وله العزة والحكمة، وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نقص الرب بعض حقه.

والجهمي الجبري لا يثبت عدلا ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته، والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلا ولا عزة ولا حكمة، وإن قال: إنه يثبت حكمة ما، معناها يعود إلى غيره، فتلك لا تكون حكمة، فمن فعل لا لأمر يرجع إليه بل لغيره، فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم، وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة، فقد ثبت أنه رأس الشكر، فهو أول الشكر والحمد، وإن كان على نعمة وعلى حكمة، فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلا في الشكر) .

وقد رد ابن تيمية قول من قال هما فرقتان فقال (8/ 116)

(ومن توهم عنهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد، فهو جاهل بمذهبهم، فإن هذا لم يقله أحد من علماء القدرية ولا يمكن أن يقوله، فإن أصل قولهم: إن فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية، كلاهما فعله بقدرة تحصل له من غير أن يخصه الله بإرادة خلقها فيه، ولا قوة جعلها فيه تختص بأحدهما، فإذا احتجوا بهذه الآية على مذهبهم كانوا جاهلين بمذهبهم وكانت الآية حجة عليهم لا لهم؛ لأنه تعالى قال: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله} ، وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله بل كلاهما من العبد، وقوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} ، مخالف لقولهم؛ فإن عندهم الحسنة المفعولة والسيئة المفعولة من العبد لا من الله سبحانه.

وكذلك من احتج من مثبتة القدر بالآية على إثباته إذا احتج بقوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله} كان مخطئًا، فإن الله ذكر هذه الآية ردًا على من يقول: الحسنة من الله والسيئة من العبد، ولم يقل أحد من طوائف الناس: إن الحسنة المفعولة من الله، والسيئة المفعولة من العبد) .

وكلتا الفرقتين منقوض اعتقادهم بالآيات والأحاديث التي أثبت الله سبحانه فيها لنفسه مشيئة لطاعة العباد ومعاصيهم ، وأثبت أنه قادر علي فعلهم وإن شاء حال بينهم وبينه ، وأثبت أنه خالق افعالهم وأن فعلهم الطاعة إنما هو بمحض فضله ومنه وكرمه وإحسانه وتوفيقه

وفي ذلك قال ابن القيم في شفاء العليل :

(قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم وهذا لا يقدر عليه سواه وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين حبه وحسنه الداعي إلى حبه وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان وإن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم

يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلا منه ونعمة والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح حكيم بجعله في مواضعه ومن ذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً} وتأليف القلوب جعل بعضها يألف ويميل إليه ويحبه وهو من أفعالها الاختيارية وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره .

ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} فأخبر سبحانه بفعلهم وهو إلههم وبفعله وهو كفهم عما هموا به ولا يصح أن يقال أنه سبحانه أشل أيديهم وأماتهم وأنزل عليهم عذابا حال بينهم وبين ما هموا به بل كف قدرهم وإرادتهم مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم وعند القدرية هذا محال بل هم الذين يكفون أنفسهم والقرآن صريح في إبطال قولهم .

ومثله قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} فهذا كف أيدي الفريقين مع سلامتهما وصحتهما وهو بأن حال بينهم وبين الفعل فكف بعضهم عن بعض .

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله} والإيمان والطاعة من أجل النعم بل هما أجل النعم على الإطلاق فهما منه سبحانه تعليما وإرشادا وإلهاما وتوفيقا ومشيئة وخلقا ولا يصح أن يقال أنها أمرا وبيانا فقط فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة وهذا قول القدرية وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منه في إعطائه الجزاء بل قالوا ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه واحتجوا بقوله: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} قالوا أي غير ممنون به عليهم إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها قالوا والمنة تكدر النعمة والعطية ولم يدعوا هؤلاء للجهل بالله موضعا وقاسوا منته على منة المخلوق فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات وليست المنة في الحقيقة إلا لله فهو المان بفضله وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منته

عليهم قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وقال تعالى لكليمه موسى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} وقال: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} وقال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} ولما قال النبي ﷺ للأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي قالوا الله ورسوله أمن وقال الرسل لقومهم: {إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} فمنه سبحانه وتعالى محض إحسانه وفضله ورحمته وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم ولهذا قال أهلها وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" وقال: "إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم" والأول في الصحيح والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله وقالت القدرية أنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله بل يكون ذلك النعيم عوضا وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحد إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله فلو أتى العباد بكل طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم فهو المان بفضله فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه وأما قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه غير مقطوع ومنه ريب المنون وهو الموت لأنه يقطع العمر.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} وقوله: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه والتعادي والتباغض أثره وهو محض فعلهم وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل

الرب دون المتعاديين والمتباغضين والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم وهو أثر فعل الله وقدرته ومشيئته كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} فالتسيير فعله والسير فعل العباد وهو أثر التسيير وكذلك الهدى والإضلال فعله والإهتداء والضلال أثر فعله وهما أفعالنا القائمة بنا فهو الهادي والعبد المهتدي وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال وهذا حقيقة وهذا حقيقة والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

ومن ذ لك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ} فها هنا أمران تجنيب عبادتها واجتنابه فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله ونظير ذلك قول يوسف الصديق: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن وتلك أفعال اختيارية وهو سبحانه الصارف لها فالصرف فعله والانصراف أثر فعله وهو فعل النسوة .

ومن ذلك قوله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} فالتثبيت فعله والثبات فعل رسوله فهو سبحانه المثبت وعبده الثابت ومثله قوله: {يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ} فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله فإنه يفعل ما يشاء وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم ومن ذلك قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} فأخبر أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية فالقساوة وصفها وفعلها وهي أثر فعله وهو جعلها قاسية وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} وهم إنما خرجوا باختيارهم وقد أخبر هو الذي أخرجهم فالإخراج فعله حقيقة والخروج فعلهم حقيقة ولولا إخراجه لما خرجوا وهذا بخلاف قوله: {وَالله

أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً} وقوله: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ} وقوله: {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم وأما قوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقّ} فيحتمل أن يكون إخراجا بقدره ومشيئته فيكون من الأول ويحتمل أن يكون إخراجا يوجبه بأمره فلا يكون من هذا فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع أحدها إخراج الخارج بإختياره ومشيئته والثاني إخراجه قهرا وكرها والثالث إخراجه أمرا وشرعا.

وقد ظن طائفة من الناس أن من هذا الباب قوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى} وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية ولم يفهموا مراد الآية وليست من هذا الباب فإن هذا خطاب لهم في واقعة بدر حيث أنزل الله سبحانه وملائكته فقتلوا أعداءه فلم يفرد المسلمون بقتلهم بل قتلتهم الملائكة وأما رميه ﷺ فمقدوره كان هو الحذف والإلقاء وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد وإيصال ذلك إلى وجوه جميعهم فلم يكن من فعله ولكنه فعل الله وحده فالرمي يراد به الحذف والإيصال فأثبت له الحذف بقوله إذ رميت ونفى عنه الإيصال بقوله وما رميت.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} وإذنه هنا قضاؤه وقدره لا مجرد أمره وشرعه كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية قال ابن المبارك عن الثوري: "بقضاء الله" وقال محمد بن جرير: "يقول جل ذكره لنبيه وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك فلا تجهدن نفسك في طلب هداها وبلغها وعيد الله ثم خلها فإن هداها بيد خالقها" وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك فإنه سبحانه قال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله} أي لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما والثاني في سورة الشعراء في قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ

عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} قال ابن عباس: "سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط" وقال أبو إسحاق: "أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤا بمن تقدم من الرسل كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين" واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: {نَسْلُكُهُ} فقال ابن عباس: "سلكنا الشرك" وهو قول الحسن وقال الزجاج وغيره: "هو الضلال" وقال الربيع: "يعني الاستهزاء" وقال الفراء: "التكذيب" وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم وعندي في هذه الأقوال شيء فإن الظاهر أن الضمير في قوله لا يؤمنون به هو الضمير في قوله سلكناه فلا يصح أن يكون المعنى لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن فإن قيل فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه قبل سلكه في قلوبهم بهذه الحال أي سلكناه غير مؤمنين به فدخل في قلوبهم مكذبا به كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقا به وهذا مراد من قال إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم فإن قيل فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به قيل لتقوم عليهم بذلك حجة الله فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضي به وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفرا من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه فتأمله فإنه من فقه التفسير والله الموفق للصواب.

ومن ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} فالإرسال هاهنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح وليس بإرسال ديني شرعي فهو إرسال تسليط بخلاف قوله في المؤمنين: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} فهذا السلطان المنفى عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين قال أبو إسحاق: "ومعنى الإرسال ههنا التسليط تقول قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه كما قال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}" فاعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه قلت ويشهد له قوله تعالى: {إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُون} وقوله: {تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} فالأز في اللغة التحريك والتهييج ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحرك الماء عند الغليان وفي الحديث: "كان لصدر رسول الله ﷺ أزيزا كأزيز المرجل من البكاء" وعبارات السلف تدور على هذا المعنى قال ابن عباس: "تغريهم إغراء" وفي رواية أخرى عنه "تسلهم سلا" وفي رواية أخرى "تحرضهم تحريضا" وفي أخرى "تزعجهم للمعاصي إزعاجا" وفي أخرى "توقدهم إيقادا" أي كما يتحرك الماء بالوقد تحته قال أبو عبيدة: "الأزيز الإلهاب" والحركة كالتهاب النار في الحطب يقال إز قدرك أي ألهب تحتها النار وائتزت القدر إذا اشتد غليانها وهذا اختيار الأخفش والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعا قالت القدرية "معنى أرسلنا الشياطين على الكافرين خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط" قال أبو علي "الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد" فمعنى الآية خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعدهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم أن عبادي ليس لك عليهم سلطان قال الواحدي "وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية قال وليس المعنى على ما ذهبوا إليه" وقال أبو إسحاق "والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} وقال: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} وإنما معنى الإرسال التسليط" قلت وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال كما في الحديث: "إذا أرسلت كلبك المعلم أي سلطته ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده" وكذلك قوله: {وفي وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} أي سلطناها وسخرناها عليهم وكذلك قوله: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} وكذلك قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً} والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى ولا يتم التسليط إلا به فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن تفعل فعلا ولم تمنعه من فعله فهذا هو التسليط ثم أن القدرية تناقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب وهذا عين قول أهل السنة وإن قالوا لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه وهذا أبطل الباطل ثم قالت

القدرية تؤزهم أزا تأمرهم بالمعاصي أمرا وحكوا ذلك عن الضحاك وهذا لا يلتفت إليه إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه ولا تساعد اللغة على ذلك ولو كان ذلك صحيحا لكان يؤز المؤمنين أيضا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

ومن ذلك قوله تعالي {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} وقوله: {أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} وقوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له ويحول بينه وبين فعله الاختياري له فدل على أن فعله مقدور له سبحانه إن شاء سلطه على العبد وإن شاء حال بينه وبينه وهذا على أصول القدرية باطل فلا يثبتون حقيقة الإعاذة وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد وجعلوا الآية ردا على الجبرية والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة كما أن الإعاذة فعله وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق .

ومن ذلك قوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ} وقول هود وما توفيقي إلا بالله ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد وقد أخبر أنه به لا بالعبد وهذا لا ينبغي أن يكون فعلا للعبد حقيقة ولهذا أمر به وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه وإنما يؤمر العبد بفعله هو ومع هذا فليس فعله واقعا به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالتصبير منه سبحانه وهو فعله والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ} ففي الآية أربعة أدلة أحدها: قولهم: {أفرغ علينا صبرا} والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

والثاني: قولهم: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} وثبات الأقدام فعل اختياري ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: {وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعداهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر وأيضا فإن كون الإنسان منصورا على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره وأما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضا فعل العبد وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب، الرابع: قوله: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ} وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي بمشيئته وقضائه وقدره وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما فإنه سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو فالإغفال فعل الله والغفلة فعل العبد ثم أخبر عن اتّباعه هواه وذلك فعل العبد حقيقة والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم فيقولون معنى أغفلنا قلبه سميناه غافلا أو وجدناه غافلا أي علمناه كذلك وهذا من تحريفهم بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته أي جعلته كذلك وأما أفعلته أو أوجدته كذلك كأحمدته وأجنبته وأبخلته وأعجزته فلا يقع في أفعال الله البتة إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل جبانا وبخيلا وعاجزا فيكون معناه صادفته كذلك وهل يخطر بقلب الداعي اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي سمني وأعلمني كذلك وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه والعقلاء يعلمون علما ضروريا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك ويشاءه له ويقدره عليه حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرته لم يخطر بقلبه سوى ذلك وأيضا فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفل لنفسه عن الشيء فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره به وذلك مضاد لغفلته عنه بخلاف إغفال الرب تعالى له

فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبد وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه وهذا ظاهر جدا فثبت إن الإغفال فعل الله بعبده والغفلة فعل العبد

ومن ذلك قوله تعالى إخبارا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّنَا} وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ثم قال شعيب وسع ربنا كل شيء علما فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه فإن له سبحانه في خلقه علم محيط ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا فلذلك رد الأمر إليه ومثله قول إبراهيم: {وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء أنه فاعله حتى يستثني بمشيئة الله فإنه إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله وقد تقدم تقرير هذا المعنى وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد قال ابن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد"

انتهي كلام ابن القيم رحمه الله .

أسباب ضلال القدرية والجبرية في القدر :

١- الخوض في أفعال الله بالتعليل فإن العبد إذا خاض بالتعليل في فعل الله الذي يظهر له دون حجة فإنه يضل لأن أفعال الله مرتبطة عند اهل السنة - خلافا للجبرية - بعلل توافق حكمة الرب ،والمخلوق لا يفهم من تعليل الأفعال إلا بما أدركه أو بما يصل إليه إدراكه أو بما أخبر بخبر صادق عنه ، وهذا كله منفي في حق الله تعالي ، والأساس في صفات الله أنها لا تدرك كيفيتها كما لا يدرك كمال معرفة حكمتها ولا التعليل ، ولهذا من خاض في الأفعال بالتعليل ضلّ إذ تجاوز ما دل عليه الدليل .

قال ابن تيمية في تائية القدر

فقولك لِمَ قد شاء مثلُ سؤالِ مَن *** يقول فلِمَ قَدْ كان فِي الأزليَة

وذاك سؤالٌ يُبْطِلُ العقلَ وجهُه *** وتحريمُه قد جاء في كُلَ شِرْعةِ

وقولُك لم شاء الإلهُ هو الذي *** أزلّ عقولَ الخلق في قعر حُفْرةِ

فإنّ المجوسَ القائلين بخالقِ *** لنفعٍ وربٍ مُبدعٌ للمضرةِ

سؤالهم عن علة السرِّ أوقعت *** أوائلَهم في شبهة الثنويةِ

وقال ابن قتيبة في (الاختلاف في اللفظ والرد علي الجهمية والمشبهة) :

((وعدل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور، كيف خلق، وكيف قدر، وكيف أعطى، وكيف منع، وأنه لا يخرج من قدرته شيء، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دين لأحد عليه، ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل ، وإن العباد يستطيعون ويعملون ، ويجزون بما يكسبون، وإن لله لطيفة يبتدئ بها من أراد، ويتفضل بها على من أحب، يوقعها في القلوب فيعود بها إلى طاعته، ويمنعها من حقت عليه كلمته، **فهذه جملة ما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله عز وجل، وما سوى ذلك مخزون عنه))** انتهي كلامه – رحمه الله - .

والعلل قسمان : كونية وشرعية ، وأفعال الله في ملكوته معللة ؛ وكذلك أحكامه الشرعية معللة ،لأن الله سبحانه لا يفعل شيئا إلا لحكمة خلافا للجبرية نفاة التعليل كما تقدم ،

فالخوض في أفعال الله بالتعليل يورث الاعتراض علي القدر ثم يورث قول الجبرية أنه يفعل الشيء لا لحكمة وإنما لمشيئة مجردة ، فهذا سبب من أسباب ضلال الجبرية مع استدلالهم بالمتشابه .

كذلك القدرية هذا سبب من أسباب انحرافهم في هذا الباب العظيم فإنه سيأتي في رد معتقدهم في الظلم والعدل والصالح والأصلح أنهم ينفون لأجل ذلك المشيئة والخلق تنزيها لله - زعموا - والغلاة نفوا علمه ! سبحان الله وتعالي عما يشركون .

قال الطحاوي في عقيدته :

(وأصل القدر سر الله تعالي في خلقه لم يطلع علي ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة، الخذلان وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ،فإن الله تعالي طوي علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالي في كتابه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) **انتهي كلامه** .

وفي ذلك قال ابن تيمية :

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة : هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهمو لم يفهموا حكمة لها :فصاروا علي نوع من الجاهلية

فالجبري يقول لم كتب علي هذا الصلاح وعلي الآخر الفساد إذا هذا جبر ، ولم أصاب هذا الصالح بمكروه ومرض وترك هذا الفاسد غنيا سعيدا فيقولون هو جبر إذ لم تتسع عقولهم لمعرفة حكمة الله وخاضوا في أفعاله بالتعليل ، فينفون الحكمة ويقولون أن العمل إنما هو مشيئة مجردة ، وهذا مذهب الغلاة منهم نفي الحكمة من المشيئة فقد يدخل إبليس الجنة والمؤمنين النار ! وهذا كذلك مذهب المتوسطة منهم نفاة الأسباب

والقدري يقول لم لم يهدي العاصي للصلح والايمان ولم يجعل تارك الصلاة مصليا فينفون المشيئة وهو قول المتوسطة منهم ، وينفون العلم وهو قول الغلاة ، ويقولون ظلم أن يشاء فعل العاصي ويخلقه لأن العدل عندهم أن يصرفه عن معصيته فلما لم يصرفه عنها نفوا المشيئة والخلق لأنه لا يشاء المعصية ولا يخلق فعل العصاة وجهلوا الفرق بين الارادة الشرعية والقدرية الكونية فإنه أرادها كونا لا شرعا ، ولكنهم يقولون أمره بالخير ففعل الشر فكان ما لم يرد الله ولم يفرقوا بين نوعي الإرادة وقالوا كيف يخلق فعل الزاني مثلا من العصاة ويشاؤه فنفوا مرتبة الخلق والمشيئة والغلاة يقولون لو علم قديما لأصلح الفاسد العاصي وهداه ولكن لما لم يصلحه فهو لم يعلم فنفوا علمه ونفوا المشيئة والخلق إذ لم يقدر علي فعل العبد فلم يحل بينه وبين معصيته .

ولهذا سبق أول الكتاب أن سبيل أهل السنة في باب القدر السكوت وعدم الخوض فيه بالباطل .

ومن تعلم مراتب القدر بأدلتها ، وفهم الفرق بين نوعي الإرادة الشرعية والقدرية خرج من بدعة القدر والجبر .

وعلم عرف أن الله علم قديما - علما لا يسبقه جهل ولا يعترضه نسيان - أن عبده فلانا سيختار الخير أو الشر فكتبه عنده في اللوح قبل أن يخلقه بخمسين ألف سنة كما سبق في الحديث ، ثم شاء الله أن يفعل فلان ما اختار لنفسه وإلا فهو سبحانه قادر أن يهدي العاصي ويحول بينه وبين قلبه فيصرفه عن معصيته ولكنه سبحانه لا يمن بهذا الفضل علي من اختار عصيانه بل يخذله ويتركه وما اختار لنفسه وييسره للعسري ، فلن يفعل المعصية إلا بمشيئة الله فكل حركة وسكون في الكون إنما هي بمشيئة الله وفضله وإذنه .

وهذا هو معني أمثال قوله تعالي (ولو شاء ربك ما فعلوه) وقوله (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) وقوله تعالي (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، بخلاف القدرية الذين ينفون المشيئة لأنه لا يشاء المعصية وسبب ذلك أنهم لم يفرقوا بين الإرادة الكونية والشرعية أما نحن - أهل السنة

والجماعة - فنقول شاء معصية العاصي كونا ولم يردها شرعا ،ولما شاء ذلك خلق العبد ليفعل ما اختار لنفسه وهي مرتبة القدر الرابعة .

وفي ذلك قال ابن القيم في شفاء العليل :

(وقوله: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ الله وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق وهو الاصطفاء والاجتباء ولهذا كان الوقف التام عند قوله ويختار ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم وأن ذلك ليس إليهم بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحالّ الاختيار ومواضعه لا من قال: {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلق ومن زعم أن ما مفعول يختار فقد غلط إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ولا يصح المعنى ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال أن الاختيار ههنا هو الإرادة كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار فإن هذا الاصطلاح حادث منهم لا يحمل عليه كلام الله بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة وهو اختيار الشيء على غيره وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة قال في الصحاح الخيرة الاسم من قولك خار الله لك في هذا الأمر والخيرة أيضا يقول محمد خيرة الله من خلقه وخيرة الله أيضا بالتسكين والاختيار الاصطفاء وكذلك التخيير والاستخارة طلب الخيرة يقال استخر الله يخر لك وخيرته بين الشيئين فوضت إليه الاختيار انتهى فهذا هو الاختيار في اللغة وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام ومن هذا قوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} وقوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا} أي اختار منهم وبهذا يحصل جواب

السؤال الذي توردە القدرية يقولون في الكفر والمعاصي هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره فإن قلتم باختياره فكل مختار مرضى مصطفى محبوب فتكون مرضية محبوبة له وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره وجوابه أن يقال ما تعنون بالاختيار العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب. وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة بل يقال واقعة بمشيئته وقدرته وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانت واقعة بمشيئته فإن قيل فهل تقولون أنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك قيل لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} وقوله: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} وقوله: {إِنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} ونظائر ذلك وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: {يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ} وقوله: {وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} فهي مرادة بالمعنى الأول غير مرادة بالمعنى الثاني وكذلك إن قيل هل هي واقعة بإذنه أم لا والإذن أيضا نوعان كوني كقوله: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله} وديني أمري كقوله: {الله أَذِنَ لَكُم أم علي الله تفترون) .

ولا نقول كما قالت القدرية لم لم يهد العاصي ؛ فإن الله وهب له عقلا ولم يجعله كالبهيمة وأرسل رسلا وأنزل كتبا فلله الحجة البالغة علي خلقه سبحانه ، ولو كان كما قالوا لضاعت الحكمة من الاختيار والامتحان

٢. السبب الثاني قياس أفعال الله علي أفعال المخلوقين ، أو ما يسمونه بالتعديل والتجويز

وهي نظرية الصالح والأصلح، والظلم والعدل ، والتحسين والتقبيح العقليين فيقولون يجب علي الله أن يفعل الأصلح لعباده ، فنفوا عن الله ما ظاهره عندهم القبح وقاسوا فعل الله علي أفعال المخلوقين فنفوا بذلك خلقه لأفعال عباده ومشيئته بسبب التحسين والتقبيح والصالح والأصلح فيقولون أن الله لا يقدر المعصية فلما حدثت قالوا كان ما لم يرد الله ولا يخلق ربهم المعصية ولا يريدها وإنما الإنسان خالق فعل نفسه ، بل نفي غلاتهم علم ربهم لأنه علي قولهم لو علم قبح فعل العبد قديما لأصلحه فلما وقع كان ما لم يرد فنفوا العلم

وهم القدرية المحضة ،كأن معبودهم يريد أن يدخل الناس كلهم الجنة ولا يقدر عليهم الشر بذنوبهم حتي إذا حصل ما حصل قالوا هذه المقولة القبيحة .

سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا

٣. السبب الثالث جهلهم بنوعي الإرادة الشرعية والكونية .

٤. رابعا : الأخذ بالمتشابه وترك المحكم ، وعدم رد المتشابه للمحكم ، فنظروا بعين الأعور للنصوص .

٥. إحداث ألفاظ ومصطلحات جعلوها أصلا وحملوا الكتاب والسنة عليها ، فاعتقدوا ثم استدلوا كما هي عادة المبتدعة في كل زمان ومكان .

والقدرية المتوسطة بمعتقدهم الفاسد في القدر ونفي مشيئة الله وخلقه لأفعال عباده وقدرته عليها قد نقضوا عبادة التوكل علي الله والاستعانة به سبحانه ؛إذ كيف يستعينون به ويتوكلون عليه وهم خالقوا فعل أنفسهم وليس لربهم فضل عليهم ولا مشيئة ولا خلق ولا توفيق ولا إعانة ! حيث ظنوا أن نفي هذه المراتب من مراتب القدر تنزيه الله عن أن يخلق فعل العصاة ويشاؤها وهذا في الحقيقة كفر به سبحانه وانتقاص منه وشرك في الربوبية ؛ ولهذا حذر منهم النبي صلي الله عليه وسلم فقال (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم) وهم شر من المجوس إذ المجوس جعلوا للكون خالقين النور والظلمة ، والقدرية جعلوا كل مخلوق خالقا مع الله سبحانه لأن كل مخلوق عندهم خالق فعل نفسه لا يقدر عليه ربه ! سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

قال الآجري في الشريعة :

(ثم اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أن القدري لا يقول : اللهم وفقني ، ولا يقول اللهم اعصمني ، ولا يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ لأن عنده أن المشيئة إليه إن شاء أطاع وإن شاء عصي ، فاحذروا مذاهبهم لا يفتنوكم عندينكم) .

باب

في التوفيق والخذلان ، والهداية والإضلال

التوفيق عند أهل السنة والجماعة هو إعانة الله للعبد إذا اختار الخير وتسديده ،وتيسير أعمال الخير له، وبذل الأسباب المعينة عليه ، ومجاهدة نفسه والشيطان ومقاومة الوساوس فلا يصدانه عن الخير و العمل الصالح ، قال ابن تيمية (398/8) في معني التيسير :نفس إلهام العبد ذلك العمل وتهيئة أسبابه) .

والخذلان هو سلب هذا التوفيق سلب الإعانة والتسديد فيكل الله العبد إلي نفسه ومن وكل إلي نفسه وكل إلي ضعف وعجز وعورة وجعل للشيطان سبيلا عليه وسلطانا إنما سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون فالمخذول الذي يعصي الله ويختار سبيل الغواية علي سبيل الهداية يخذله الله تعالي ويذره وما اختار لنفسه ،ولله الحجة عليه برسله وكتبه فلا يلومن إلا نفسه .

فكل من التوفيق والخذلان يريده الله لمن يشاء سبحانه ، فليس جبرا وإنما بحسب اختيار العبد وإرادته التي علمها الله منه قديما ؛إن أراد خيرا وفقه الله ، وإن أراد شرا خذله وأمدهم في طغيانهم يعمهون وسلط عليهم الشياطين وجعل لهم سلطانا عليهم كما قال تعالي (ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم) وليس للقدرية أن يقولوا هذا ظلم ؛ لأن الله لم يجبره وإنما هو المختار لنفسه وقد قدم الله بالإنذار والبشارة في كتبه وعلي ألسنة رسله .

فهداية الله وإضلاله راجعان إلي علمه السابق سبحانه فمن علم الله أنه شاكر مختار لسبل الهداية مجاهد لاجتناب سبل الغواية منّ الله عليه بهداه وتوفيقه ، ومن علم أنه جاحد مختار لسبل الغواية علي سبل الهداية أضله الله وخذله وتركه وما اختار لنفسه .

قال ابن جرير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالي (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) :

(وأما قوله: " ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا "، يقول تعالى: اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعزّ والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال, كي يقول من أضلّه الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: " أهؤلاء منّ الله عليهم "، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء " من بيننا "، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاءً بهم, ومعاداةً للإسلام وأهله.

يقول تعالى ذكره: " أليس الله بأعلم بالشاكرين " ، وهذا منه تعالى ذكره إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق, وخذلهم عنه وهم أغنياء ، وتقريرٌ لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي، ممن هو لها كافر**. فمنِّي على من مَنَنْتُ عليه منهم بالهداية، جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحدٌ إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره, لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي)**انتهي كلام الطبري .

فالتوفيق أمر زائد علي مجرد إرادة الإنسان للفعل و قدرته عليه المخلوقتين كما سبق ، فالتوفيق إعانة خاصة من الله للعبد ، وبهذا تعلم تفسير مثل قوله تعالي (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) فإن حقيقة إضلال الله عز وجل من شاء من عباده ليست جبرا ، وهدايته لمن شاء ليست جبرا وإنما خوطب العبد بالتكليف وعنده الآلة ولم يجعله الله كالبهيمة وإنما أرسل إليه رسلا وأنزل كتبا وخلق له سمعا وعقلا وقدرة وإرادة فمن اختار الخير أعانه الله عليه ويسره له وزاده فهذا توفيقه ومن اختار شرا خذله الله ووكله إلي نفسه فهذا هو الخذلان وبذلك تعلم معني قوله تعالي (والله لا يهدي القوم الظالمين) وأمثالها من الآيات فلا يهديهم الله بل يذرهم وما اختاروا لأنفسهم وهو مع ذلك أنذرهم برسله وكتبه وكلامه ، ولو كان ذلك جبرا

لكان كل ذلك عبثا ، والله سبحانه منزه عن العبث لأن العبث هو سلب الحكمة ، والله هو العليم الحكيم لا ينسب شر إليه لا في ذاته ولا في افعاله ولا في صفاته .

أما الجبرية فإنهم يثبتون الهداية والإضلال لله تعالي ، وينفون اهتداء العبد وأخذه بالأسباب لأنه لا قدرة له مؤثرة كما سبق ، وقد تقدم نقضه ، وعند الغلاة ربهم هو الفاعل حقيقة .

وأما القدرية فالتوفيق عندهم هو زيادة في قدرة الإنسان خلقها بنفسه لأنه خالق فعل نفسه ، ونفوا إرادة الله وخلقه لأفعال العباد فينفون التوفيق والهداية من أصلها إلا علي سبيل الإرشاد والبيان في كتبه و علي ألسنة رسله ،لأنهم ينفون الاستطاعة المقارنة كما سياتي بيانه في معتقد الجماعة في الاستطاعة .

فالتوفيق فيه زيادة فضل والخذلان عدل فيه سلب هذا الفضل .

فالإرادة والقدرة والأسباب الظاهرة وحدها لا تكفي بل لا بد من هذا الأمر الزائد الذي هو بيد الله وحده ، ألا تري أن النبي صلي الله عليه وسلم ما نجي من المشركين يوم نجي مع صاحبه في الغار إلا بحفظ الله وكلأه وتوفيقه ، فلم تنفع الأسباب الظاهرة مع بذلها من شأن راعي الغنم الذي طمس آثار قدميهما ، وأمر أسماء ذات النطاقين ، وابن أريقط الخريت الذي أشار عليهما بطريق آخر في الهجرة حتي لا يعرف المشركون طريقهم ومع ذلك كله كان المشركون قادرين بنظرة واحدة أن يروهما ولكنه توفيق الله عز وجل وعونه وحقيقة التوكل عليه وعدم التعلق بالسبب ، فقد ضرب رسولنا محمد صلي الله عليه وسلم أروع الأمثلة في تحقيق هذا المقام من مقامات التوحيد إذ قال أبو بكر رضي الله عنه (يا رسول الله لو أن أحدهما نظر إلي قدميه لرآنا فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، فكيف يفسر القدرية عدم حصول المراد رغم توفر القدرة والإرادة !! .

وهذا تفسير لا حولا ولا قوة إلا بالله ولهذا يجب علي المسلم أن يتبرأ من حوله وقوته والأسباب إلي حول الله وقوته ، فلا حول ولا قوة إلا بالله تتضمن الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة : فأما توحيد الربوبية ففي تبرؤك من من الحول والقوة مهما كانت عظمت أو قلت في عين الناظر حتي في طرف عينك وحركة لسانك وأنفاسك فإنك تتبرؤ من قوتك في ها وفيما هو أقل منها إلي حول الله وقوته ؛فإنك لا تقدر علي تحويل شأن من شؤؤونك مهما قل إلا بحول الله وقوته ، لأن لا هنا هي لا النافية للجنس أولا التبرئة تنفي نس القوي التي رزقك الله إياها وأنها لا قيمة لها إلا بحول الله وقوته وإرادته .

وأما الإقرار بتوحيد الإلهية في هذا الذكر العظيم فلأنك بقوله تنفي كل تعلق بما سوي الله عز وجل فتتوجه بدعائك إلي الله وحده وتجمع قلبك علي إخلاص الدعاء له سبحانه .

وأما توحيد الأسماء والصفات فعن طريق التضمن واللزوم لأنك بإقرارك بما سبق يتضمن أن الله هو القوي القوة المطلقة التي لا يعتريها نقص بوجه فتشهد وتقر أنك لا تستطيع الانتقال من حال إلي حال إلا بقوة القوي القدير العزيز الرحيم الغفور إلي غير ذلك من أسماء الله الحسني .

فما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم ، فذلك امر العبد ان يقول (إياك نعبد وإياك نستعين)

وأما غلاة الجبرية فالتوفيق في معتقدهم منفي جملة وتفصيلا إذ ربهم هو الفاعل حقيقة ، وعند المجبرة المتوسطة الأشعرية التوفيق عندهم هو قدرة الإنسان وإرادته ليكسب ما أُجبر عليه باطنا فليس للإنسان عندهم اهتداء بل الهداية والضلال عندهم مخلوقان !.

وتصور مذهب كلتا الفرقتين كاف في بطلانه لغلوهم الصريح الذي تقدم نقضه بالأدلة بحمد الله وقوته .

قال ابن القيم في شفاء العليل :

(وأما الخذلان فقال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} وأصل الخذلان الترك والتخلية ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها خذول قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: "إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس ولن يضرك خذلان من خذلك وإن يخذلك فلن ينصرك الناس أي لا تترك أمري للناس وارفض الناس لأمري" **والخذلان أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها ، والتوفيق ضده أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها بل يصنع له ويلطف به ويعينه ويدفع عنه ويكلأه** كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه فمن خلى بينه وبين نفسه هلك كل الهلاك ولهذا كان من دعائه ﷺ "يا حي يا قيوم يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك" فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس فإن تولاه الله لم ظفر به عدوه وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة فإن قيل فما ذنب الشاة إذا خلى الراعي بين الذئب وبينها وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه قيل لعمر الله إن الشيطان ذئب الإنسان كما قاله الصادق المصدوق ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطانا مع ضعفها فإذا أعطت بيدها وسالمت الذئب ودعاها فلبت دعوته وأجابت أمره ولم تتخلف بل أقبلت نحوه سريعة مطيعة وفارقت حمى الراعي الذي ليس للذئاب عليه سبيل ودخلت في محل الذئاب الذي من دخله كان صيدا لهم فهل الذئب كل الذئب إلا الشاة فكيف والراعي يحذرها ويخوفها وينذرها وقد رآها مصارع الشاة التي انفردت عن الراعي ودخلت وادي الذئاب) **انتهي .**

وها هنا سؤال مهم : هل قد يمنع الله توفيقه عن بعض من اختار سبل الهداية ؟

والجواب : بلي ، لحكمة منه سبحانه ، وليس علي من طلب جسيما ورام أمرا عظيما إن منعته الموانع وصرفته الصوارف من باس ، وهو مأجور علي نيته ، ومنعه قد يكون إرادة منه سبحانه لمصلحة للعبد هي أحب إلي الله من تلك الطاعة ، أو ليقوم العبد بطاعة أخري هي أحب إلي الله من الأولي ، أو لكرهه سبحانه هذه الطاعة من هذا العبد كما قال تعالي (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) فأخبر سبحانه أن تثبيطه إياهم لدفع مفسدة تثبيطهم لغيرهم فأقعدهم .

وللهداية ثلاث مراتب :

1. هداية عامة لمصالح الحيوان في معاشه ، وهي المرادة بقوله تعالي (الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدي) وهو سبحانه في القرآن كثيرا ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} وقوله: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} وقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} وقوله: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} الآيات ثم قال: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.
2. هداية الإرشاد والبيان للمكلفين وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وان كانت شرطا فيه او جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضي اما لعدم كمال السبب او لوجود مانع ولهذا قال تعالي (وأما ثموم فهديناهم فاستحبوا العمي علي الهدي)

وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}

3. هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من التي قبلها وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى وإنكار فعل العبد وقدرته وأن يكون له تأثير في الفعل البتة فلم يهتدوا لقول هؤلاء بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه وهذا شأن المبطل إذا دعى مبطلا آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل كالنصراني إذا دعى اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه **وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى، والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي** قال تعالى: {مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِ} ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد ولهذا قال تعالى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ} وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله وأن الله سبحانه إذا أضل عبدا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ الله فَلا هَادِيَ لَهُ} وقال تعالى: {مَنْ يَشَأِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات} وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أَفَلا تَذَكَّرُونَ} وقال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} وقال: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً} وقال: {فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً

حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله} ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا .

(شفاء العليل).

ولا تلازم بين هداية البيان وهداية التوفيق فقد تحصل هداية البيان وتتخلف هداية التوفيق لسوء قصد العبد واختياره سبل الغواية علي سبل الهداية ، كما قال تعالي (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي علي الهدي فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) فهداية الله لهم هي هداية البيان علي لسان صالح عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام ، قال ابن عباس هديناهم: بينا لهم .

فالله هو الذي يهدي ويوفق بفضله ورحمته من أخذ بسبل الهداية ، وهو الذي يضل ويخذل بعدله وحكمته من أعرض وعصي وأخذ بسبل الغواية .

قال الآجري في الشريعة :

(بَاب ذكر مَا أخبرنَا بِهِ عز وَجل أَنه أرسل الشَّيَاطِين على الْكَافرين فيضلونهم وَلَا يضلون إِلَّا من سبق فِي علمه أَنه لَا يُؤمن وَلَا يضرون أحدا إِلَّا بِإِذن الله عز وَجل ، وَقد أخبرنَا أَنه هُوَ الَّذِي فتن قوم مُوسَى حَتَّى عبدُوا الْعجل بِمَا قيض لَهُم السامري فأضلهم بِمَا عمل لَهُم من الْعجل ألم تسمعوا إِلَى قَوْله عز وَجل لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَإِنَّا قد فتنا قَوْمك من بعْدك وأضلهم السامري)

وروي مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار أنه قال : سمعت عبد الله بن الزبير يقول في خطبته (إن الله هو الهادي والفاتن) ، وهدايته المقصودة هي ما تقدم بيانه أنها هداية التوفيق ، وإضلاله خذلانه لمن اختار العصيان .

وعلي ما تقدم بيانه من معتقد أهل السنة في التوفيق والخذلان والهدي والضلال وأن العبد عليه الاهتداء وسلوك سبل الخير وعلي الله الهداية والتوفيق فإذا سلك سبل الشر واختار سبل الغواية والضلال أضله الله و خذله، علي هذا آيات كثيرة ، منها :

قوله تعالي {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ} وقال تعالي (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ، وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُو}وقال تعالي {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} ، وقال (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) ، وقال تعالي: {وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}وقال: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً}وقال: {فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله} ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه كما أن الضلال نوعان ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه وضلال فيه فالأول ضلال عن معرفته والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها قال ابن تيمية: "ولما كان العبد في كل حال مفتقرا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وقال: {وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

ومعلوم أنه لم ينف هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده.

وللقدرية في امثال هذه الآيات تلبيسات يلبسون بها علي خلق الله منها :

1) ما يستدل به المعتزلة القدرية من قوله تعالي (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) وفسروا ما جعل بما خلق مستدلين بهذا التفسير المغلوط علي نفي خلق الله لأفعال العباد ، وهي شبهة أوهي من بيت العنكبوت ؛فإن الجعل منه شرعي وكوني كالإرادة والإذن ، والجعل هنا هو الشرعي وهذا معلوم من موضوع الآيات ، **فقد قال ابن جرير** في تفسيرها (وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن المعنيين بقوله: " ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب " ، الذين بحروا البحائر, وسيَّبوا السوائب, ووصلوا الوصائل, وحموا الحوامي، مثل عمرو بن لحي وأشكاله ممن سنّ لأهل الشرك السنن الرديئة، وغيَّر دين الله دين الحق، وأضافوا إلى الله تعالى ذكره: أنه هو الذي حرّم ما حرّموا، وأحلَّ ما أحلوا, افتراءً على الله الكذب وهم يعلمون, واختلاقًا عليه الإفك وهم يفهمون فكذبهم الله تعالى ذكره في قيلهم ذلك, وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرموا, فقال تعالى ذكره: ما جعلت من بحيرة ولا سائبة, ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك، ويفترون على الله الكذب) .

2) ومن شبهاتهم أيضا ما ذكره ابن القيم فقال :

((والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه وتجعله من متشابه القرآن وتتأوله على غير تأويله بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتديا وضالا فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك وهذا مما يعلم قطعا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة وليس في لغة أمة من الأمم فضلا عن أفصح اللغات وأكملها هداه بمعنى سماه مهتديا وأضله سماه ضالا وهل يصح أن يقال علمه إذا سماه عالما وفهمه إذا سماه فهما وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاء}.

وتأويل بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة وهذا التأويل من أبطل الباطل فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته للعبد قسمين قسما لا يقدر عليه غيره وقسما مقدورا للعباد فقط في القسم المقدور للغير: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقال في غير المقدور للغير: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} وقال: {مَنْ يُضْلِلِ الله فَلا هَادِيَ لَهُ} ومعلوم قطعا أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تنفى عنه وكذلك قوله: {فَإِنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ} لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان فإن هذا يهدى وإن أضله الله بالدعوة والبيان وكذا قوله: {وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله} هل يجوز حمله على معنى فمن يدعوه إلى الهدى ويبين له ما تقوم به حجة الله عليه وكيف يصنع هؤلاء بالنصوص التي فيها أنه سبحانه هو الذي أضلهم أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال فإن قالوا ليس ذلك معناها وإنما معناها الفاهم ووجدهم كذلك أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم أو جعل على قلوبهم علامة يعرف الملائكة بها أنهم ضلال قيل هذا من جنس قولكم إن هداه سبحانه وإضلاله بتسميتهم مهتدين وضالين فهذه أربع تحريفات لكم وهو أنه سماهم بذلك وعلمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة وأخبر عنهم بذلك ووجدهم كذلك فالإخبار من جنس التسمية وقد بينا أن اللغة لا تحتمل ذلك وأن النصوص إذا تأملها المتأمل وجدها أبعد شيء من هذا المعنى وأما العلامة فيا عجبا لفرقة التحريف وما جنت على القرآن والإيمان ففي أي لغة وأي لسان يدل قوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت}.

ثم انظر في كتاب فعل وأفعل هل تظفر فيه بأفعلته بمعنى وجدته مع سعة الباب إلا في الحرفين أو الثلاثة نقلا عن أهل اللغة ثم انظر هل قال أحد من الأولين والآخرين من أهل اللغة أن العرب وضعت أضله الله وهداه وختم على سمعه وقلبه وأزاغ قلبه وصرفه عن طاعته ونحو ذلك لمعنى وجده كذلك ولما أراد سبحانه الإبانة عن هذا المعنى قال: {وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى} ولم يقل وأضلك وقال في حق من خالف الرسول وكفر بما جاء به وأضله على علم ولم يقل ووجده الله ضالا ثم أي توحيد تمدح وتعريف للعباد أن الأمر كله لله

وبيده وأنه ليس لأحد من أمره شيء في مجرد التسمية والعلامة ومصادفة الرب تعالى عباده كذلك ووجوده لهم على هذا الصفات من غير أن يكون له فيها صنع أو خلق أو مشيئة وهل يعجز البشر عن التسمية والمصادفة والوجود كذلك فأي مدح وأي ثناء يحسن على الرب تعالى بمجرد ذلك فأنتم وإخوانكم من الجبرية لم تمدحوا الرب بما يستحق أن يمدح به ولم تثنوا عليه بأوصاف كماله ولم تقدروه حق قدره وأتباع الرسول وحزبه وخاصته بريئون منكم ومنهم في باطلكم وباطلهم وهم معكم ومعهم فيما عندكم من الحق لا يتحيزون إلى غير ما بينه الرسول وجاء به ولا ينحرفون عنه نصرة لآراء الرجال المختلفة وأهوائهم المتشتتة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم قال ابن مسعود: "علمنا رسول لله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا لله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ويقرأ ثلاث آيات: {اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ} الآية: {وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}: {اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً} الآية" قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن خالد الحذاء عن عبد الأعلى عن عبد الله بن الحارث قال: "خطب عمر بن الخطاب بالجابية فحمد الله وأثنى عليه وعنده جاثليق يترجم له ما يقول فقال: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له فنفض جبينه كالمنكر لما يقول قال عمر: ما يقول قالوا: يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا قال عمر: كذبت أي عدو الله بل الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك إن الله عز وجل خلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون فقال هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه قال: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر".)) **انتهي كلامه** .

3) وتوسطت طائفة من القدرية فأقروا بأن الله يضل من يشاء جزاء اتباعه سبل الضلال إلا أنهم ينكرون خلق الله لفعله ومعصيته التي فعلها ابتداء وإنما يخلق عندهم الفعل الجزائي وهذا تناقض منهم إذ لا فرق ، فهذا وجه خطئهم ، إلا أنهم اصابوا في أن الإضلال خذلان منه لهم حيث تركهم وما اختاروا لأنفسهم ، وطبع علي قلوب من علم منه قديما أنه لن يؤمن ، ولم يؤول هذا الفريق هذه الآيات الواردة في الضلال والهدي كما تأولها غيرهم من القدرية كما سبق ، ولكنهم نفوا كونه سبحانه خالقا لفعل العاصي شاء له **!!** قبل إنزال العقوبة عليه من ختم القلوب وطبعها ، فهذا تناقض إذ يلزمهم الرجوع لإثباتهما أي المشيئة والخلق ، فهؤلاء كما قال ابن القيم بقي عليهم درجة واحدة ليكونوا من أهل السنة في هذا الباب ويثبتوا مرتبتي المشيئة والخلق لفعل العصاة ، أما كونهم يقولون هي عقوبة لهم وخذلان دون إثبات المشيئة والخلق فهذا منهم تناقض

قال ابن القيم رادّا عليهم ذلك :

(قالت القدرية: لا يجوز حمل هذه الآيات على أنه منعهم من الإيمان وحال بينهم وبينه إذ يكون لهم الحجة على الله ويقولون كيف يأمرنا بأمر ثم يحول بيننا وبينه ويعاقبنا عليه وقد منعنا من فعله وكيف يكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه وهل هذا إلا بمثابة من أمر عبده بالدخول من باب ثم سد عليه الباب سدا محكما لا يمكنه الدخول معه البتة ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم الدخول وبمنزلة من أمره بالمشي إلى مكان ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقل قدمه ثم أخذ يعاقبه على ترك المشي وإذا كان هذا قبيحا في حق المخلوق الفقير المحتاج فكيف ينسب إلى الرب تعالى مع كمال غناه وعلمه وإحسانه ورحمته قالوا وقد كذب الله سبحانه الذين قالوا قلوبنا غلف وفي أكنة وأنها قد طبع عليها وذمهم على هذا القول فكيف ينسب إليه تعالى ولكن القوم لما أعرضوا وتركوا الاهتداء بهداه الذي بعث به رسله حتى صار ذلك الإعراض والنفار كالألف والطبيعة والسجية أشبه حالهم حال من منع عن الشيء وصد عنه وصار هذا وقرا في آذانهم وختما على قلوبهم وغشاوة على أعينهم فلا يخلص إليها الهدى وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لأن هذه الصفة قد صارت في

تمكنها وقوة ثباتها كالخلقة التي خلق عليها العبد قالوا ولهذا قال تعالى: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} وقال: {بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} وقال: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ} وقال: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكَذِبُونَ} ولعمر الله إن الذي قاله هؤلاء حقه أكثر من باطله وصحيحه أكثر من سقيمه ولكن لم يوفوه حقه وعظموا الله من جهة وأخلوا بتعظيمه من جهة فعظموه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة وأخلوا بتعظيمه من جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة والقرآن يدل على صحة ما قالوه في الران والطبع والختم من وجه وبطلانه من وجه وأما صحته فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم وجزاء على كفرهم وأعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه كما قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} وقال: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} وقال: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} وقال: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ} وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق الله سبحانه ولكنه عقوبة على كفرهم وإعراضهم السابق فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده ويثيب على الهدى بهدى بعده كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها وقال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حق والقرآن دل عليه وهو موجب العدل والله سبحانه ماض في العبد حكمه عدل في عبده قضاؤه فإنه إذا دعى عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره فأبى العبد إلا إعراضا وكفرا قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره وصده عن الإيمان به وحال بين قلبه وبين قبول الهدى وذلك عدل منه فيه وتكون عقوبته بالختم والطبع والصد عن الإيمان كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار كما قال: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ}

وليس المراد بالعدل ما يقوله الجبرية أنه الممكن فكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل والظلم هو الممتنع لذاته فهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الكلام في الأسباب والحكم ولا المراد به ما تقوله القدرية النفاة أنه إنكار عموم قدرة الله ومشيئته على أفعال عباده وهدايتهم وإضلالهم وعموم مشيئته لذلك وأن الأمر

إليهم لا إليه وتأمل قول النبي ﷺ: "ماض في حكمك عدل في قضاؤك" كيف ذكر العبد في القضاء مع الحكم النافذ وفي ذلك رد لقول الطائفتين القدرة والجبرية فإن العدل الذي أثبتته القدرية مناف للتوحيد معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته والعدل الذي أثبته الجبرية مناف للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم ولهذا قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم وقال أبو إسحاق: "أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فإنه لا يشاء إلا العدل"

قلت :

فذكر ابن القيم معني العدل عند الطائفتين وأما العدل عندنا - أهل السنة – فهو إثبات مرتبة المشيئة والخلق ، وأنه يزيد المهتدي هدي ويوفقه ويشكر سعيه ، ويخذل الضال ويذره وما اختار لنفسه ، ومع ذلك لم يجعله كالبهيمة بل أرسل إليه رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل كتبا لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل .

ثم قال

(ومن سلك من القدرية هذه الطريق فقد توسط بين الطائفتين لكنه يلزمه الرجوع إلى مثبتي القدر قطعا وإلا تناقض أبين تناقض فإنه إذا زعم أن الضلال والطبع والختم والقفل والوقر وما يحول بين العبد وببين الإيمان مخلوق لله وهو واقع بقدرته ومشيئته فقد أعطى أن أفعال العباد مخلوقة وأنها واقعة بمشيئته فلا فرق بين الفعل الابتدائي والفعل الجزائي إن كان هذا مقدور الله واقعا بمشيئته والآخر كذلك وإن لم يكن ذاك مقدورا ولا يصح دخوله تحت المشيئة فهذا كذلك والتفريق بين النوعين تناقض محض وقد حكى هذا التفريق عن بعض القدرية أبو القاسم الأنصاري في شرحه الإرشاد فقال: "ولقد اعترف بعض القدرية بأن

الختم والطبع توابع غير أنها عقوبات من الله لأصحاب الجرائم" قال: "وممن صار إلى هذا المذهب عبد الواحد بن زيد البصري وبكر ابن أخته" قال: "وسبيل المعاقبين بذلك سبيل المعاقبين بالنار وهؤلاء قد بقي عليهم درجة واحدة وقد تحيزوا إلى أهل السنة والحديث").

ثم قال

(وقالت طائفة منهم الكافر هو الذي طبع على قلب نفسه في الحقيقة وختم على قلبه والشيطان أيضا فعل ذلك ولكن لما كان الله سبحانه هو الذي أقدر العبد والشيطان على ذلك نسب الفعل إليه لإقراره للفاعل على ذلك لأنه هو الذي فعله، قال أهل السنة: والعدل هذا الكلام فيه حق وباطل فلا يقبل مطلقا ولا يرد مطلقا فقولكم أن الله سبحانه أقدر الكافر والشيطان على الطبع والختم كلام باطل فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد البتة وهو أقل من ذلك وأعجز وقد قال النبي ﷺ: "بعثت داعيا ومبلغا وليس إلي من الهداية شيء وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيء" فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه وطبع عليه كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار فعقابه بالنار كعقابه بالختم والطبع وأسباب العقاب فعله وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان والجميع مخلوق لله، وأما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله سبحانه أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه فلولا إقدار الله له على ذلك لم يفعله وهذا حق لكن القدرية لم توف هذا الموضع حقه وقالت أقدره قدرة تصلح للضدين فكان فعل أحدهما باختياره ومشيئته التي لا تدخل تحت مقدور الرب وإن دخلت قدرته الصالحة لهما تحت مقدروه سبحانه فمشيئته واختياره وفعله غير واقع تحت مقدور الرب وهذا من أبطل الباطل فإن كل ما سواه تعالى مخلوق وله داخل تحت قدرته واقع بمشيئته ولو لم يشأ لم يكن) **انتهي كلامه** .

4) ثم ذكر اعتراض بعضهم أن كيف يختم الله علي القلوب ويطبع عليها إذا عصت مع أنها قد تتوب وتسلك سبل الإخبات والإنابة بعد ذلك فنقول أنه سبحانه لا يفعل ذلك من أول وهلة وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه وتكرار إعراض العبد عنها ، أو لما سبق في علمه فيهم أنهم لا خير فيهم وأنهم سيموتون كفارا **كما روي عن ابن عباس قوله " منعهم من الهدي لما سبق في علمه "**

قال في ذلك ابن القيم :

(فإن قيل فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاء على الجرايم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم، قيل هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارا فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية فتأمل هذا المعنى في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ومعلوم أن هذا ليس حكما يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك.

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل ويهديه بعد ضلاله ويعلمه بعد جهله ويرشده بعد غيه

ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} وعنده شاب فقال اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك فعرفها له عمر وزادته عنده خيرا وكان عمر يقول في دعائه: "اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت" فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه وقد ضل ههنا فريقان القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورا للرب ولا يدخل تحت فعله إذ لو كان مقدورا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرا أو علم شيئا فإنه لا يغيره بعد هذا ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه) **انتهي كلامه**

5) ومن شبهات القدرية أيضا استدلالهم بقوله تعالي (ما أصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) علي أن الإنسان خالق فعل نفسه وأن الله لا يخلق الشر **!!** ، وهذا دأب المبتدعة الأخذ بالمتشابه وعدم رده إلي المحكم ليبينه ويفسره ونعوذ بالله من القول بحدوث شيء في الكون بغير إذن الله وقدرته ، بل هذه الآية تضم مع قوله تعالي في الآية التي قبلها في سورة النساء (قل كل من عند الله) فعلم أهل السنة أن المراد كل من عند الله ابتداء وقدرة وإرادة وتقديرا وخلقا فلا يحصل شيء بغير علمه ولا بغير إرادته الكونية ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك أي بسبب نفسك .

قال ابن تيمية في بيان أثر هذا المعتقد علي المسلم (262/8) :

(فاذا تدبر العبد علم أن ما هوفيه من الحسنات من فضل الله فشكر الله فزاده الله من فضله عملاً صالحاً و نعماً يفيضها عليه وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه استغفر وتاب فزال عنه سبب الشر فيكون العبد دائما شاكرا مستغفرا فلا يزال الخير يتضاعف له و الشر يندفع عنه) ،وهاتان الآيتان دليل عليهم لا لهم ، وفيهما إثبات قدرة الله علي فعل العبد خلافا للقدرية ، وإثبات المشيئة والاختيار للعبد وأنه غير مجبر خلافا للجبرية).

وقال ابن تيمية (442/8) :

(ويجب أن يعلم العبد أن عمله من الحسنات هو بفضل الله ورحمته ومن نعمته، كما قال أهل الجنة: {الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله} ، وقال تعالى: {وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ} ، وقال تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله} ، وقال: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} ، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} .

وكذلك إضافة السيئات إلى نفسه، هو الذي ينبغي أن يفعله مع علمه، بأن الله خالق كل موجود، من الأعيان والصفات، والحركات، والسكنات، كما قال آدم: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ} ، وقال موسى: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} ، وقال الخليل: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} ، وقال لخاتم الرسل: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} ، وقد قال تعالى في حق من عذبهم: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ} ، {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} ، وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة) **انتهى كلامه** .

وفي جملة ما سبق قال ابن تيمية في التائية :

فإن إله الخلق حق مقاله *** بأن العباد في جحيم وجنة

كما أنهم في هذه الدار هكذا *** بل البهم في الآلام أيضا ونعمة

وحكمته العليا اقتضت ما اقتضت *** من الفروق بعلم ثم أيد ورحمة

يسوق أولى التعذيب بالسبب *** الذي يقدره نحو العذاب بعزة

ويهدي أولي التنعيم نحو نعيمهم *** بأعمال صدق في رجاء وخشية

وأمر إله الخلق بين ما به *** يسوق أولى التنعيم نحو السعادة

فمن كان من أهل السعادة أثرت *** أوامره فيه بتيسير صنعة

ومن كان من أهل الشقاوة لم ينل *** بأمر ولا نهي بتقدير شقوة

ولا مخرج للعبد عما به قضى *** ولكنه مختار حسن وسوأة

فليس بمجبور عديم الإرادة *** ولكنه شاءٍ بخلق الإرادة

ومن أعجب الأشياء خلق مشيئة *** بها صار مختار الهدى بالضلالة

فقولك هل اختار تركًا لحكمة *** كقولك هل اختار ترك المشيئة

واختار أن لا اختار فعل ضلالة *** ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة

وذا ممكن لكنه متوقف على *** ما يشاء الله من ذي المشيئة

باب الاستطاعة

الاستطاعة هي القدرة والطاقة ، وهي نوعان :

الأول : استطاعة قبل الفعل وهي التي يتعلق بها أمر التكليف من صحة ، وسلامة الآلات ونحو ذلك وهي الاستطاعة المصححة للفعل المجوزة له وتسمي الاستطاعة الشرعية المنوط بها الأمر والنهي والثواب والعقاب وعليها يتكلم الفقهاء وهي الغالبة في عرف الناس .

و **الثاني** : استطاعة مقارنة للفعل من توفيق و رغبة في الفعل أو خذلان وعزوف عنه وهي الاستطاعة المحققة للفعل الموجبة له ، وتسمي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر وبها يتحقق وجود الفعل .

فالاستطاعة تتعلق تعلقا وثيقا بما سبق بيانه من أمر الهداية والإضلال ، والتوفيق والخذلان .

وعلي هذا فقد جاءت الاستطاعة في القران مثبتة في آيات ومنفية في آيات ، كما في قوله تعالي (كانوا لا يستيعون سمعا) ، وقوله تعالي (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) فالاستطاعة المنفية هنا هي المقارنة للفعل إذ التي قبل الفعل محققة فيهم فهم أصحاء يسمعون ويبصرون ولكن لما خذلوا بسبب صدوفهم عن الشرع والتوحيد وطاعة الرسول سلبوا الاستطاعة التي مع الفعل فنفي الله عنهم سمع التعقل لا سمع الجارحة ونفي عنهم البصر بصرا به يعلمون الحق من الباطل لا بصر الجارحة .

وأما قوله تعالي (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وقول النبي صلي الله عليه وسلم (صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا) فالمراد الاستطاعة التي قبل الفعل من قدرة وسلامة جسدية يستطيعون بها أداء الواجب فهذه التي يتعلق بها أمر التكليف .

فالاستطاعة التي مع الفعل إما رغبة فيه وتوجه إليه ، وإما عزوف ورغبة عنه ، فنعوذ بالله من الخذلان .

أما القدرية فلما قالوا أن الإنسان يخلق فعل نفسه ونفوا قدرة الله علي فعل العبد أثبتوا الاستطاعة التي قبل الفعل فقط ونفوا الاستطاعة المقارنة كما قال القاضي عبد الجبار المعتزلي في شرح الأصول الخمسة (القدرة متقدمة لمقدورها غير مقارنة له).

وقولهم ظاهر الفساد ، ويترتب عليه لوازم باطلة إذ ليس مناط التكليف الاستطاعة المقارنة وإلا لكان الله أوجب الواجبات علي من فعلها وأسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك واجب ! وهذا فاسد

قال ابن تيمية (8 / 372) :

(قال الله تعالى في الأولى: {وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} ، ولو كانت هذه الاستطاعة لا توجد إلا مع الفعل، لما وجب الحج إلا على من حج، ولما عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجبًا علي أحد قبل الإحرام به، بل قبل فراغه، وقال تعالى: {فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ} ، فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوي إلا ما فعل فقط ، إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة، وقال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} والوسع الموسوع، وهو الذي تسعه وتطيقه، فلو أريد به المقارن لما كُلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط، دون ما تركه من الواجبات، وقال تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} ، والمراد به الاستطاعة المتقدمة، وإلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين، فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم، ولا يكون الصوم واجبًا على أحد حتى يفعلَه، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». ولو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى: فأتوا منه ما فعلتم، فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه، وكذلك قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع، فعلي جنب». ولو أريد المقارنة لكان المعني، فإن لم تفعل فتكون مخيرًا، ونظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق في الكتاب والسنة وجوبه

بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها، وقد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور) **انتهي كلامه.**

وأما الجبرية فلا يثبتون إلا الاستطاعة والقدرة المقارنة لأن ربهم هو الفاعل حقيقة ، أو مجبر عبده باطنا ، كما قال الباقلاني في تمهيد الأوائل (فإن قال : فهل تزعمون أنه يستطيع الفعل قبل اكتسابه أو في حال اكتسابه ؟ قلنا لا بل في حال اكتسابه ، ولا يجوز أن يقدر عليه قبل ذلك) وفي هذا إسقاط للشرع كله كما سبق في الردود عليهم ، فعندهم المستطيع بدنا غير مكلف حتي تتحقق فيه الاستطاعة المقارنة والتي هي بيد الله وحده ، وهذا مبني علي معتقدهم الجبري ، وهو منقوض بآيات كثيرة أثبت الله فيها للعبد قدرة كقوله تعالي (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسب الاستطاعة والقدرة للعبد فدل علي أنه يقدر ، وقال عن الكفار (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا علي شيء ذلك هو الضلال البعيد) فدل علي أنهم في غير هذه الحالة يقدرون إلي غير ذلك مما ذكرته في نقض نسبتهم الأفعال لله سبحانه دون العبد .

فالمستطيع كونا لا شرعا هو المستطيع الاستطاعة المقارنة فهو محب للطاعة راغب فيها مستزيد منها ولكنه مسلوب الاستطاعة التي تسبق الفعل من القدرة والسلامة .

وأما المستطيع شرعا لا كونا فهو القادر الصحيح لكنه مخذول ثبطه الله عن الطاعة .

والاستطاعة المقارنة للفعل حقيقتها من ثلاثة أمور لا يمكن أن يفعل العبد الشيء إلا بوجودها مجتمعة ، وهي :

١. القدرة التامة التي يحصل بها الفعل ، فالأعمي لا يستطيع أن يقرأ لعجزه عن الإبصار ، وعلي هذا فقس

٢. الإرادة الجازمة غير المترددة ، كمريد للحج فإذا كان قادرا بماله وجسده - وهو العامل الأول - وكان قد وفقه الله وأعانه حصل منه الحج وإلا فلا .

٣. التوفيق أو الخذلان ، والمراد مشيئة الله وإرادته الكونية ،فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد سبق أن المطيع لن يطيع إلا إرادة الله وإذنه الكوني فلا حركة ولا سكون إلا بإذنه وإرادته وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ، وقد علمت مما سبق أنه خالق فعل المطيع والعاصي علي السواء .

فالتوفيق ليس من باب الأخذ بالأسباب بل هو فعل الله اختص به عز وجل ، وقد سبق التمثيل بما حصل للنبي صلي الله عليه وسلم في الهجرة مع الصديق أبي بكر رضي الله عنه، فلم ينفعهم في الحقيقة إلا حفظ الله وكلأه وعنايته وتوفيقه .

حتي الطاعة التي يعمله العبد ويؤديها ليست من فعله الخالص إنما هو توفيق الله وإعانته الذي لولاه ما عمل شيئا فأصل نشوء العمل إنما هو بفضل الله وتوفيقه ، فليس منا شيء ولا فينا شيء ولا إلينا شيء .

ولا قيمة للقدرة ولا الإرادة إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، وهذه المعرفة الجليلة وهذه العقيدة العظيمة تورث الإنسان قوة التعلق بالله وحده والافتقار إليه والإخبات والإنابة إليه طلبا لإعانته وتوفيقه ، وتورث عدم التعلق بالأسباب مما يقدح في التوحيد وينقصه بحسب حال العبد ومقصده .

وفي هذا تحقيق لأنواع التوحيد الثلاثة ،وهذه ثمرات الإيمان بهذا الشيء الزائد علي القدرة والإرادة والذي حرم منه القدرية والجبرية ، وهي مضمون الحيلولة لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق .

باب في بيان معني الظلم عند أهل السنة ، وعند القدرية والجبرية

الظلم عند أهل السنة هو وضع الشيء في غير موضعه ، وهو داخل تحت قدرة الله تعالي ،وليس من المستحيل الممتنع الذي سبق بيانه أنه لا تتعلق به قدرة الله كاتخاذ الولد سبحانه ، أما الظلم فهو ممكن لأنه يتصور وجوده لكن الله نزه نفسه عنه لأنه نقص وهو سبحانه له الكمال المطلق فنثبت له كمال الضد فهو الحكم العدل ، كما قال تعالي (وما كان ربك ليهلك القري بظلم وأهلها مصلحون) فأخبر أنه ممكن ولكن نزه نفسه عنه ، ولو كان ممتنعا كما تقول الاشاعرة لم يكن لتمدحه بذلك وجه إذ الظلم عندهم ممتنع اصلا لا ممكن ، وهذه دليل صحة ما ذهبت إليه الجماعة من أن الظلم في حق الله ممكن إلا أنه تنزه عنه ، وقد قال النبي صلي الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة (يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) ، ولو كان الظلم ممتنعا امتناعا ذاتيا لما قال حرمت ولما كان مدحا أصلا .

وأما القدرية فالظلم عندهم أن يشاء المعصية ويريدها فإثبات المشيئة والخلق لله ظلم عندهم ،وعند غلاتهم إثبات علمه القديم ظلم ! إذ لو علم لوجب أن يفعل الاصلح لعباده ويحول بينهم وبين إرادتهم للمعصية - فالأب لا يريد الشر لولده ولله المثل الأعلي - ولكنهم قاسوا أفعال الله علي أفعال المخلوقين ، وأنه لا يشاء فعل العاصي ولا يخلق فعله وإلا لحال بينه وبين إرادته للمعصية ولهداه ويقولون كيف يشاؤها ويعذبهم عليها ، وقد رددنا عليهم مرارا أنه شاءها كونها ولم يردها شرعا ، وبينا في المعتقد المجمل أول الكتاب معني الظلم الحقيقي ،وأنهم هم الظالمون إذ هم معتدون مشركون خلق الله في خلق أفعالهم مع الله ، ظالمون للصالحين يريدون أن يسووا بين من اختار الهدي ومن اختار الضلال والمعصية .

أما الجبرية فهم متلاعبون ؛ لأنهم يقولون أن الظلم هو سلب القدرة عن من جبر باطنا أن يطيع الله ظاهرا وإعطاء القدرة لمن جبر باطنا أن يعصيه كما سبق في بيان معني التوفيق والخذلان أن التوفيق عندهم هو خلق القدرة للعبد ، فهذا معناه عند متوسطيهم الاشاعرة والحق أن الجبر كله ظلم وطعن في حكمة الله إذ

عندهم العبد مجبور باطنا فأي ظلم اكبر من هذا ، وقال بعضهم هو فعل ما لم يشأه أو هو الامتناع عن القدرة ، فعندهم قدَرة الرب - عز وجل - مُتَعَلِّقَة بما لا يشاؤه سبحانه في تَعَلُّقِهَا الأزلي وفي تعلقها الذي يسمونه التعلق الصُّلُوحي، فعندهم القدرة متعلقة بما يشاؤه سبحانه، فما لا يشاؤه غير مَقْدُور، وقد تقدم نقض هذا المعتقد الخبيث في باب تعلق قدرة اله تعالي بما شاءه وما لم يشأه .

و قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية :

الممتنع عن القدرة في تفسير الظلم هو الممتنع في حق الله - عز وجل - عما لم يشأه - عز وجل -.

فعند المتكلمين أو الأحسن طائفة من المتكلمين لأنها ليست موضع اتفاق بين المتكلمين والأشاعرة ثَمَّ خلاف بينهم وإن كان قليلا- عندهم الظلم هو الامتناع أو ما يمتنع أو ما هو مُمْتَنِعٌ مِنَ القُدْرَة.

فما هو ممنوع ممتنع في قدرة الرب - عز وجل - هو الذي لو فَعَلَهُ لكان ظلماً.

لكن هذا كما ترى تحصيل حاصل، فإنَّه - عز وجل - إذا كان لم يفعل فيكون عدم ظُلْمِهْ في أَنَّهُ - عز وجل - لا يفعل الأشياء؛ لأنه لا يَظْلِمُ أحداً، فلو فَعَلَ شيئاً لا يدخل في قدرته - بحسب كلامهم - يكون ظلماً.

وهذا تفسير لا حاصل تحته لأن القدرة شيء والظلم شيء آخر.

فالظلم إذاً في تفسيرهم -تفسير طائفة من المتكلمين والأشاعرة ومن نحا نحوهم- يرجع إلى المُمْتَنِعِ في صفة القدرة لله - عز وجل -، فَرَجَعْ إلى أنَّ المُمْتَنِعْ في مشيئة الله - عز وجل - لو فعله لكان ظلماً؛ لأنَّ عندهم الأفعال أيضاً غير مُعَلَّلَة، وحكمة الله - عز وجل - غير مرتبطة بالعِلَلْ والأسباب في بحثٍ يطول ذكره هنا)

انتهي كلامه ، وأما غلاتهم فربهم هو الفاعل حقيقة **!!** .

والفرق بين معتقدنا ـ أهل السنة والجماعة ـ ومعتقد الجبرية الأشعرية في هذا الباب من وجوه :

1- أن الظلم عندنا ممكن ولكن نزه الله نفسه عنه ، وعندهم هو ممتنع مع كونه يجوز عندهم أن يفعل ربهم أي شيء بلا حكمة **!** فقد يعذب المؤمن ويثيب العاصي **!**، ولهذا خرج أحد المشركين من الأشاعرة الجبرية في مصر وهو علي جمعة يقول أن الله قد يدخل أبا لهب الجنة لأنه كيف يوجب الله عليه أن يؤمن أنه لن يؤمن **!!** يشير بذلك إلي أنه مجبر علي الكفر ولكن قد يدخله الله الجنة لقرابته ، ولأنهم ينفون عن الله تعالي الحكمة والتعليل سبحانه ، ولاعتقادهم بجواز التكليف بما لا يطاق - وقد سبق بيان معتقد الجماعة فيه ونقض أدلة الأشاعرة في ذلك ـ وهو ناتج أيضا عن اعتقادهم أن الإنسان مجبر باطنا أو ظاهرا وباطنا ، وأنه يفعل بلا حكمة ولا تعليل بل لمجرد المشيئة ، وتقدم نقض هذه الشبه بحمد الله ، فأثبت الحكمة من أفعال الله وأنه ليس نقصا بل هو كمال وهم المنتقصون المشركون ، وأثبت معتقد الجماعة أن الله سبحانه لا يكلف العباد إلا ما يطيقون وأنهم يطيقون فوق ما كلفهم علي ما تقدم تفصيله أن الممتنع بنوعيه لا يجوز التكليف به ، وأن أبا لهب أصلا لم يؤمر بأن يؤمن أنه لن يؤمن **!!** كما يدعيه هؤلاء الكذبة ، بل الإيمان في مقدوره إن شاء .

2. أن كل أفعاله عدل لمحض المشيئة ، وعندنا هي عدلُ لموافقة حكمته ورحمته

ولأجل هذا الاختلاف بين الفرق في حقيقة الظلم اختلفوا في فهم حديثين صحيحين عن النبي صلي الله عليه وسلم ، قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية

(أما الحديث الأول فقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في الصحيح حديث أبي ذر المعروف «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» وهذا يدل على أنَّ الله حَرَّمَ الظلم على نفسه، فلو كان الظلم على تفسير أولئك لا يقع إلا من مأمور ومنهي - يعني من المخلوقين لأنه ممتنع لذاته في حق معبودهم - ، فكيف يكون تحريمه على الله - عز وجل -؟ يكون تحريمه تحصيل حاصل لا معنى له **)**

ثم قال :

(ولو كان الظلم هو الامتناع عن القدرة لكان أيضاً إضافته إلى الله - عز وجل - تحريم الظلم ليس له معنى **)** وهذا علي مذهب الجبرية السابق ، ثم بين معتقد أهل السنة والجماعة في الظلم فقال

(فإذاً تحريم الظلم «حرّمت الظلم على نفسي» يعني جعلت وضع الأشياء في غير موضعها الموافق للحكمة جعلته مُحَرَّمَاً على نفسي، وحَرَّمْتُ عليكم أن تظالموا)

ثم قال عن الحديث الثاني الذي رواه أبو داوود غيره عن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – قال

(أتيت أُبَيَّ بنَ كعبٍ ، فقلتُ له : وقَعَ في نفسي شيءٌ من القَدَرِ ، فحدثْني بشيءٍ ، لعلَّ اللهَ أن يُذْهِبَه مِن قلبي . فقال : لو أن اللهَ عذَّب أهلَ سماواتِه ، وأهلَ أرضِه ، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم ، ولو رَحِمَهم كانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهم ، ولو أنفقتَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا في سبيلِ اللهِ ، ما قَبِلَه اللهُ منك حتى تُؤْمِنَ بالقَدَرَ ، وتَعْلَمَ : أن ما أصابَك لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك، وأن ما أخطأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَك ، ولو مِتَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النارَ . قال : ثم أتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ، فقال مثل ذلك . قال : ثم أتيتُ حذيفةَ بنَ اليَمَانِ، فقال مثل ذلك . قال : ثم أتيتُ زيدَ بنَ ثابتٍ ، فحدَّثَني عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك**)** .

قال صالح آل الشيخ :

(والحديث الثاني وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داوود وغيره وصحَّحَهُ بعض العلماء قال صلى الله عليه وسلم «لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ، يعني أنَّ أهل السموات والأرض لو عَذَّبَهُمْ الله - عز وجل - لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم.

المعتزلة يَرُدُّون هذه الأحاديث أصلاً، والأشاعرة يُجَوِّزُونَ أن يُعَذِّبَ الله - عز وجل - الناس من غير سبب؛ لأنهم لا حكمة عندهم ولا تعليل لأفعال الله، يفعل ما يشاء بدون علة وبدون سبب، ومنها أَخَذَ صاحب السَّفَارينية في قوله في منظومته، السَّفاريني:

وجَازَ للمولى يعذب الورى ****** من غير ما ذنبٍ ولا جُرْمٍ جرى

يقول (جائز أن يُعَذِّبَ الورى) يعني الله - عز وجل - من غير ما ذنب ولا جرم جرى.

هذا الحديث أهل السنة لا يُفَسِّرُونه بهذا ولا بهذا؛ بل يفسرونه بعِظَمِ معرفتهم لربهم - جل جلاله - وخشيتهم له ومعرفتهم بحقوقه، فيقول أئمة أهل السنة:

بأنَّ أهل السموات وأهل الأرض إنَّمَا قاموا برحمة الله - عز وجل -، فما فيهم حركة ولا حياة ولا شأن إلا وفي كلٍّ منها فضل من الله - عز وجل - ورحمة ونعمة أفاضها عليهم بها قامت حياتهم وبها استقاموا، كما قال - عز وجل - {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ} ، فمِنْ حَقِّهِ - عز وجل - على هذا العبد المكلف الذي لا ترمش عينه إلا بنعمة، ولا يأكل إلا بنعمة، ولا يتنفس إلا بنعمة، ولا يتعلم إلا بنعمة، ولا يخطو خطوة إلا بنعمة، ولا ينظر إلا بنعمة، ولا يسمع إلا بنعمة، ولا يتكلم إلا بنعمة، ولا يفرح إلا بنعمة، إلى آخر نِعم الله - عز وجل - التي لا تُحْصَى ولا تُعَد، من حقه - عز وجل - أن يُقَابَلَ مع كل نعمة بشكر يقابل تلك النعمة.

فإذاً سيمضي حياته في شكر الله - عز وجل - على الصغير والكبير، فهل تسع حياة المكلفين ذلك؟

لا تسع ذلك.

ولهذا تأمل مع هذا قول الله - عز وجل - لنبيه {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

وتأمَّلْ قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة لما قام حتى ورمت قدماه صلى الله عليه وسلم «أفلا أكون عبداً شكوراً» ولن يَبْلُغْ جميعَ ما يَسْتَحِقْ الله - عز وجل - من الشكر بالعمل؛ بل لابد من الاستغفار والإنابة حتى يكْمُلَ شكر العبد لربه - عز وجل - .

وتأمل أيضاً ما عَلَّمَهُ - صلى الله عليه وسلم - الصدّيق الذي هو أفضل هذه الأمة أن يقول في آخر صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك» كيف عَبَّرَ هنا بالظلم، «ظلمت نفسي ظلما كثيرا» لم؟ هل ظلم أبو بكر بارتكاب الكبائر؟

حاشا وكلا.

هل ظَلَمَ بِظُلْمِ العباد؟

حاشا وكلا.

هل ظلم أبو بكر رضي الله عنه بالتقصير في حق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الاستجابة لله ولرسوله الظلم الكثير؟

حاشا وكلا.

ولكن ينظر العبد إلى ما يُفَاضُ عليه من النِّعَمِ في كل لحظة، فيشعر بأنه مُقَصِّرْ والله - عز وجل - وصف القليل من الإعراض في حق العبد بأنه من الظلم، ووَصَفَ الكثير بأنه من الظلم، فلهذا يشعر المؤمن بأَنَّهُ ظلم نفسه ظلماً كثيراً؛ لأنه لا يمكن أن يشكر حقيقة الشكر .

فلو حاسَبْ الله - عز وجل -العباد، حاسب أهل السموات وأهل الأرض على حقيقة شكر ما أنعم الله به عليهم وأعظم ذلك أن جعلهم مُتَّصِلِينَ منه بسبب ومرفوعين إليه - عز وجل - وأنهم من المنيبين وأنهم من المهتدين لما قامت حيلة العبد ولما قام إيمانه ولما قام له شيء؛ ولكن ما ثَمَّ إلا رحمة الله - عز وجل - «لن

يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضلا».

فإذاً ننظر إلى قوله «لو عذب الله أهل سمواته وأهل أرضه لعذبه وهو غير ظالم لهم» لأنَّ الشكر لن يكون في تمامه، فإذاً هم لن يُعْدَمُوا؛ بل لن يكونوا إلا مُقَصِّرِين، لن يكونوا إلا لم يُوَفُّوا مقام الشكر حقه.

بل حتى التوبة والإنابة إذا العبد كَمَّلَ الشكر بتوبته وإنابته دائماً واستغفاره فإن قَبُول التوبة وحصول المغفرة وقبول الإنابة من العبد أليست هذه نعمة تستحق شكرا مجددا؟

فإذاً لو عَذَّبَ الله أهل سمواته وأهل أرضه لَعَذَّبَهُم وهو غير ظالم لهم، فلا يبرح العبد أن يرى نعمة الله - عز وجل - تُفِيْضَ عليه في أمر دينه وفي أمر دنياه وليس ثَمَّ أمامه سبيل إلا أن يشعر بالتقصير.

وهذا المؤمن الحق دائماً يقول مُحَقِّراً نفسه، عسى الله أن يتغمدنا برحمة منه وفضل ولو كان يصوم النهار ويقوم الليل، وانظر إلى كلام أبي بكر رضي الله عنه في دعائه.

فكيف حال المغرورين الجهلة والمذنبين من هذه الأمة الذين لا يرون أثراً لذنوبهم ولا لإعراضهم؛ بل إذا فعلوا القليل مَنُّوا وأدْلَوا على الله - عز وجل - به وهذه حال من لم يُوَفَّقْ.

أسأل الله - عز وجل - أن يوفقنا جميعا إلى ما يحب ويرضى.

هذا تفسير الظلم عند الطوائف المشهورة: القدرية وهم المعتزلة ، والجبرية وهم أصناف والمتكلمين وقول أهل السنة فيما بين هؤلاء وهؤلاء) **انتهي كلامه** .

باب

في بيان معني الكسب عند أهل السنة ، وعند القدرية والجبرية ، وأول من خاض فيه

أول من ابتدأ الخوض في الكسب بالباطل هو أبو الحسن الأشعري نصرة لمعتقدهم الباطل في الجبر الباطن من أن الإنسان مجبور باطنا علي ما يفعله بنفسه ظاهرا فالإنسان يُفعل به وهو يَفعل ، فهذا هو معني الكسب عندهم ، فالكسب هو ما كسبه الإنسان ظاهرا بنفسه لِما أُجبر عليه باطنا ، وحدوث الشيء إنما هو باقترانه بقدرة الإنسان غير المؤثرة ، والمحدث حقيقة هو الله عز وجل وسبحانه عما يقولون علوا كبيرا .

قال ابن تيمية في بيان معني كسبهم ورد تفرقتهم بين الكسب والفعل (119/8) :

(قالوا: الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة – اي قدرة العبد - والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة- يعني قدرة الله -

وقالوا أيضا: الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه

فقال لهم الناس: هذا لا يوجب فرقًا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة، وهو قائم في محل القدرة الحادثة

وأيضا، فهذا فرق لا حقيقة له، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجًا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه، وهو مبني على أصلين: أن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه – يعني لنفيهم صفاته الفعلية - ، وأن خلقه للعالم هو نفس العالم، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك.

والثاني: أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجًا عن محلها. وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه) **انتهي كلامه .**

وقد سبق الكلام علي ذلك في بيان معتقدهم وتقدم رده أيضا ضمن ضمن شبهاتهم المنقوضة بحمد الله ، فإنهم يعتقدون أن الأمر يحصل عند حركة الإنسان لا بها ، مثل قطع السكين للخبز ، أو تكسير العصا للزجاج ، فإذا ضرب الزجاج بالعصا فإن الزجاج لا ينكسر بالضرب ولكن عند الضرب ، أي كسر الله الزجاج لا بضرب الإنسان ولكن عند ضربه أي أن الزجاج ليس له خاصية الانكسار بضرب العصا والعصا ليس لها خاصية الكسر ، والإنسان ليس فيه خاصية أنه يحمل العصا علي الحقيقة ويكسر علي الحقيقة لهذا سماهم السلف نفاة التعليل ونفاة الأسباب ، أي ليس ثم شئ ينتج شيئا عندهم ، وليس ثم سبب ينتج مسببا ، عندهم كل شيء يحصل بخلق له منعزل عن غيره لا بأسباب غيره ، فالماء إذا نزل الأرض نبت العشب لا بالماء ولكن عند الالتقاء ، وما جاء في القران من قوله تعالي (وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق) لفظ (به)هذا يفسرونه ب (عنده) هذا كثير في التفاسير فعلي طالب العلم أن ينتبه لهذا .

فالجبرية الغلاة جعلوا الكسب والفعل كليهما لله سبحانه ، وأن ربهم هو الفاعل حقيقة ، وأما متوسطوهم من الأشاعرة فهربوا من ناتج ذلك من نسبة المعاصي لربهم ففرقوا بين الكسب والفعل بأن الكسب هو اقتران الفعل بفعل الله أي اقتران ما يحدثه العبد بفعل الله ، فعندهم أن الفعل حقيقة هو فعل الله ، والعبد حصل له العمل لكن النتيجة هي الكسب ، فالعبد في الظاهر مختار ، والعبد في الظاهر يعمل ، والعبد في الظاهر يحصل ما يريد ، لكنه في الباطن مفعول به ، وهم أنفسهم مختلفون في الكسب علي أقوال كثيرة في غيرطائل .

أما أهل السنة فلا فرق عندهم بين الكسب والفعل ، فكلاهما بمعني العمل أي ما يعمله الإنسان باختياره ومشيئتة وقدرته وإرادته المخلوقة لا بجبر باطن خلافا للجبرية ، ولن يفعل إلا بإذن من الله كونيا كان أو شرعيا كما سبق في بيان نوعي الإرادة والإذن .

وأما الكسب والاكتساب فكثير من أهل السنة يجعلونهما بمعني واحد لكن في قوله تعالي (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فسروا الاكتساب فيها بأن فيه زيادة في المعني لأن زيادة المبني تدل علي زيادة المعني وهو ما روي عن غير واحد من السلف من أن المراد : لها ما كسبت من طاعة {وعليها ما اكتسبت} من معصية ففي الاكتساب نوع كلفة في العمل وفي الجزاء كذلك ؛ لمخالفته لفطرة الله التي فطر الناس عليها فإتيان المحرمات يحتاج معه الإنسان إلي اعتمال وإتعاب للنفس في العمل وجزائه وعاقبته الوخيمة المترتبة عليه

وأما القدرية فالكسب عندهم هو خلق العبد لفعل نفسه وإيجاده للفعل، ككسب التجارة .

قال ابن تيمية كما في المجموع (8/ 128)

(ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون ثلاثة أشياء لا حقيقة لها : طفرة النظام وأحوال أبى هاشم وكسب الأشعري ، واضطروهم إلي أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادي ، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه ، ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثرا في هذا بأولي من العكس ، ويقع بين المعلول وعلته المنفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا تتجاوز محلها ، ولهذا فرّ القاضي أبو بكر إلي قول ، وأبو إسحاق الإسفرائيني إلي قول ، وأبو المعالي الجويني إلي قول ، لما رأوا ما في هذا القول من التناقض) .

وفي آخر الكتاب أنقل لك قول ابن تيمية :

وتـحـقـيـقُ مـــا فـيـه بـتـبـيينِ غـَـوْرِه *** وتـحـريرُ حـقّ الـحقّ فـي ذي الـحقيقةِ

هــو الـمـطلبُ الأقـصـى لـواردِ بـحـره *** وذا عَـسِرٌ فــي نـظم هـذى الـقصيدةِ

لـحـاجـتـِه إلــــى بــيــانِ مــحــقّقِ *** لأوصـــــافِ مــولانــا الإلـــهِ الـكـريـمـةِ

وأسـمـائـه الـحـسـنى وأحـكـام ديـنـه *** وأفـعـالُـه فـــي كــل هـذي الـخـليقةِ

وهــذا بـحـمـد الله قــد بـــان ظـاهـرًا *** وإلــهـامُـه لـلـخـلـقِ أفـضــلُ نـعـمـةِ

وقـــد قـيـل فـــي هـذا وخـط كـتـابه *** بـيـان شـفـاء لـلـنـفوس الـسـقـيمة

رسالة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – في القدر

وهي من أنفس ما كتبه سلفنا الصالحون في هذا الباب الخطير

وقد علقت عليها في جمل معترضة تعليقات يسيرة في ضوء ما تقدم

قال أبو نعيم الحافظ حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد ابن إسحاق السراج، ثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدام، ثنا محمد بن بكر البرساني، ثنا سليم بن نفيع القرشي، عن خلف أبي الفضل القرشي ،عن كتاب عمر بن عبد العزيز إلى النفر الذين كتبوا إليّ بما لم يكن لهم بحق في رد كتاب الله تعالى ، وتكذيبهم بأقداره النافذة في علمه السابق الذي لا حد له إلا إليه، وليس لشيء منه مخرج، وطعنهم في دين الله وسنة رسوله القائمة في أمته.

أما بعد:

فإنكم كتبتم إليّ بما كنتم تسترون منه قبل اليوم في ردّ علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة، وسينقص العلم نقصا سريعا - وفي بعض النسخ وسيقبض العلم قبضا سريعا - ، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو يعظ الناس -: "إنه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، قد تبينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر، فمن رغب عن أنباء النبوة، وما جاء به الكتاب تقطعت من يديه أسباب الهدى، ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى"

وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أني أقول: إن الله قد علم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، فأنكرتم ذلك عليّ وقلتم: إنه ليس يكون ذلك من الله في علمٍ حتى يكون ذاك من الخلق عملا، فكيف ذلك كما قلتم؟ والله تعالى يقول: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} ، يعني عائدين في الكفر، وقال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} ، فزعمتم بجهلكم في قول الله تعالى {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} ، أن المشيئة في أي ذلك أحببتم فعلتم من ضلالة أو هدى، والله تعالى يقول: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ، **فبمشيئة الله لهم شاءوا ولو لم يشأ لم ينالوا بمشيئتهم من طاعته شيئا قولا ولا عملا، لأن الله لم يملك العباد ما بيده،** ولم يفوض إليهم ما يمنعه من رسله، فقد حرصت الرسل على هدي الناس جميعا، فما اهتدى منهم إلا من هداه الله، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعا فما ضل منهم إلا من كان في علم الله ضالا.

وزعمتم بجهلكم أنّ علمَ الله ليس بالذي يضطرّ العباد إلى ما عملوا من معصيته ولا بالذي صدهم عما تركوه من طاعته – يعني أنهم ظنوا أن إثبات علم الله القديم بما خلقه عاملون ظنوه جبرا - ولكنه بزعمكم كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها فجعلتم علم الله لغوا، تقولون لو شاء العبد لعمل بطاعة الله وإن كان في علم الله أنه غير عامل بها- يقصدون أن العبد خالق فعل نفسه - ، ولو شاء ترك معصيته وإن كان في علم الله أنه غير تارك لها، فأنتم إذا شئتم أصبتموه وكان علما، وإن شئتم رددتموه وكان جهلا، وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله وقطعتم به علم الله عنكم، وهذا ما كان ابن عباس يعدّه للتوحيد نقضا وكان يقول: إن الله لم يجعل فضله ورحمته هملا بغير قَسْم منه ولا اختيار، ولم يبعث رسله بإبطال ما كان في سابق علمه .

فأنتم تقرون في العلم بأمر وتنقضونه في آخر والله تعالى يقول: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ} ، فالخلق صائرون إلى علم الله تعالى ونازلون عليه وليس بينه شيء هو كائن حجاب تحجبه عنه ولا يحول دونه إنه عليم حكيم .

وقلتم لو شاء الله لم يفرض - وفي نسخة لم يعذب - بعمل بغير ما أخبر الله في كتابه عن قوم ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وأنه قال: { ... سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، فأخبر أنهم عاملون قبل أن يعملوا، وأخبر أنه معذبهم قبل أن يخلقوا، وتقولون أنتم: إنهم لو شاءوا خرجوا من علم الله في عذابه إلى ما لم يعلم من رحمته لهم، ومن زعم ذلك فقد عادى كتاب الله بِرَدّ، ولقد سمى الله تعالى رجالا من الرسل بأسمائهم وأعمالهم في سابق علمه فما استطاع آباؤهم لتلك الأسماء تغييرا، وما استطاع إبليس بما سبق لهم في علمه من الفضل تبديلا، فقال: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} .

فالله أعز في قدرته وأمنع من أن يملّك أحدا إبطال علمه في شيء من ذلك، فهو مُسمّى لهم بوحيه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو أن يشرك في خلقه أحدا، أو يدخل في رحمته من قد أخرجه منها أو يخرج منها من قد أدخله فيها، ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق بل لم يزل الله وحده بكل شيء عليما وعلى كل شيء شهيدا، قبل أن يخلق شيئا، وبعد ما خلق لم ينقص علمه في بدئهم، ولم يزد بعد أعمالهم، ولا بجوائحه التي قطع بها دابر ظلمهم، **ولا يملك إبليس هدي نفسه ولا ضلالة غيره** – لا يملك أحد هداية نفسه بل العبد يختار والله الموفق الميسر للعبد ما اختاره وهو خالقه وخالق فعله وإرادته وقدرته ولن يفعل العبد ما اختار لنفسه وبقدرته وإرادته المخلوقة إلا بأمر ثالث زائد وهو توفيق الله عز وجل وإذنه ومشيئته فليس في الكون سكون ولا حركة لمخلوق من مخلوقاته إلا بإذنه ومشيئته وكلها بقدره وتقديره ، فمن اختار الطاعة وفقه ويسر له وشاء كونا وشرعا أن يفعل الطاعة ومن اختار عصيانه خذله وشاء كونا لا شرعا أن يفعل المعصية - ، وقد أردتم بقذف مقالتكم إبطال علم الله في خلقه وإهمال عبادته وكتاب الله قائم ينقض بدعتكم وإفراط قذفكم، ولقد علمتم أن الله بعث رسوله والناس يومئذ أهل شرك فمن أراد الله له الهدى لم تَحُلْ ضلالته التي كان فيها دون إرادة الله له، ومن لم يرد الله له الهدى تركه في الكفر ضالا، فكانت ضلالته أولى به من هداه فزعمتم أن الله أثبت في قلوبكم الطاعة والمعصية وأن الله خلو من

أن يكون يختص أحدا برحمته، ويحجز أحدا عن معصيته، وزعمتم أن الشيء الذي بقدر إنما هو عندكم اليسر والرخاء، والنعمة، وأخرجتم منه الأعمال وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله، وأنكم الذين حجزتموها عن المعصية بغير قوة من الله ولا إذن منه.

فمن زعم ذلك فقد غلا في القول لأنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله وقدره لكان لله في ملكه شريك ينفذ مشيئته في الخلق من دون الله – لأنه إذا لم يكن يعلم فهذا نفي للمشيئة والخلق من باب أولي ؛ ولهذا قال السلف في مناظرة هؤلاء " ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا " لأن إنكارهم للعلم هو إنكار للمشيئة والخلق ، وإثباتهم له إثبات لهما - .

والله سبحانه وتعالى يقول: {حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} ، وهم له قبل ذلك كارهون {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} ، وهم له قبل ذلك محبون.

وما كانوا على شيء من ذلك لأنفسهم بقادرين – فيه إثبات للاستطاعة قبل الفعل ونفي أن تكون الاستطاعة التي مع الفعل كافية لإنجازه وتنفيذه -

ثم أخبر بما سبق لمحمد صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه والمغفرة له ولأصحابه فقال تعالى: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم} ، وقال تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر} ، فلولا علمه ما غفرها الله له قبل أن يعملها، وفضلا سبق لهم من الله قبل أن يخلقوا ورضوانا عنهم قبل أن يؤمنوا، ثم أخبر بما هم عاملون آمنون قبل أن يعملوا وقال: {تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} ، فتقولون أنتم إنهم قد كانوا ملكوا رد ما أخبر الله عنهم أنهم عاملون، وأن إليهم أن يقيموا على كفرهم مع قوله: فيكون الذي أرادوا لأنفسهم من الكفر مفعولا، ولا يكون لوحي الله فيما اختار تصديقا، بل لله الحجة البالغة في قوله تعالى: {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ، فسبق لهم العفو من الله فيما أخذوا قبل أن

يؤذن لهم وقلتم: لو شاءوا خرجوا من علم الله في عفوه عنهم إلى ما لم يعلم من تركهم لما أخذوا فمن زعم ذلك فقد غلا وكذب .

ولقد ذكر الله بشرا كثيرا، وهم يومئذ في أصلاب الرجال وأرحام النساء فقال: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} ، وقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ} ، فسبقت لهم الرحمة من الله قبل أن يُخلقوا والدعاء لهم بالمغفرة ممن لم يسبقهم بالإيمان من قبل أن يدعوا لهم، ولقد علم العالمون بالله أن الله لا يشاء أمرا فتَحُول مشيئة غيره دون بلاغ ما شاء.

ولقد شاء لقوم الهدى فلم يُضِلّهم أحد.

وشاء إبليس لقوم الضلالة فاهتدوا .

وقال لموسى وهارون: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} ، وموسى في سابق علمه أنه يكون لفرعون عدوا وحزنا فقال تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} ، فتقولون أنتم لو شاء فرعون كان لموسى وليا وناصرا والله تعالى يقول: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً} – وهذا رد عليهم في إنكارهم علم الله سبحانه لا نفي اختيار فرعون للهدي وأنه غير مجبور ، وليس في علمه السابق جبر كما تقدم أول الكتاب ولكن من علم الله منه المعصية وكتبها عليه وشاءها كونا فلا بد من وقوعها كما بينا حقيقة الإرادة الكونية وهذا ما أراده عمر هنا - ، وقلتم لو شاء فرعون لامتنع من الغرق والله تعالى يقول: {إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ} ، مثبت ذلك عنده في وحيه في ذكر الأولين، كما قال في

سابق علمه لآدم قبل أن يخلقه: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} ، فصار إلى ذلك بالمعصية التي ابتلى بها، وكما كان إبليس في سابق علمه أنه سيكون مذموما مدحورا وصار إلى ذلك لما ابتلي به من السجود لآدم فتلقى آدم التوبة فرحم، وتلقى إبليس اللعنة فغوى ثم أهبط آدم إلى ما خلق له من الأرض مرحوما متوبا عليه وأهبط إبليس بنظرته مدحورا مذموما مسخوطا عليه، وقلتم أنتم أن إبليس وأولياءه من الجن قد كانوا ملكوا

رد علم الله والخروج من قسمه الذي أقسم به إذ قال: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ، حتى لا ينفذ علم إلا بعد مشيئتهم **فماذا تريدون بهلكة أنفسكم في رد علم الله؟؟؟ فإن الله عز وجل لم يشهدكم خلق أنفسكم فكيف يحيط جهلكم بعلمه،** وعلم الله ليس بمُقصّر عن شيء هو كائن، ولا يسبق علمه في شيء فيقدر أحد على رده، فلو كنتم تنتقلون في كل ساعة من شيء إلى شيء هو كائن لكانت مواقعكم عنده، ولقد علمت الملائكة قبل خلق آدم ما هو كائن من العباد في الأرض من الفساد وسفك الدماء، فيها وما كان لهم في الغيب من علم، فكان في علم الله الفساد وسفك الدماء.

وما قالوا تخرصا إلا بتعليم الحكيم لهم، فظن ذلك منهم وقد أنطقهم به فأنكرتم أن الله أزاغ قوما قبل أن يزيغوا وأضل قوما قبل أن يضلوا وهذا فيما لا يشك فيه المؤمنون بالله أن الله قد عرف قبل أن يخلق العباد مؤمنهم من كافرهم، وبرهم من فاجرهم، وكيف يستطيع عبد هو عند الله مؤمن أن يكون كافرا أو هو عند الله كافر أن يكون مؤمنا والله تعالى يقول: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} ، فهو في الضلالة ليس بخارج منها أبدا إلا بإذن الله ثم آخرون اتخذوا من بعد الهدى عجلا جسداً فضلوا به فعفى عنهم، لعلهم يشكرون فصاروا من أمة قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم ضلت ثمود بعد الهدى فلم يعف عنهم ولم يرحموا فصاروا في علمه إلى صيحة واحدة فإذا هم خامدون، فنفذوا إلى ما سبق لهم أن صالحا رسولهم وأن الناقة فتنة لهم وأنه مميتهم كفارا فعقروها، وكان إبليس فيما كانت فيه الملائكة من التسبيح والعبادة ابتلي فعصى فلم يرحم، وابتلى آدم فعصى فرحم، وهمّ آدم بالخطيئة فنسي، وهم يوسف بالخطيئة فعصم، فأين كانت الاستطاعة عند ذلك؟ هل كانت تغني شيئا فيما كان من ذلك حتى لايكون؟ أو تغني فيما لم يكن حتى يكون؟ فتعرف لكم بذلك حجة، بل الله أعز مما تصفون وأقدر .

وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى، وإنما علمه بزعمكم حافظ وأن المشيئة في الأعمال إليكم إن شئتم أحببتم الإيمان فكنتم من أهل الجنة .

ثم جعلتم بجهلكم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء به أهل السنة وهو مصدق للكتاب المنزل أنه من ذنب مضاه ، ذنبا خبيثا في قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله عمر: "رأيت ما نعمل أشيء قد فرغ منه؟ أم شيء نأتنفه" فقال صلى الله عليه وسلم: "بل شيء قد فرغ منه" ، فطعنتم بالتكذيب له، ونفرتم من الله في علمه إذ قلتم إن كنا لا نستطيع الخروج منه فهو الجبر، والجبرعندكم الحيف، فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا وقد جاء الخبر: "إن الله خلق آدم فنثر ذريته في يده فكتب أهل الجنة وما هم عاملون وكتب أهل النار وما هم عاملون"، وقال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا آراءكم على دينكم فوالذي نفسي بيده لقد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع رد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددناه والله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلا أسهل بنا على أمر نعرفه قبل أمركم هذا .

ثم أنتم بجهلكم قد أظهرتم دعوة حق على تأويل باطل تدعون الناس إلى رد علم الله فقلتم الحسنة من الله والسيئة من أنفسنا – يقصدون إضافة القدر إلي مقدره وهم المقدرون له لا إضافة السبب إلي مسببه - وقال أئمتكم وهم أهل السنة: الحسنة من الله في علم قد سبق، والسيئة من أنفسنا في علم قد سبق، فقلتم لا يكون ذلك حتى يكون بدؤها من أنفسنا كما بدء السيئات من أنفسنا، **وهذا رد للكتاب منكم ونقض للدين، وقد قال ابن عباس حين نجم القول بالقدر هذا أول شرك هذه الأمة، والله ما ينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا .**

فأنتم تزعمون بجهلكم أن من كان في علم الله ضالا فاهتدى فهو بما ملك من ذلك حتى كان في هداه ما لم يكن الله علمه فيه، وأن من شرح صدره للإسلام فهو بما فوّض إليه قبل أن يشرحه الله له، وأنه إن كان مؤمنا فكفر فهو مما شاء لنفسه وملك من ذلك لها وكانت مشيئته في كفره أنفذ من مشيئة الله في إيمانه بل

أشهد أنه من عمل حسنة فبغير معونة كانت من نفسه عليها وأن من عمل سيئة فبغير حجة كانت له فيها وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وأن لو أراد الله أن يهدي الناس جميعا لنفذ أمره فيمن ضل حتى يكون مهتديا، فقلتم بمشيئته شاء لكم تفويض الحسنات إليكم وتفويض السيئات ألقي عنكم سابق علمه في أعمالكم، وجعل مشيئته تبعا لمشيئتكم .

ويحكم فوالله ما أمضى لبني إسرائيل مشيئتهم حين أبوا أن يأخذوا ما آتاهم بقوة حتى نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة – وهذه حجة قاطعة ولا مناص منها فتبين أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب لحكمه سبحانه - ، فهل رأيتموه أمضى مشيئته لمن كان في ضلالته حين أراد هداه حتى صار إلى أن أدخله بالسيف إلى الإسلام كرها بموضع علمه بذلك فيه أم هل أمضى لقوم يونس مشيئتهم حين أبوا أن يؤمنوا حتى أظلهم العذاب فآمنوا وقبل منهم ورد على غيرهم الإيمان فلم يقبل منهم وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} ، أي علم الله الذي قد خلا في خلقه {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} وذلك كان موقفهم عنده أن يهلكوا بغير قبول، **بل الهدى والضلالة والكفر والإيمان، والخير والشر، بيد الله يهدي من يشاء ويذرُ من يشاء في طغيانهم يعمهون .**

كذلك قال إبراهيم عليه السلام: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ} ، وقال عليه السلام: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} أي أن الإيمان والإسلام بيدك وأن عبادة من عبد الأصنام بيدك فأنكرتم ذلك وجعلتموه ملكا بأيديكم دون مشيئة الله عز وجل.

وقلتم في القتل إنه بغير أجل، وقد سماه الله لكم في كتابه فقال ليحيى: {وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} ، فلم يمت يحيى إلا بالقتل وهو موت كما مات من قتل منهم شهيدا أو قتل عمدا أو قتل خطأ كمن مات بمرض أو فجأة، كل ذلك موت بأجل توفاه، ورزق استكمله وأثر بلغه، ومضجع برز إليه {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً} .

ولا تموت نفس ولها في الدنيا عمر ساعة إلا بلغته ولا موضع قدم إلا وطأته، ولا مثقال حبة من رزق إلا استكملته، ولا مضجع بحيث كان إلا برزت إليه، يصدق ذلك قول الله عز وجل: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ} ، فأخبر الله سبحانه بعذابهم بالقتل في الدنيا، والآخرة بالنار، وهم أحياء بمكة.

وتقولون أنتم أنهم قد كانوا ملكوا رد علم الله في العذابين اللذين أخبر الله ورسوله أنهما نازلان بهم وقال تعالى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} ، يعني القتل يوم بدر {وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} ، فانظروا إلى ما أرداكم فيه رأيكم، وكتابا سبق في علمه بشقائكم إن لم يرحمكم ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بنى الإسلام على ثلاثة أعمال، الجهاد ماض منذ يوم بعث الله رسوله إلى يوم القيامة فيه عصابة من المؤمنين يقاتلون الدجال لا ينقض ذلك جور جائر، ولا عدل من عدل"، والثانية: أهل التوحيد لا تكفروهم ولا تشهدوا عليهم بشرك، والثالثة: المقادير كلها خيرها وشرها من قدر الله فنقضتم من الإسلام جهاده، ونقضتم شهادتكم على أمتكم بالكفر، وبرئتم منهم ببدعتكم، وكذبتم بالمقادير كلها والآجال والأعمال والأرزاق، فما بقيت في أيديكم خصلة ينبني الإسلام عليها إلا نقضتموها وخرجتم منها .

آخر الرسالة .

تائية ابن تيمية في حل المشكلة القدرية

وقد استدللت بكل بيت منها في موضعه المناسب من الكتاب

وهي سؤال عن القدر: أورده عليه أحد علماء الذميين فقال :

1- أيا علماءَ الدين ذمِّيٌّ دينكم ... تحيرَّ دُلُّوه بأوضحِ حجةِ

2- إذا ما قضى ربيْ بكفريْ بزعمكم ... ولم يَرضَهُ مني فما وَجْهُ حيلتي

3- دعاني وسدَّ البابَ عنيْ فهل إلى ... دخوليْ سبيلٌ بيّنوا لي قضيتي

4- قضى بضلاليْ ثم قال: ارضَ بالقضا ... فما أنا راضٍ بالذي فيه شقوتي

5- فإن كنت بالمقضيِّ -ياقومُ- راضيًا ... فَرَبِّيَ لا يرضى بشوْمِ بليَّتي

6- وهل ليْ رضا ما ليس يرضاه سيدي ... فقد حِرْتُ دُلوني على كشف حيرتي

7- إذا شاء ربِّيْ الكفرَ مني مشيئةً ... فهل أنا عاصٍ في اتباع المشيئةِ

8- وهل ليْ اختيارٌ أن أخالفَ حُكْمَهُ ... فبالله فاشفوا بالبراهين غُلتي

فأجاب شيخ الإسلام الشيخ الإمام العالم العلامة أحمد بن تيمية مرتجلاً :

الحمد لله رب العالمين...

1- سؤالُك يا هذا سؤالُ معاندٍ ... مخاصمِ ربِّ العرش باري البريةِ

2- فهذا سؤالٌ خَاصَمَ الملأَ العُلا ... قديمًا به إبليسُ أصلُ البليةِ

3- ومن يكُ خصمًا للمهيمن يرجعنْ ... على أمِّ رأسٍ هاويًا في الحُفيرةِ

4- ويدعى خصومُ اللهِ يومَ معادهم ... إلى النار طُرًّا معشرَ القدريةِ

5- سواءٌ نفوه أو سعوا ليخاصموا ... به اللهَ أو مارَوْا به للشريعةِ

6- وأصلُ ضلالِ الخَلْقِ من كل فرقةٍ ... هو الخوضُ في فعل الإله بِعِلَّةِ

7- فإنهمو لم يفهموا حكمةً له ... فصاروا على نوعٍ من الجاهليةِ

8- فإن جميعَ الكونِ أوجب فِعْلَه ... مشيئةُ ربِّ الخلق باري الخليقةِ

9- وذاتُ إله الخَلْقِ واجبة بما ... لها من صفات واجبات قديمةِ

10- مشيئتُه مَعْ عِلْمِه ثم قدرة ... لوازمُ ذاتِ الله قاضي القضيةِ

11- وإبداعُه ما شاء من مُبْدَعاته ... بها حِكْمَةٌ فيه وأنواعُ رحمةِ

12- ولسنا إذا قلنا جَرَتْ بمشيئة ... من المنكري آياتِه المستقيمةِ

13- بل الحقُّ أن الحكمَ لله وحده ... له الخلقُ والأمرُ الذي في الشريعةِ

14- هو المَلِكُ المحمودُ في كلِّ حالةٍ ... له المُلْكُ من غير انتقاص بِشِركةِ

15- فما شاء مولانا الإلهُ فإنه ... يكون وما لا لا يكون بحيلةِ

16- وقدرتُه لا نقصَ فيها وحكمه ... يَعُمُّ فلا تخصيصَ في ذي القضيةِ

17- أُرِيْدُ بذا أن الحوادثَ كلَّها ... بقدرته كانت ومحضِ المشيئةِ

18- ومالِكُنا في كلِّ ما قَدْ أراده ... له الحمدُ حمدًا يعتلي كلَّ مِدْحةِ

19- فإن له في الخلق من نعم سرت ... ومن حِكَمٍ فوق العقولِ الحكيمةِ

20- أمورًا يحار العقل فيها إذا رأى ... من الحِكم العليا وكل عجيبةِ

21- فنؤمنُ أن الله عزَّ بقدرةٍ ... وخلقٍ وإبرامٍ لحكم المشيئةِ

22- فنثبت هذا كلَّه لإلهنا ... ونثبت ما في ذاك من كل حكمةِ

23- وهذا مقام طالما عجز الأُلى ... نفوه وكروا راجعين بحيرةِ

24- وتحقيقُ ما فيه بتبيين غوره ... وتحرير حقِّ الحق في ذي الحقيقةِ

25- هو المطلب الأقصى لِوُرَّاد بحره ... وذا عسِرٌ في نظم هذي القصيدةِ

26- لحاجته تبيينَ علمٍ مُحقَّقٍ ... لأوصافِ مولانا الإلهِ الكريمةِ

27- وأسمائه الحسنى وأحكام دينه ... وأفعاله في كل هذي الخليقةِ

28- وهذا - بحمد الله - قد بان ظاهرًا ... وإلهامُه للخلق أفضلُ نعمةِ

29- وقد قيل في هذا وخُطَّ كتابُه ... بيانٌ شفاءٌ للنفوس المريضةِ

30- فقولك: «لِمْ قد شاء؟» مثل سؤالِ مَنْ ... يقول: فَلِمْ قد كان في الأزليةِ

31- وذاك سؤال يبطل العقلُ وَجْهَهُ ... وتحريمُه قد جاء في كل شرعةِ

32- وفي الكون تخصيصٌ كثيرٌ يدلُّ من ... له نوعُ عقلٍ أنه بإرادةِ

33- وإصدارُه عن واحد بعد واحد ... أو القولُ بالتجويز رميةُ حيرةِ

34- ولا ريبَ في تعليق كلِّ مُسَبَّبٍ ... بما قبله من علة مُوجِبيَّةِ

35- بل الشأنُ في الأسبابِ أسبابِ ما ترى ... وإصدارها عن حكم محض المشيئة

36- وقولك: لِمْ شاء الإلهُ هو الذي ... أزلَّ عقول الخلق في قَعْر حُفْرةِ

37- فإن المجوسَ القائلين بخالق ... لنفع وربٍّ مُبدعٍ للمَضرةِ

38- سؤالُهم عن علة السرِّ أوقعت ... أوائلَهم في شبهة الثَّنويةِ

39- وأن ملاحيدَ الفلاسفةِ الأُلى ... يقولون بالفعل القديمِ بعلةِ

40- بغوا علة في الكون بعد انعدامه ... فلم يجدوا ذاكم فضلوا بِضَلَةِ

41- وإن مبادي الشر في كل أمة ... ذوي ملة ميمونة نبويةِ

42- بخوضهموا في ذاكُمُ صار شركُهُمْ ... وجاء دُروسُ البينات بفترةِ

43- ويكفيك نقضًا أن ما قد سألتَهُ ... من العذر مردودٌ لدى كل فطرةِ

44- فأنت تعيب الطاعنين جميعهم ... عليك وترميهم بكل مذمةِ

45- وتَنْحل من والاك صَفْوَ مودةٍ ... وتبغض من ناواك من كل فرقة

46- وحالهم في كل قول وفعلة ... كحالك -يا هذا- بأرجح حجة

47- وهَبْك كففتَ اللومَ عن كل كافرٍ ... وكلِّ غويٍّ خارجٍ عن محجة

48- فيلزمك الإعراضُ عن كل ظالمٍ ... على الناس في نفس ومالٍ وحرمة

49- فلا تغضبن يومًا على سافك دمًا ... ولا سارقٍ مالًا لصاحب فاقة

50- ولا شاتمٍ عِرْضًا مصونًا وإن علا ... ولا ناكح فرجًا على وجه غية

51- ولا قاطع للناس نهجَ سبيلِهم ... ولا مفسد في الأرض من كل وجهة

52- ولا شاهدٍ بالزور إفكًا وفريةً ... ولا قاذف للمحصنات بزنية

53- ولا مهلك للحرث والنسل عامدًا ... ولا حاكمٍ للعالمين برشوةِ

54- وكُفَّ لسان اللوم عن كل مفسدٍ ... ولا تأخذنْ ذا جرمةٍ بعقوبةِ

55- وسهِّل سبيل الكاذبين تعَمُّدًا ... على ربهم مِنْ كلِّ جاءٍ بفريةِ

56- وإن قصدوا إضلال من يستجيبهم... بروِمِ فسادِ النوع ثم الرياسةِ

57- وجادل عن الملعونِ فرعونَ إذ طغى ... فأُغْرِق في اليم انتقامًا بغضبةِ

58- وكلِّ كفورٍ مشركٍ بإلههِ ... وآخرَ طاغٍ كافرٍ بنبوةِ

59- كعادٍ ونمروذ وقومٍ لصالح ... وقوم لنوح ثم أصحاب الآيكةِ

60- وخاصم لموسى ثم سائر من أتى ... من الأنبياء محييًا للشريعة

61- على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا... ونالوا من العاصي بليغ العقوبة

62- وإلا فكلُّ الخلقِ في كلِّ لفظةٍ ... ولحظةِ عينٍ أو تحرك شعرةِ

63- وبطشة كفٍّ أو تخطي قُديمةٍ ... وكلِّ حراكٍ بل وكل سكينةِ

64- هم تحت أقدار الإلهِ وحكمهِ ... فما أنت فيما قد أتيت بحجةِ

65- وَهَبْكَ رفعت اللومَ عن كل فاعلٍ ... فعالَ ردًى طردًا لهذي المقيسةِ

66- فهل يُمْكِننْ رفعُ الملامِ جميعِهِ ... عن الناس طُرًّا عند كلِّ قبيحةِ

67- وتركُ عقوبات الذين قد اعتدوا ... وتركُ الورى الإنصافَ بين الرعيةِ

68- فلا تُضمنَنْ نفسٌ ومالٌ بمثلهِ ... ولا يعقبن عادٍ بمثل الجريمةِ

69- وهل في عقول الناس أو في طباعهم ... قبولٌ لقول النذل: ما وجه حيلتي

70- ويكفيك نقضًا ما بجسمِ ابنِ آدمٍ ... صبيٍّ ومجنون وكلِّ بهيمةِ

71- من الألم المقضيِّ من غير حيلةٍ ... وفيما يشاء الله أكملُ حكمةِ

72- إذا كان في هذا له حكمةٌ فما ... يُظن بخلق الفعل ثم العقوبة

73- فكيف ومِنْ هذا عذاب مُولَّدٌ ... عن الفعلِ فِعل العبد عند الطبيعة

74- كآكِلِ سمٍّ أوجب الموتَ أكلُه ... وكلٌّ بتقديرٍ لرب البرية

75- فَكُفْرُك يا هذا كسمٍّ أكلْتَهُ ... وتعذيبُ نارٍ مثل جرعةِ غصةِ

76-ألست ترى في هذه الدار مَنْ جنى ... يعاقب إما بالقضا أو بشرعة

77- ولا عُذْرَ للجاني بتقدير خالقٍ ... كذلك في الأخرى بلا مَثْنَوِيَّةِ

78- وتقدير ربِّ الخلق للذنب موجِبٌ ... لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبةِ

79- وما كان من جنس المتاب لرفعه ... عواقبَ أفعالِ العبادِ الخبيثةِ

80- كخيرٍ به تُمحى الذنوبُ ودعوةٍ ... تُجاب من الجاني ورُبَّ شفاعة

81- وقولُ حليف الشرِّ: إني مقدرٌ ... عليَّ كقول الذئب: هذي طبيعتي

82- وتقديره للفعل يجلب نقمةً... كتقديره الأشياءَ طرًّا بعلةِ

83- فهل ينفعن عُذْرُ الملوم بأنه... كذا طبعه أم هل يقال لعثرةِ

84- أم الذمُّ والتعذيب أوكد للذي ... طبيعته فعل الشرور الشنيعة

85- فإن كنتَ ترجو أن تجاب بما عسى ... ينجِّيك من نار الإله العظيمةِ

86- فدونك ربَّ الخلقِ فاقْصُدْه ضارعًا ... مريدًا لأن يهديْك نحو الحقيقةِ

87- وذلِّل قيادَ النفسِ للحق واسمعن ... ولا تعرضن عن فكرة مستقيمةِ

88- وما بان من حق فلا تتركنَّه ... ولا تعصِ من يدعو لأقوم شرعةِ

89- ودَعْ دِينَ ذي العاداتِ لا تتبَعَنَّه ... وعُجْ عن سبيل الأمةِ الغضبيَّة

90- ومن ضل عن حقّ فلا تقفونَّه ... وزنْ ما عليه الناس بالمَعْدِليةِ

91- هنالك تبدو طالعاتٌ من الهدى ... بتبشير من قد جاء بالحنفية

92- بملة إبراهيم ذاك إمامنا ... ودين رسول الله خير البريةِ

93- فلا يقبل الرحمنُ دينًا سوى الذي ... به جاءت الرسْلُ الكرامُ السجيةِ

94- وقد جاء هذا الحاشرُ الخاتَم الذي ... حوى كلَّ خير في عموم الرسالةِ

95- وأخبر عن رب العباد بأنَّ مَنْ ... غدا عنه في الأخرى بأقبحِ خيبةِ

96- فهذي دلالاتُ العبادِ لحائر ... وأما هداه فهو فعلُ الربوبةِ

97- وفَقْدُ الهدى عند الورى لا يفيد مَنْ ... غدا عنه بل يجري بلا وجه حجةِ

98- وحجةُ محتجٍّ بتقدير ربِّه ... تزيد عذابًا كاحتجاج مريضةِ

99- وأما رضانا بالقضاء فإنما ... أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبةِ

100- كسقمٍ وفقرٍ ثم ذلٍّ وغُربةٍ ... وما كان من مؤذٍ بدون جريمةِ

101- فأما الأفاعيلُ التي كرهت لنا ... فلا نصَّ يأتي في رضاها بطاعةِ

102- وقد قال قومٌ من أولي العلم: لا رضًا ... بفعلِ المعاصيْ والذنوبِ الكبيرةِ

103- فإن إلهَ الخلق لم يرضَها لنا ... فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئةِ

104- وقال فريقٌ: نرتضي بقضائه ... ولا نرتضي المقضيَّ أقبحَ خصلةِ

105- وقال فريقٌ: نرتضي بإضافةٍ ... إليه وما فينا فنلقى بسخطةِ

106- كما أنها للرب خلقٌ وأنها ... لمخلوقه كسبٌ كفعل الغريزة

107- فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ... ونسخط من وجه اكتساب الخطيئةِ

108- ومعصيةُ العبدِ المكلفِ تركُه ... لما أمر المولى وإن بمشيئةِ

109- فإن إله الخلقِ حقَّ مقالُه ... بأن عبادي في جحيم وجنةِ

110- كما أنهم في هذه الدار هكذا ... بل البهم في الآلام -أيضًا- ونعمة

111- وحكمتُه العليا اقتضت ما اقتضت من الـ ... ـفروق بعلمٍ ثم أيدٍ ورحمةِ

112- يسوق أولي التعذيب بالسبب الذي ... يقدّره نحو العذاب بعزةِ

113- ويهدي أولي التنعيم نحو نعيمهم ... بأعمال صدق في رجاءٍ وخشيةِ

114- وأمرُ إله الخلق بيَّن ما به ... يسوق أولي التنعيم نحو السعادةِ

115- فمن كان من أهل السعادة أثَّرت ... أوامرُه فيه بتيسير صنعةِ

116- ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ ... بأمر ولا نهي بتيسير شقوةِ

117- ولا مخرجٌ للعبد عما به قضى ... ولكنه مختارُ حُسْنٍ وسوأةِ

118- فليس بمجبورٍ عديمٍ إرادةً... ولكنه شاءٍ بخلق الإرادة

119- ومن أعجبِ الأشياءِ خلقُ مشيئةٍ ... بها صار مختارَ الهدى والضلالة

120- فقولك: هل أختار تركًا لحكمه ... كقولك: هل أختار ترك المشيئة

121- وأختار لا أختار فعل ضلالة ... ولو نلت هذا الترك فزت بتوبةِ

122- وذا ممكن لكنه متوقف ... على ما يشاء الله من ذي المشيئة

123- فدونك فافهم ما به قد أُجِبْتَ مِنْ ... معانٍ إذا انحلت بفهم غريزة

124- أشارت إلى أصل يشير إلى الهدى ... ولله رب الخلق أكمل مدحةِ

125- وصلى إله الخلق جل جلاله ... على المصطفى المختار خير البرية

انتهت المنظومة

انتهي الشرح بحمد الله وتوفيقه

وأسأل الله أن يتقبل مني وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم

وأن يجعله شرحا مباركا نافعا للمسلمين

وأسأله سبحانه أن يفتح لنا في العلم فتحا مباركا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن

ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علما وأن يستعملنا وألا يستبدلنا إنه جواد كريم ، ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلي الله وسلم وبارك علي نبينا محمد وعلي آله وصحبه

أجمعين .

فهرس

كانوا في الجاهلية مؤمنين بقدر الله وعلمه الأزلي ومشيئته وكتابته وذكر بعض أشعارهم في ذلك	18
لم يكن في الجاهلية قدري وأقوال السلف في ذلك	18
باب المرتبة الأولي من مراتب القدر الأربع وهي مرتبة العلم وأدلته وأقوال السلف فيه	27-19
كتابته سبحانه لمقادير كل شيء دليل علمه الأول بكل شيء ووجه ذلك	19
اختلاف السلف في تفسير قول الرسول - صلي الله عليه وسلم - عن أطفال المسلمين الذين ماتوا ولم يبلغوا الحنث (الله أعلم بما كانوا عاملين) لما شهدت لهم عائشة - رضي الله عنها - بالجنة	21-20
ليس في علم الله سبحانه ولا في كتابته جبر	24
من أنكر علم الله بما سيكون فكفره بواح وبيان أوجه كونه كفرا وذكر أقوال السلف	24
تفسير قوله تعالي (إلا لنعلم من يتبع الرسول) وأمثالها من الآيات وأن المراد بها إظهار ما تقع به الحجة وتنقطع المعذرة أو (ليري) أي يراه موجودا ، أو (ليظهر علمه فيهم) وأن صفة العلم لله عز وجل صفة ذاتية معنوية باعتبار اتصاف الله بها أزلا وكونها ملازمة له	27-24

259 إلي آخر الكتاب	تائية ابن تيمية في حل المشكلة القدرية وقد استدللت بكل بيت منها في موضعه المناسب من الكتاب فهي مشروحة في ثنايا الكتاب

وللمصنف أيضا :

<u>في علم الاعتقاد</u>

1- مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والخوارج (مطبوع) .

2- مسألة العذر بالجهل وقيام الحجة الرسالية (مطبوع) .

3- كتاب القضاء والقدر .

4- شرح حديث عمرو بن عبسة في توحيد العبادة (شرح للحديث ولأبواب كتاب التوحيد وتحرير مسائله ، يسر الله إتمامه)

5- مجموع مسائل توحيد الأسماء والصفات (يسر الله إتمامه)

- <u>في علم الفقه</u>

1- الإلمام بما في فقه الطهارة من مسائل وأحكام (مطبوع)

2- تحقيق القول في أحكام سجود السهو (رسالة جامعة لأحكامه) مطبوعة .

3- مباحث في فقه الوصايا (مطبوع) .

4- الجامع في فقه البيوع والمعاملات (يسر الله إتمامه) .

5- فقه العبادات (يسر الله إتمامه) .

6- شرح دليل الطالب (ينزل مفرغا من الشرح الصوتي إن شاء الله تعالي و يسّر إتمامه)

- في علم الفرائض والمواريث

التسهيل في علم الفرائض والمواريث وفقه الوصايا .

- في علم القواعد الفقهية

شرح منظومة القواعد للسعدي (يسر الله إخراجه) .

- في علم النحو والصرف

1- شرح ألفية ابن مالك (شرح موسع)

مسجل صوتيا ، وينزل مفرغا من الشرح الصوتي إن شاء الله تعالي و يسر الله إتمامه .

2- شرح و إعراب البسملة وما يتعلق بها من مسائل اعتقادية وفقهية (مطبوع) .

3- إعراب المنظومة البيقونية (مطبوع) .

- في علم مصطلح الحديث

اللآلي الدرية شرح المنظومة البيقونية (شرح موسع مطبوع) .

أسأل الله القبول لي ولكم والإخلاص في القول والعمل وأن يقينا شرور أنفسنا ، إنه قريب مجيب .